الفرقان

١٧ - ١٨

سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفرقان
في تفسير القرآن بالقرآن والسنة

سورة الحج سورة المؤمنون

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

(٢٢) سورة الحج مدنية

وآياتها ثمان وسبعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٤) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ

مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ

عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (١٤) مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (١٥) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾(١٦)

سورة تسمى باسم أفضل فريضة من فرائض الله وأشملها تحليقا على كلّ شرعة الله ، حيث تضم كل مرادات الله من الأمة المرحومة في سبيلها إلى الله ، فكأنها هي القرآن كله ، وكما فضلت سورتها ـ فيما فضلت ـ على سائر القرآن بسجدتين اثنتين ، وقد يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله

وسلم) «فمن لم يسجدهما فلا يقرءهما» [١] والثانية أوجب وأحرى بها لمكان الأمر بها.

ومدنية السورة لائحة من آي الهجرة ، والإذن للقتال ، وناصية القوة في العدّة والعدّة للمسلمين ، المعدّة للنضال ، وقد يلمح الإذن للقتال مع بعض السياق من آياتها ، انها من المدنيات الأوائل حيث أسّست دولة الإسلام جديدة قائمة على ساق ، محضّرة نفسها لغزوات ، وكما الظلال المحلّقة على جو السورة هي ظلال القوة والهيبة والهيمنة والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى على الطغوى.

فانها تبدء بمشهد القيامة مزلزلا مزمجرا ، ثم عذاب الذين كفروا ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ﴾ ومثل الشرك بالله ﴿فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ﴾ ومن ييأس من نصر الله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ثم مشهد القرى الكافرة ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها﴾ وإلى الاذن في القتال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ ...﴾.

ذلك كله جو القوة مهما لمعت شذر من آيها كأنها مكيات ام نازلة بين مكة والمدنية ، فان جوّ السورة جو مدني إلا ما لمحت من هذه او تلك ، مهما شابهت بعض الشيء الجو المكي لأنها في بداية الهجرة ، فليكن جوا هو عوان بين العهدين إلا في أمثال آيات القتال ، والعقاب بالمثل ، وقد يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين بايعه المدنيون وعرضوا

---

(١) هما الآية (١٨) و (٧٧) وفي الدر المنثور ٤ : ٣٤٢ . اخرج احمد وابو داود والترمذي والحاكم والبيهقي في سننه وابن مردويه عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما وفيه عن خالد بن معدان ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين واخرج ابن أبي شيبة عن علي وأبي الدرداء أنهما سجدا في الحج سجدتين.

عليه ان يميلوا على اهل منى من الكفار فيقتلوهم ، قوله : «اني لم أؤمر بهذا» حتى تمكنت دولة الإسلام فيها ، فعندئذ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ ..﴾.

تبدء السورة بزلزال الساعة وتختم بالجهاد حق جهاده ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ..﴾ جهادا في الله بكل الجنبات ، وبينهما متوسطات من توجيهات صادرة من مصدر القوة والشوكة الحالقة البالغة.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾(١).

خطاب هام عام يشمل كل الناس ، استجاشة لتقوى الله بدرجاتها ، تهويلا مجملا في تجهيل : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يستحثّ عظيم التقوى العميم ، اتقاء عن عذاب يوم عظيم.

زلزلة الساعة وما ادراك ما زلزلة الساعة؟ انها تعم الكائنات كلها ، سماوية وارضية اما هيه بما تزلزل السماء بأنجمها وطبقاتها ، وتزلزل الكائنات برمّتها إلا من شاء الله : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ (٣٩ : ٦٨).

اجل ـ إذا نفخ في الصور ونقر في الناقور ، ترى النقرة النافخة والنفخة الناقرة تزلزل كل شيء عن كيانه وحيويته ، فلا يبقى ساكن إلا ويسيّر ، ولا متحرك ماكن الا ويرجف فيدمّر ، وتلك هي قيامة الإماتة والتدمير ، ومن ثم الإحياء والتعمير ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

وقد تكون هذه الزلزال من أشراط الساعة ، فهي ـ إذا ـ قبل النفخة النقرة ، إلّا ان الزلزلة الثانية المحيية ـ كما تعنيها آيات الزلزال ـ قد تلمح ان الأولى هي المميتة ، المتدرجة من أشراطها الثلاثة إلى تلك الصعقة

الشاملة : [١] وكما آية الراجفة تقرر رجفتين وهما صيغة أخرى عن الزلزلتين : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (٧٩ : ٧).

رجفة الإحياء الرادفة لرجفة الإماتة ، ثم لا رجفة قبلهما تعتبر زلزالا هي من أشراط الساعة ، وفي هذه الزلزلة الهائلة رجفان في القلوب من خوف ، وزلات الأقدام من روعة الموقف.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ ٢.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَها﴾ : زلزلة الساعة ، ورؤيتها هي لمسها بواقعها ، وقضية الجمع في «ترونها» هي جمعية تلك الرؤية لأهل الجمع كلهم.

والذهول هو الذهاب والانصراف عن شيء بدهشة ، و ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ دون «مرضع» علها للاشارة إلى حالة الإرضاع ، فتاءها ـ إذا ـ للمبالغة فقد تكون مرضعا في غير حالته ، فذهولها ـ إذا ـ ليس لمذهل لأنها في غير حالته ، وأما ذهولها حالة الإرضاع ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ ، من رضيع ورضعة ، فقد يكون أقوى من ذهولها عن نفسها ، حيث المرضعة يهمها ما أرضعت اكثر من نفسها ، فهي إذا خالية عن نفسها ، خاوية عن كل ما يهمها ، من هول الموقف المزلزل كلّ شيء.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٢ روى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث الصور إنه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة القيام لرب العالمين ، وان عند نفخة الفزع يسير الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة وتكون الأرض كالسفينة تضربها الأمواج او كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح».

ثم ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها﴾ لوقته ام قبله لوقعة الزلزال وانقلاب الحال ، وقد تكفي هاتان الحالتان الهائلتان عرضا عن حالات الآخرين ، الواصلة لحدّ يبدل «ترونها» ب «ترى» حيث لا يتأثر بالزلزال ، لأنه ممن شاء الله :

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكارى﴾ كأنهم سكارى الشرب ﴿وَما هُمْ بِسُكارى﴾ الشرب ﴿وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ فهم كما السكارى يتموّجون في قالاتهم وحركاتهم كالمجانين خوفة من عذاب الله الذي يرصدهم ، وتأثرا من زلزلة الساعة التي تحشرهم.

وكما ان شديد السكر والذهول قد يغشي ويغمي ثم يميت ، كذلك تكون هذه الزلزلة المذهلة المسكرة : ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ ومنهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يرى الناس سكارى وليس هو منهم.

ذلك «يوم ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً. السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ (٧٣ : ١٨).

وترى الناس كل الناس إلّا من شاء الله «ذاهبة عقولهم من الحزن والفزع متحيرين»[١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ

---

(١) تفسير القمي قال قال (عليه السلام) في الآية : ... وفي كتاب طب الأئمة (عليهم السلام) باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال : اني لأعرف آيتين من كتاب الله المنزل تكتبان للمرأة إذا عسر عليها تكتبان في ورق ظبي وتعلقه عليها في حقويها : بسم الله وبالله ان مع العسر يسرا . سبع مرات . يا ايها الناس اتقوا ربكم . الى . شديد».

مَرِيدٍ﴾ ٣.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المخاطبين بواجب التقوى ، المكلفين بالتجنب عن الطغوى ، من هم في الحق نسناس : ﴿مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالمجادلة في الله بعلم فطري ام عقلي ام تجريبي ، بصورة مجردة غير دخيلة بالهوى ، توصل صاحبها إلى حق في الله كونا وكيانا وتوحيدا ، حيث الكون بكافة ما فيه ، من ظاهره وخافيه ، مستخدم في الحق للحصول على معرفة بالله قدر المحاولات اللائقة اللابقة في هذه السبيل.

ذلك وان كان الله لا يجادل فيه ، ولكن الشكّ القاصر شك مقدس ، لا بد من إزالته بمجادلة قدسية هادفة لتخطّي الشك إلى اليقين وهذه من المجادلة في الله بعلم حيث تنتهي إلى علم إذ تهدف العلم ، واما المجادلة المشككة المقصّرة فهي على أية حال لا تملك اي برهان أيا كان وأيان ، فهي ـ إذا ـ مجادلة في الله بغير علم ، لا يتبّع صاحبها علما ، وانما ﴿يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ من شياطين الجن والانس ، المجادلين في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

والمجادلة المشككة في الله تعم اصول الدين وفروعه ، مبدء ومعادا وما بينهما من وحي ومواده ، حيث الكل لله ومن الله لا سواه ، والمتحري عن الحق لا يتطرق طريق الجدال في الله لأنها مخاصمة لا تعني إلّا إبطال الحق في الله و ﴿ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٤٠ : ٤) ولا مصير لهم في ذلك المسير إلّا أن يأخذهم الله ﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾ (٤٠ : ٥)!.

وهذا الذي ﴿يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ : المرتفع الأملس ، المتمرد على علم ، هو لا سواه يعيش حياته الشيطنات والضلالات والتضليلات عاندة عامدة ، جامعة كل ضروبها من شتات أصحابها ، حيث الشيطنات

دركات ، كما الهدايات درجات ، ولكن : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ﴾ (٧ : ١٤٦).

اصرفهم عن آياتي ختما على قلوبهم فهم لا يعقلونها جزاء بما كانوا يعملون ، وصدا لهم عن الوقيعة فيها وصرف المؤمنين عنها.

وكضابطة ادبية ـ في الحوار عامة ـ إن الجدال بالباطل ممنوع ، سواء أكان لدحض الحق ام إثباته ، فان واجب الجدال على اية حال ان تكون بالتي هي احسن ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١٦ : ١٢٥) والجدال بغير علم باطل على أية حال ، وإذا كان الجدال بعلم بغير الأحسن ـ كالحسن ـ ممنوعا ، فباحرى الجدال بغير علم فانه سيء ام أسوء.

ويا ليت الذين يجادلون في الله جادلوا بعلم ، لا بغير علم ، تطاولا أجرد عن كل علم ، ناشئا من اتبّاع كل شيطان مريد ، فهو ركام من الجهالات والضلالات دون اية بارقة من حق ، فلذلك :

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ ٤.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ : كل شيطان مريد ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ اتباعا له في ضلاله وإضلاله ، كما ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ : ﴿مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾[1] فرأس الضلالة مكتوب عليه ، سواء أكان كل شيطان مريد ،

---

(١) في الوجه الاول «كُتِبَ عَلَيْهِ ...» مواصفة لكل شيطان مريد ، وفي الثاني خبر بعد خبر ل «مَنْ يُجادِلُ ..» والوجهان معنيّان لأنهما معنيان صالحان ، ولو كان مخصوصا بالاحتمال الاول لوجب جمع الضمير «عليهم» اعتبار بكل شيطان مريد ، كما ولا يصلح اختصاصه بالثاني لأن الاول أحرى معنويا لأنه اصل الإضلال ، إذا ف «عليه» راجع إلى كل واحد منهما على البدل ، جمعا بين المعنيين.

امـن يتبعـه في خطواتـه ﴿أَنَّـهُ مَـنْ تَـوَلَّاهُ فَأَنَّـهُ يُضِـلُّهُ﴾ دون شـك ولا ريبـة ، لأن الضـلال والإضلال كيانه ، وهو شغله الشاغل في حياته ، فلا يهديه إلى حق ابدا ، بل ﴿وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ هدى إلى غاية الضلال ومصيره ، وهذا تهكم في التعبير إذ يسمي قيادته إلى عذاب السعير هداية ، انه لا تتأتى منه هداية الا إلى عذاب السعير ، وما الطفه جمعا بين الإضلال والهداية عناية لمعنى واحد هو الضلالة!

وهـذه الكتابـة هـي القضـاء الـرباني علـى الـولي والمتـولي ، حيـث ان كيـان الضـلال لا يصدر منه الا ضلال ، وليس الله بمنج من يضل بغير علم ، امن يتولاه على علم بضلاله ، ام غير علم بهداه ، اللهم إلا القاصر في تحريه عن الحق فعسى الله ان يهديه سواء السبيل.

فلا تعني ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ ان الله فرض ضلال من ضل بإضلال من أضل تسييرا دون تخيير إلى ضلال ، وانما هو بيان للواقع حسب الأسباب والمقتضيات ، ان المتحري عن باطل ليتّبعه ليس بحري الا ان يحيق به الباطل الذي تحرى عنه وتمناه ، معاكسة للمتحري عن الحق ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾.

ومـن المجادلـة في الله هـي المجادلـة بغـير علـم في يـوم الله ، إحالـة لـه بمحـاولات جاهلـة قاحلة ، والله يبرهن لحقه وواقعه هنا بواقع الحياة الاولى ، وهم مصدقوها ، دون إبداء مادة للبرهان بعيدة عنهم ، بل هي ما يعيشونها طول حياتهم :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ

﴿شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾٥.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ملحدين ومشركين او موحدين مرتابين في البعث ، حيث البرهان الحاضر ليس حاصرا فيمن يعتقد في وجود الله ، فان خلق الإنسان من تراب ثم .. ليس ينكره احد ، طالما المادي يزعم ان الخالق هو المادة ، ويرى المشرك أنه الله ، والموحد لا يشرك في خلق وسواه ، فالقدرة الخالقة للإنسان من تراب هي هي الخالقة له في المعاد ، فالخلق اوّل مرة دليل امكانيّته مرة ثانية بل ﴿هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾!.

﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ بعد الموت ، والريب هو شك مسنود إلى برهان ام زعم البرهان ، فلئن صدقناكم في ريبكم ، فواقع خلقكم أول مرة يزيل واقع ريبكم ، حيث الريب لا يصارع واقع البرهان أيا كان.

﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ﴾ وجمعية الضمير فيها تعني جمعية الصفات في خلقنا ، علما وقدرة وحكمة وتصميما وارادة اما هيه من صفات ربوبية متطلّبة في ذلك الخلق المنضّد المتدرج العظيم ، لأجنة مختلقة في الصور والسير ، مقرّة في الأرحام او ملفوظة ساقطة ، ثم الطفل الخارجون عن الأرحام بين بالغ أشدّه او متوفّى قبله ، او مؤخر إلى أرذل العمر ، فصورة الخلق وسيرته تدلاننا على ارادة وتصميم باختيار ، دونما صدفة فوضى جزاف!

﴿خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ خلق الإنسان الاول من تراب قفزة دونما تطور معوّد في خلق سائر الإنسان ، ثم وخلق أنساله متدرجا حيث البداية هي التراب ، من نطفة هي من دم هو من غذاء هو من نبات وحيوان هما من تراب.

فخلق الإنسان من تراب ضابطة صارمة تعم الإنسان الاول وأنساله ،

من أبوين كسائر الإنسان ، ام دون أب كالمسيح (عليه السلام) وقد تلمح «كم» في خلقناكم ، ان الإنسان بجزئيه مخلوق من تراب ، فطالما اختلفا في حاضرة الصورة والسيرة ، الا ان أصلهما كليهما هو التراب ، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ تراخيا عن الخلق الاول بأنساله ، وفي سائر الخلق بأنساله ، فأين النطفة والتراب ، والمسافة بينه وبين النطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية مسافة هائلة!

والنطفة هي الدودة العلقة المتحولة بعد مراحل إلى جنين ، وهي واحدة من ملايين العلقات في البحر المنوي وهو قطرة ام قطرات! فنقطة واحدة من تلك الملايين هي الدودة التي تلقح البويضة من ماء المرأة في الرحم وتتحد به فتعلق في جدار الرحم فتصبح علقة :

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ متحولة عن نطفة ، الكامنة فيها كل خصائص الإنسان المقبل.

﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ وهي اللحمة الصغيرة المتحولة من العلقة ، قدر ما يمضغ ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فما هي المخلقة وما هي غير المخلقة؟

التخليق هو التحليق في الخلق ، فهو كمال الخلق الصالح لتحوله إلى جنين صالح ، وغيره هو غير الصالح ، سواء سقط [١] ام أصبح جنينا ناقصا في عضو او أعضاء.

ومن تخليق المضغة خلقها عظاما ، ثم كسوتها لحما ثم انشاءها خلقا

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٧١ عن تفسير القمي قال قال : المخلقة إذا صارت تامة وغير مخلقة قال : السقط.

أقول وهذا تفسير بأحد المصداقين لغير المخلقة ، فلا بد له مصداق آخر وهو من يولد ناقصا قضية العموم في ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ﴾.

آخر وهو كمال الجنين مهما كان ناقص الخلقة : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾ (٢٣ : ١٤).

ذلك ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وهنا محطّة للتبيين بين التراب والمضغة ، وبينه وبين الطفل ، تبيينا للقدرة القاصدة المصممة في خلقكم ، وانها هي الخالقة لكم في بعثكم مرة اخرى.

فقد توقّف فتسقط المضغة مخلقة وغير مخلقة ، واخرى ﴿نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ﴾ من مضغة مخلقة او غير مخلقة ولكنها صالحة لتحولها جنينا مهما كانت ناقصة الخلقة ، فقد تقرّ غير المخلقة وتسقط المخلقة ، واخرى المعاكسة مهما كانت هي الاكثرية المطلقة النّلة ، وتلك هي القلة.

فليس إقرارها في الأرحام لزاما لكونها مخلّقة رغم انه طبيعة الحال فيها ، ولا اسقاطها عنها لزاما لكونها غير مخلقة ، رغم انها خلاف طبيعة الحال ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ان هناك القدرة القاصدة عاملة ، دون خلقة اوتوماتيكية فوضى جزاف.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ﴾ من مخلقة وغير مخلقة ، و «ما نشاء» من شكليات وحالات ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ في الذكر الحكيم المقرر عندنا ، المقدر بارادة عالمة حكيمة وتصميم ، من ستة أشهر إلى تسعة ، بزيادة طفيفة ام نقيصة.

«ثم» بعد قضاء مسمى الأجل ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ والطفل هنا جمع لا ينافيه ﴿وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ (٢٤ : ٥٩) مفردا مجموعا ، لأنه مفرد وجمع ، ومن جمعه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ (٤٠ : ٦٧) ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ

﴿النِّساءِ﴾ (١٤ : ٣١) وتأويل كونه مصدرا يراد به الجمع عليل ، حيث الظهور على عورات النساء ليس للمصدر ، بل هو للصادر منه الظهور وهو هنا ذات الجمع ، ثم «طفلا» في ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ إخراج لذوات الأطفال دون طفولتهم.

وكون «الطفل» ـ الخارجين صغارا لحدّ يصح التعبير عنهم بالمصدر ـ مبالغة في الصغر كرجل عدل ، تنافيه مبالغة الكبر في ﴿الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا ...﴾ إذ لا تشمل الولائد الجدد ، إلا الغلمة المدركة المشرفة لذلك الظهور ، كصاحب العشر وحواليها ، فان الأدنى منها خارج عن مقسم السماح والتحريم ، فمن المضحك المبكي القول : بأنه يجب التحجب عن ابن خمس وحواليها ، إذا فمن طفولة التأويل ، تأويل الطفل إلى المصدر توجيها لجمعية الموقف.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ شد الجسم والعقل والحكمة الجماعية ، استيفاء لنموكم العضلي والعقلي والنفسي ، شدّات ردف بعض ولصق بعض بنفس الترتيب في الاكثرية المطلقة ، قياما على سوقكم في متطلبات الحياة ، خروجا عن كافة الطفولات الفردية والجماعية ، العقلية والجسمية ، ويا لها من قدرة حكيمة او دعت الوليد كل خصائص الإنسان الرشيد الشديد ، التي تتكشف كلّ في أوانها المقررة له ، كما أودعت النطفة كل خصائص الطفل وهي ماء مهين!

فبلوغ الأشد هي الغاية القصوى من ذلك الإخراج ، وهي أشد الانسانية السامية ، دون البدنية الحيوانية الا ذريعة وساعدا لشد الإنسانية.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهذه المقابلة دليل ان التوفي هنا هو الأخذ وافيا في حياة الأشد ، ترقية لشدّات الإنسان إلى القمة الصالحة ، ثم إماتة له في تلك الحالة ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (١٦ : ٧٠)[١].

فلا يعني التوفي هنا ـ فقط ـ الإماتة فانها تعم من يرد إلى أرذل العمر ، بل هو التعمير بحالة الأشد ، ثم الإماتة عنها ، خلاف من يردّ إلى أرذل العمر ، إذ لم يتوفّ من الناحية الأولى ، ام هدّمت أشده التي تخطاها بارذل العمر.

ولان العمر هو منذ الولادة حتى الموت ، إذا فأرذل العمر هو عمر الوليد الجديد ـ :

﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ فمحور الرذالة هو اللاّعلم عقليا ومعرفيا ، دون النكسة البدنية ، وهما الشدّان الإنسانيان ، والثالثة البدنية هي الحيوانية المستخدمة المقارنة لهما زمنيا في الاكثرية المطلقة.

فيا ويلاه حين يرد إلى أرذل العمر ، مرتدا الى طفولته الطفلاء ، في عواطفه وانفعالاته ، في وعيه ومعلوماته ، في تقديراته وتدبيراته ، اقل شيء يضحكه ويرضيه ، واقل شيء يسخطه ويبكيه ، ناسيا أوائل الأمور قبل انتهاءه إلى أواسطها وأواخرها ، فالتا عن عقله الناضج وعلمه الهائج ، المتخايل بهما المتطاول فيهما ، ثم :

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً﴾ : عوانا بين الموت والحياة ، مستعدة للحياة فالهامد هو الحيوان الذي همد وسكن بعد حراكه ، وخشع بعد تطالّه واشرافه لعلة طرأت عليه فأصارته إلى ذلك ، ثم أفاق من تلك الغمرة وصحا من هذه السّكرة فتحرك واستهب بعد همود وركوده.

---

(١) هنا قول فصل في تفسير أرذل العمر فراجع سورة النحل.

وكذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب واهمدها المحل ، ثم حالها إذا نضحها الغيث بسجاله ، وبلّها القطر ببلاله ، واهتزت بنابتاتها ناضرة ، وربت بعد الجفوف متزيلة ، وذلك تقدير العزيز العليم!

وهكذا التراب المخلوق منه الإنسان في المبدء والمعاد ، ﴿فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ﴾ أحييت ف ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ فتراها في حركة اهتزازية رابية نامية ، وكأنها حيوانة عطشانة تشرب الماء وتهتز بعد همود وتفزّ بعد جمود ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ بهجة مختلفة الحيويات النباتية والحيوانية فان ﴿اللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً﴾ (٧١ : ١٨).

ف «كل زوج» لا اقل من ان تعني كل الأزواج النباتية والحيوانية والانسانية النابتة من الأرض ، اضافة إلى معادن نابتة نتيجة نزول الماء ومزيجه ثم ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ تعم كافة جنبات الحياة النابتة عن الماء.

ذلك ، وبالتالي تستنتج من هنا وهناك خلفيّات ولزامات خمس لا نكير لها إلا المتجاهل عن ذلك الخلق المتواصل الذي يعيشه طول حياته :

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ٧.

«ذلك» الإحياء المتواصل لميتات الإنسان والأرض بكل نابتاتها ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ «هو الحق» لا سواه ، وكل حق سواه يتمحور الله الحق ، فلا باطل منه أو اليه ، وقضية الحق الطليق طلاقة الرحمة المتمركزة على الإحياء بغية بلوغ الاشدّ للإنسان ، وسائر البلوغ لسواه ، ولو ان الحياة انحصرت في

هذه الدانية الفانية كان الخلق عبثا باطلا ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٣٨ : ٢٧).

﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى﴾ في المعاد كما يحيي هنا ، فلو لا الإحياء الآتي لكان الإحياء الآن باطلا ، ﴿وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سواء فيه شيء الإحياء الاول وسواه ، ام اي شيء صالح للخلق والإحياء أيا كان وأيان.

فكما الحكمة في القدرة الطليقة تقتضي الإحياء في الخلق الاول ، كذلك وبأحرى في الثاني ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٣٠ : ٢٧) ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ : ١٥).

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾ قضية الحق في الخلق والخلق الحق ، ساعة يحاسب فيها اهل التقوى والطغوى ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى﴾ (٢٠ : ١٥) وإتيان الساعة هو قضية السنة الحقة المستمرة ، ان لكل عملية ساعة تظهر فيها كما هيه ، ساعة غير مجازية ولا مجازفة.

﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ وهم الأموات حيث البعث حقهم العادل برحمة الرحيم الرحمان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

فحين تثبت امكانية الإحياء مرة الاخرى بكرور الإحياءات في حياتنا الدنيا ، وان الخلق حق دون اي باطل ، فلولا البعث لكان الخلق باطلا ولعبا حين لا يقتص للمظلوم من الظالم ، ولا تظهر حقائق حقائق المساعي لكل ساع.

وهذه الإمكانية باولويتها الذاتية ، هي ضرورية التحقق بدليل ان الله هو الحق فخلقه حقّ ، وان كتابات الوحي مخبرة بتلك الضرورة ، وحتى لولاها لكان دليل العقل بالعدل فيه الكفاية لإثباتها.

أترى ان الحق يطوّر الإنسان من تراب إلى نطفة وإلى اكتماله ليبلغ أشده في هذه الأدنى ، وما هو ببالغها تماما سعيا ونتيجة قضية العرقلات والزحامات ، ثم لا يطوّره بعد موته إلى حياة ارقى ليبلغ أشده بمبلغ ما بلغها في الدنيا ، حين ﴿يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى﴾؟.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ ٩ ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ١٠.

مقابلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ب ﴿وَلا هُدىً وَلا ..﴾ تدلنا ان القصد منه هو العلم الذاتي ، عقليا او فطريا او سواهما ، فلتعن «هدى» العلم المكتسب من مكسب الحق اليقين تلقينا ، ثم ﴿كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ هو كل كتاب ينير الدرب على كل متحر للحق ، وطبعا هو كتاب الوحي.

والمجادلة في الله ـ إذا صحت وسلمت ـ لا تخرج عن هذه الثلاث ، بعلم هو حجة الحق وأفضله الوحي المكمل لعلم الفطرة والوحي ، ام هدى من اصحاب الوحي مشافهة حاضرة ، ام بالأخير ﴿كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ فيه العلم والهدى ، وهذه تشرك في انها حجة الحق دون ريب ، وقد عبر عنها في آية مضت ب «علم» وحقا هو التعبير الصالح عن كل حجة صارمة ، وهي كل ما يفيد علما ، دون ان يعارضه ما ينقضه او ينقصه ، وقد تتفارقان ان الاولى بشأن المقلّدين لمكان «يتبع» والثانية بشأن المقلّدين لمكان «ليضل» بعدها كفاية لأصحابها.

وذلك ترتيب رتيب في الحجة بدء بالعلم ، ففيه الكفاية لمن يعلم ، ثم هدى لمن ليس له علم فيهتدي بعلم غيره ، ومن ثم ﴿كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ فيه كل علم ذاتي ومستفاد.

وقد تعنيها الآية ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ (١٧ : ٣٦) وان كان ترتيبها غير ترتيبها ، فالسمع هو هدى ، والبصر كتاب منير ، والفؤاد هو العلم المتفئد في القلب.

«ثاني عفطه» حال انه يثني ويكسر عطفه ، ليّا بشدقه وعنقه ، كبرا متعجرفا ، واعراضا ونأيا بجانبه ، اعراضا عن سماع الرشد واتباع الحق ، يصرف دونه بصره وينثي عنه عطفه وعنقه بكل رعونة ودلال ، رغم انه ليس الا في ضلال ، مخيلا اليه كأنه يملك ما يعوضه الحق ، فهو ـ إذا ـ أحق من كل حق ، ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ : يجادل .. ليضل ، وثاني عطفه ليضل ، قرنا لإعراض الحال بإعراض المقال ، ليحق الباطل والضلال بحال بعد مقال ، وذلك أوقع في الإضلال ، ان المجادل في الله بغير حجة ، يثنى عطفه متظاهرا انه يملك الحق كله ، بل هو الحق كلّه ، وسواه باطل كله! «وليس احد أشد عقابا ممن لبس قميص النسك بالدعوى بلا حقيقة ولا معنى» [١].

﴿لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ﴾ معنويا أمام دعاة الحق واهله ، وأمام اصحاب العقول في كل الحقول ، وخزي بعذاب الاستئصال والمعيشة الضنك رغم كل دلال ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ كما احرقوا هنا عقول الناس بحريق الجهل والتجاهل جزاء وفاقا ، ويقال له حينذاك :

﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ﴾ يد الروح والجسم ، يد الجدال بغير علم وثني العف ، يد العقل المدخول ، والنفس الامارة بالسوء ، وقد تعني «يداك» كافة الطاقات التي كان يملكها ، سلبية وايجابية. ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

---

(١) مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام).

فمن كونه ظلّاما للعبيد ان يجبرهم على الضلال والإضلال ثم يخزيهم بعذاب الدارين ، ومنه الا يعذبهم كما لا يعذب عباده الصالحين ، تسوية بين المحسن والمسيء ، او يعذب المضلّلين دون المضلّلين ، او يعاكس أمرهما أمّاذا من ظلم هو بالنسبة لرب العالمين ان يكون ظلاما للعبيد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ ١١.

ذلكم الناس مقلّدين ومقلّدين كانوا هم النسناس المشركين ، لا يعبدون الله على اية حال ، وهؤلاء ناس موحدون ولكنهم لانحرافهم في حرفهم لعبادة ربهم خاسرون ، فما هو ذلك الحرف الهارف الجارف الذي يزلّ به الأقدام ويضل به أقوام؟

حرف الشيء طرفه وجانبه وهامشه ، دون أصله ومتنه ، ولكنه جانب له يربطه بغيره عند عدم الارتباط ، إذا فهو في أصله لا اصل له ولا معنى في ذاته ربطا وسواه ، ولذلك سمى الحرف في الكلام حرفا لأنه جانب غير اصيل يربط أصيلا باصيل ، اسما باسم ام بفعل ، فلا معنى له في نفسه.

وعبادة الله كسائر الأفعال قد تكون متأصلة في حياة العابد ، متعرقة في قلبه وإلى جوارحه ، فسائر أفعاله حرف ، وسائر حيوياته هامشية على ذلك المتن المتين المكين ، فلا ينحرف او ينجرف عن عبادة ربه مهما قاست الظروف وعرقلت الحياة ، بل وتزدهر وتنبهر تحت الضغوط وتلك عبادة الأحرار.

وتقابلها العبادة الحارفة المحترفة ، التي هي حرف وأداة لما يهواه من حياته وشهواته ، فأصله في حياته ما يهواه ، فإن يعبد الله فهي على حرف وطرف وهامش من الحياة ام وجه واحد من وجوه العبادة ، وهو وجه

التجارة الدنيوية ، فلا يعبد ربه على كل الوجوه ، عبادة طليقة عن هواه ورضاه ، فانما اتخذ إلهة هواه يهوى منه كما يهوى من هواه ، إذا فهو عابد هواه دون الله.

فهي تزداد إذا زادت فيها نزوات الحياة ، وتنقص ام تنقض إلى ضدها إذا نقصت او نقضت فيها نزوات ، فليست عبادة الله له أصلا يهدف ، فانما هي حرف يحرف ويهرف.

يحترف بها لحيونة الحياة وشهواتها ، ام إذا قارنتها فنعما هي ، وإذا فارقتها فبئسما هي:

﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ﴾ بحرف العبادة ام في ظرفها ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ بخيره لا بعبادته إلا كأداة وقرين ، فعبادته إذا ذريعة اطمئنانه بخير يهواه ، فان كانت المعصية توصله إلى ذلك الخير انقلب إليها لنفس الاطمئنان.

﴿وَإِنْ أَصابَتْهُ﴾ بها او في ظرفها «فتنة» وابتلاء ﴿انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ وعلّه حرفه الذي كان يعبد الله عليه حيث كانت العبادة وجها ظاهرا حارفا لحياته دون اصالة ، فهو ينقلب على حرفه ويترك العبادة حيث يراها ـ بزعمه ـ سبب الفتنة ام قرينة لها.

وهذه صفة الإنسان المضطرب الدين ، الضعيف اليقين ، الذي لم تثبت في الحق قدمه ، ولا استمرت عليه مريرته ، فأوهى شبهة تعرض له ينقاد بقيادها ، ويفارق دينه لها ، كالقائم على حرف مهواة ، فادنى عارض يزلقه ، وأضعف دافع يطرحه.

وقد أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام فأتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : اقلني فقال : ان الإسلام لا يقال ، فقال : لم أصب في ديني هذا خيرا ذهب بصري ومالي ومات

ولدي ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا يهودي! الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة ، ونزلت الآية» [١].

و «كان ناس من الاعراب يأتون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فان وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا ان ديننا صالح فتمسكوا به ، وان وجدوا عام جدب وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا ما في ديننا هذا خير فانزل الله الآية [٢].

ثم ﴿يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾ قد تعم اصل العبادة وفرعها ، فالاولى هي العبادة الطليقة عن طقوس مقررة في الشرعة المرضية ، والثانية هي المرضية ، ومن الأول «هم قوم وحدوا الله وخلعوا عبادة من يعبد من دون الله فخرجوا من الشرك ولم يعرفوا ان محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) رسول الله فهم يعبدون الله على شك في محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وما جاء به فاتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقالوا : ننظر فان كثرت أموالنا وعوفينا في أنفسنا وأولادنا علمنا انه صادق وانه رسول الله ،

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤٦ ـ اخرج ابن مردويه من طريق عطية عن أبي سعيد قال : اسلم رجل ...

(٢) المصدر اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس قال كان ناس ...

وفيه عن الحسن كان الرجل يأتي المدينة مهاجرا فان صح جسمه وتتابعت عليه الصدقة وولدت امرأته غلاما وأنتجت فرسه مهرا قال والله لنعم الدين وجدت دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا ما زلت اعرف الزيادة في جسدي وولدي وان سقم بها جسمه واحتبست عليه الصدقة وأزلقت فرسه واصابته الحاجة وولدت امرأته الجارية قال والله لبئس الدين دين محمد هذا والله ما زلت اعرف النقصان في جسدي واهلي وولدي ومالي.

وان كان غير ذلك نظرنا ...» [١].

هؤلاء الأغبياء ، بعبادتهم الجوفاء الخواء قد يخسرون الآخرة والاولى بترك الدنيا للدنيا ، متذرعين بعبادتهم والتظاهر بزي الصالحين لذّات هذه الأدنى كالرئاسة الباطلة [٢] يفضلونها على سائر اللذات وهيهات هيهات من هذه الهوّات ، التي هي اركس من كافة الحيونات والشهوات ، يترك لذات ظاهرة لأخرى متخيلة مزخرفة باطنة ، ﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ وظلّ على ظاهر تقشفه وعبادته ﴿وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ ترك الظاهر الى متروك الباطن ﴿خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾.

ف «السائر في مفاوز الاعتداء ، والخائض في مراتع الغي وترك الحياء باستحباب السمعة والرئاء والشهوة والتصنع إلى الخلق ، المتزيي بزي الصالحين ، المظهر بكلامه عمارة باطنه وهو في الحقيقة خال عنها ، قد غمرتها وحشة حب المحمدة ، وغشيتها ظلمة الطمع ، فما افتنه بهواه وأضل الناس بمقالته؟ ..» [٣].

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٧٣ عن الكافي بسند متصل عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال سألته عن هذه الآية قال : هم قوم .. قال الله عز وجل «فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ» يعني عافية في الدنيا «وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ» يعني بلاء في نفسه «انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ» انقلب على شكه إلى الشرك ...

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٧٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : فان في الناس من خسر الدنيا والآخرة بترك الدنيا للدنيا ويرى ان لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحللة فيترك ذلك اجمع طلبا للرئاسة الباطلة.

(٣) المصدر عن مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (عليه السلام): واما السائر ...

ذلك بالرغم من ان العقيدة الصالحة هي الركيزة الثابتة الدائبة في حياة المؤمن ، يدأب في تكميلها ، ويعبد الله بحبها قدر المستطاع كالأصل القمة أو الوحيد في حياته ، تضطرب الدنيا وأهلوها من حوله وهو ثابت لا تزعزعه أو تتجاذبه الأحداث ، وتتهاوى حوله الأسناد وهو مستند في كل ذلك إلى قاعدة الايمان القائمة على أية حال.

ليس الايمان والعبادة هنا له رأس مال يتجربهما لمتعة الحياة الدنيا ، فلا يعبد الله نظرة جزاء في هذه الأدنى ، مهما كان ناظرا إلى الاخرى ، بل هي هنا في ذاتها جزاء فانها الحمى الذي يلجأ اليه ولا يفجع لديه ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾!

أليس ذلك جزاء انه الثابت المطمئن في مهب الرياح ، ومن دونه من تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الأرياح ، وهو كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، ثابت الصلة بالله راضيا بمرضات الله؟.

والعبادة على حرف هي بصيغة اخرى عبادة التعابد ، يعبد ربه إذا عبده وأطاعه ربّه في هواه ، كأنه يقول في ذلك الحرف : أعبدك حين تعبدني ، ولا أعبدك حين لا تعبدني ، تجارة فاجرة في العبادة ، وهي في الحق عبادة الهوى ، المتظاهرة بالهدى ، وهي انحس من تركها ، حيث التارك لها كافر ، والعامل لها على حرف منافق أشر من كافر.

ان اصابة الخير الرخاء والفتنة البلاء عند العبادة كلتاهما فتنة وبلاء ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بل الفتنة في الرخاء افتن وابلى منها في البلاء ، فكيف عبر هنا عن فتنة الرخاء بالخير واختص التعبير بالفتنة للبلاء؟

ذلك ، لأن من هذه عبادته لا يرى الخير بلاء إذ لا يثقل على طبعه ، والبلاء في مقياس الأغفال هو ما يثقل على الطبع ، والمنافق لا يرى الخير الا ملائم طبعه وموصل شهوته.

وتراه إن أصابته فتنة كيف ينقلب على وجهه ، ولم تكن عبادته عبادة من اوّل امره؟

ذلك لأن وجهه هو حرفه في عبادته ، فان اصابته فتنة ترك ذلك الحرف الظاهر ايضا كما كان تاركا لحق العبادة منذ كان ﴿ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾.

لقد كان يدعو الله في ظاهر الحال في إصابة الخير ، ثم يجاهر في دعوة غير الله عند الفتنة :

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ ١٢.

وهنا ﴿لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ﴾ قياسا إلى بغيته من دنياه ، إذ لا ضار ولا نافع إلّا الله لا سواه ، والانقلاب من دعاء الله الضارّ النافع إلى دعاء غير الله غير الضار ولا النافع ﴿ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ فان ترك أية دعوة كان ضلالا قريبا علّه ينتبه فيدعوا الله ، ولكن الانقلاب من دعاء الله إلى دعاء غير الله ضلال بعيد ما أبعده! وليس فحسب انه لا يضره ولا ينفعه ، بل

﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ ١٣.

ومن ضره الأقرب خسار الدنيا والآخرة ، وليس نفعه إلا تخيلا لا يملك أية حقيقة وواقعية ، فان من يدعوه من وثن او شيطان او طاغ او سند من بني الإنسان ، ضرّه في عالم الضمير إذ يتوزع القلب أثقالا بالوهم والذل ، وضره في عالم الواقع ولا سيما إذا وقعت الواقعة انه ﴿أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ قربا واقعيا على اية حال ، مهما كان نفعه المتخيل اقرب زمنيا في الخيال.

ذلك ، واما المؤمن الذي يعبد الله أصلا ـ لا حرفا ـ وعلى أية حال ، ولا يتخذ مولى ولا عشيرا الا الله ، فهو رابح في كل الأحوال :

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ ١٤.

وليست هي فقط جنات الآخرة ، بل وجنة الاطمئنان والرضوان هي عشيرته في دنياه وإلى عقباه ، بل المؤمن هو جنات في عقليته ونفسيته ، في عقيدته وعمليته ، جنات في حياته كلها مهما اعترضته البلايا والرزايا ، فانها ليست بشيء بجنب رضوان من الله واطمئنان بالله.

ذلك ل ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ ولا يريد الا خيرا ، عدلا او فضلا ، ومن دون الله ليس ﴿يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ ان كان ممن يريد ، إذ لا تحلّق قدرته على كل مراده ، فضلا عمن لا يريد من أوثان وأصنام!.

﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ﴾ ١٥.

هذه الآية من معارك الآراء بين المفسرين فهي حريّة بتدبر لائق بالغ علّنا نفسرها كما هي دون تحميل ولا تأويل ، سردا لمحتملات ثم سبرا وتقسيما لكي نحصل على المعنى الأليق بلفظ الآية وموقفها.

الذي يبدو من جو الآية انه كان هنالك غيظ من ظن لعدم النصرة الإلهية في الدنيا والآخرة ، ثم تعجيز بسبب ظاهر مقترح كيدا لإذهاب ذلك الغيظ ولن يذهب باي كيد حيث الله هو الفاعل للنصر في الدنيا والآخرة وهو التارك له.

والسبب في اصل اللغة هو الحبل الذي يصعد به النخل ، ثم كل ما يتوسل به الى شيء ماديا ومعنويا ، فاعليا ام ظرفا معبّدا لفعل ، فهو ـ إذا ـ يعم كل وسيلة لكل ما يتوسل اليه كما ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ﴾ (٢ : ١٦٦).

ومن الأسباب ما هي ظاهرة ، ومنها غير ظاهرة يمكن التوسل إليها ، ومنها ما لا يمكن التوسل إليها وبها الا بما يسببها الله تعالى كما ﴿وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (١٨ : ٨٤).

ثم هنا اسباب ارضية من ذلك المثلث واخرى سماوية أكثرها من الثالث ﴿وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾ (٤٠ : ٣٧) وقد تأتي في مسرح التعجيز ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾ (٣٨ : ١٠) وهي طرق السماء بوسائلها الغيبية.

والسبب في الآية هو الممدود الذي يحاول مادّه ان يقطع ، قطعا لما يمد به ، ام قطعا لمسافة سماوية فيه ، فكل منهما قطع ، وكلاهما مما لا يتأتى لناس عاديين غير مؤيدين بنصرة إلهية خاصة.

انه ليس حبل الخنق [1] إذ لا يمدّ إلى السماء ، وانما إلى سقف ولا يسمى سماء ، ثم حبل الخنق لا يقطع ، بل يربط بشيء عل ثم يعلّق عليه لكي يخنق ، مهما تصح عنايته ضمن المعنى الصالح فيعني القطع قطع نفسه بخنقه.

انما هو سبب ممدود من الأرض الى السماء قصدا لعملية في أمر سماوي ، قطعا لرزق آت منها ، ف ﴿فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ﴾ رزق

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ٧٩ محمد بن العباس بسند متصل عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) حدثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر (عليه السلام) ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال ذات يوم ان ربي وعدني نصرته وان يمدني بملائكته وانه ناصري بهم وبعلي خاصة من بين أهلي فاشتد ذلك على القوم ان خص علينا بالنصرة وأغاظهم ذلك فانزل الله الآية قال : ليضع حبلا في عنقه إلى سماء بيته يمده حتى يختنق فيموت هل يذهبن كيده ما يغيظ.

الآخرة والاولى ، ام قطعا لتلك المسافة الممدودة بسبب حتى يرقى مادّه إلى السماء ليقطع ، ثم هو بذلك الكيد يذهب ما يغيظ ، حيث أغاظته النصرة الإلهية سلبا او إيجابا ، قطا لسلبها حتى توجب ام لا يجابها حتى تسلب.

وهناك في الآية محاور ثلاثة : ظن فمد وغيظ ، والظن كما يلوح هو الظن السوء بالله بإحالة نصرته في الدنيا والآخرة ، والمدّ كوسيلة مقترحة تعجيزية تثبيتا لتلك الإحالة ، وإذهابا لذلك الغيظ.

فهنا احتمالان اثنان في مرجع الضمير الغائب ل ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ انه «من» المذكورة قبله نصا ، ام هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وجوّ الآية يناسبهما كليهما.

فالذي ﴿يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ .. وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ .. يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ انه يبلغ به انقلابه على وجهه لحدّ الظن ان ناصره غير الله ف ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ وكما اختلج في بعض الخواطر الضعيفة كأن الله لا ينصر المؤمن لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وذلك حينما اصابته فتنة فانقلب على وجهه آيسا في الضر من عون الله ، فاقدا كل نافذة مضيئة ، وكل نسمة رخيّة بهيّة من روح الله ، فيستبد به الضيق والضنك ويستطيره إلى إياس مطلق عن رحمة الله ، فيؤمر حينئذ تعجيزا ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ مسافة بينه وبينها كيدا لإيجاب النصرة له ، فيزول بذلك غيظه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ﴾ به ومنه من عدم النصر؟!

وليعرف هؤلاء الأغفال ان ليست النصرة الإلهية الا بيد الله ، وهو ناصر من نصره وتارك من تركه.

ثم المشركون الذين كانوا يظنون ان الله لا ينصر محمدا في الدنيا والآخرة في مسرح الجو المكي ، حيث كان في أضيق الضيق ، قياسا لغائب الآخرة إلى حاضر دنياه في مكة ، وسنادا إلى ان من آمن ابتلي ، إذا فهناك ضابطة لهم ـ هابطة ـ ﴿أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي

﴿الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ﴾ كما ﴿كانَ يَظُنُّ﴾ تشير بمضيه البعيد إلى ذلك الظن البعيد البعيد ، ثم رأوه بعد الهجرة منصورا معززا . والسورة مدنية . اخذتهم الغيظة الخانقة لما لمسوا الواقع المدني خلاف ظنهم المحيل لنصرته ، فهنا الله يحملّهم كيدا لقطع تلك النصرة العظيمة كما هو دأبهم الدائب ، ومن قبل حاوله فرعون وأضرابه ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ. أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ﴾ فان رسول السماء منتصر من سماء الربوبية ، بجند من السماء ووحي من السماء ورزق من السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ هذه النصرة عن الرسول ، ام ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ تلك المسافة إلى الملإ الأعلى ، ولكي يقطع هناك سبب النصرة الإلهية لرسول السماء [١].

«فلينظر» إذا ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ هذا المستحيل «ما يغيظ» من تلك النصرة الإلهية؟!

إذا ف ﴿لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ﴾ تعم الرسول المظنون فيه ، والظان ، كلّا لحدّه ، ولفظ الآية تحتملهما ، والآيات السابقة عليها تلائمهما ، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى احسن الوجوه ، وهما من ذلك الأحسن ، استنباطا . دون أي تحميل . من نفس الآية بجوّها ، مهما كان خنقه من الصالح ضمن المعنيين ، فالقطع هنا قطع نفسه بخنقه [٢].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤٧ . اخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : من كان يظن ان لن ينصر الله نبيه ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فان أصله في السماء ثم ليقطع اي عن النبي الوحي الذي يأتيه من الله ان قدر.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٤٦ . اخرج بعدة طرق عن ابن عباس في الآية قال : من كان يظن ان لن ينصر الله محمدا في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب قال فليربط حبلا الى السماء قال : الى سماء بيته السقف ثم ليقطع قال : ثم يختنق به حتى يموت.

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ ١٦.

«وكذلك» العظيم العظيم ، البعيد المدى ، العميق المعنى «أنزلناه» القرآن ﴿آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ لمن يتبين ويتحرى عن الهدى ، دون المتجري عليها ﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ الهدى ، فيريد الله له الهدى ، دون فوضى في ارادته الهدى ، فانها ارادة ربانية لمن يريد الهدى ، فلا تفيد ارادة الهدى للمهتدي ما لم تؤيد بارادة الله ، ولا يريد الله الهدى الا لمن يريدها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (١٨) هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ

الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (٢٤)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ١٧.

فرق ست متفارقين في العقيدة ، سادستهم ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مما يلمح ان الخمس الاخرى غير مشركين تماما ، فقد ينجون إذا كانوا صالحين أيا كانوا من الخمس ، وكما تسانده : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢ : ٦٢) ومثلها (٥ : ٦٨) حيث حلقت الأجر على المؤمنين منهم وسواهم ، إذا فليسوا هم من المشركين.

وهنا ﴿اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ لأن فيهم مشركين ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فصلا

في الجزاء كفصلهم في عقائدهم. ﴿إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء فانه عليم بذات الصدور.

ف ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم المؤمنون بهذه الرسالة الجديدة المسمون بالمسلمين ، ﴿وَالَّذِينَ هادُوا﴾ هم اتباع التوراة «والنصارى» اتباع الإنجيل ، فامّا «الصابئين والمجوس» فما الصابئون . خلاف ما قيل . من عبده الكواكب إذ قوبلوا كما المجوس ب ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فليسوا هم . لأقل تقدير . ممن محض الشرك محضا مهما انحرفوا عن حق التوحيد كفريق من اليهود والنصارى وفريق من المسلمين ، فعلّهم قوم بين اهل الكتابين كما تلمح له توسطهم بينهما في الذكر ، صبأوا من الدين الكتابي إلى شيء من غير الكتابي مع الحفاظ على عقيدة التوحيد كما ذكرناهم في آية البقرة.

والمجوس هم الزرادشت وكتابهم المقدس «اوستا» وهم يقدسون النار دون ان يعبدوها كأصنام ، ومهما يذكر في كتابهم اهورا مزدا وأهرمن كمبدئين للخير والشر ولكنهم ينهون كل شيء الى اهورا موجد الكل ، إذا فليسوا من الوثنيين المحّضين الشرك ، وكما يلمح له مقابلتهم كالصابئين بالذين أشركوا.

والذين أشركوا هم الذين محضوا الشرك محضا ، تاركين عبادة الله إلى عبادة الأصنام والأوثان.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ ١٨.

«ا لم تر» خطاب لكل راء مهما اختلفت درجات الرؤية باختلافهم فيها ، والمرئي لهم كلهم ، بامعان النظر ولمعان الفكر ﴿أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ﴾ لا سواه ، فهو مسجود الكل على الإطلاق في ذوات اكوانهم ، خاضعين غايته

ونهايته أمام مشيئته دون امكانية التخلف ولا قيد شعرة ، من عقلاء ك ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ عامة ، أم سواهم من جماد ك ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ﴾ ام نبات ك «الشجر» وهو كل ما يتشجر من قائم على سوقه وغير قائم ، ام حيوان : «والدواب».

فهذه سجدة كونية ذاتية للكائنات كلها ، مهما كانت ساجدة باختيار ف ﴿إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٧ : ٤٤) وأفضل التسبيح عمليا هو السجدة ، فهي إذا تعم الكل.

ذلك الكل ، واما الناس ، ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ فلهم سجدة باختيار اضافة الى كونية بشعور وسواه في أجزائهم الكونية ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾ ولكنهم لا يسجدون باختيار ، بل الاوليان : كونيا أمام مشيئة الله ، وتسبيحا لأجزاء ذواتهم كسائر ذوات الكائنات ، فهم ﴿كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾ بتركهم السجدة باختيار.

ففي مثلث السجدة نجد ﴿كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾ يترك الزاوية المختارة ، ولا تنفصم به الضابطة التي تعم الكائنات كلها ، فالكون ـ إذا ـ محراب واسع يسجد فيه الكائنات لربها طوعا او كرها : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ﴾ (١٣ : ١٥) أفليس يجدر بالإنسان وهو أفضل الكائنات كونا وكيانا ان يجاوبهما في ذلك السجود العام طوعا كسجدته كرها ، واية مهانة أرذل وأذل ان يترك هذا الإنسان السجود المختار لربه فيهينه الله كما أهان هو نفسه : ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ دون الله ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾.

فهذه الآية توبيخة قارعة على تاركي السجود لله لو انهم انتبهوا عن غفوتهم ، ومن الراجح جدا او الواجب ان تسجد عند قراءتها او استماعها ، وكما مضت أحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

حين سئل : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال : نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرءهما» [١].

ثم الارادة و «المشية من صفات الأفعال فمن زعم ان الله لم يزل مريدا شائيا فليس بموحد» [٢] حيث الأفعال على اية حال حادثة كسائر الحادثات ، ثم وليست مشيئة الله تابعة لمشيئة خلقه أيا كانوا [٣].

وقد يتساءل ان كثيرا من الناس لما يعرفوا معنى سجود الكائنات فضلا عن واقعه ، فكيف يتساءلون «ألم تر» كأنهم يرون سجودها رأي العين ام رأى العلم؟

والجواب ان النظرة المجردة الفاحصة عن حالة الكائنات ككل تجاه ارادة الله ، يريهم كلهم انها خاضعة لارادة واحدة ، فلو كانت هنالك كثرة لفسدت بمختلف الإرادات ، فتلك الوحدة الكونية بنضدها ونسجها بمسير

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤٢ وفي نقل آخر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) فضلت على القرآن بسجدتين ، وفي ثالث عن علي وأبي الدرداء انهما سجدا في الحج سجدتين.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٧٦ عن التوحيد للصدوق وباسناده إلى سليمان بن جعفر الجعفي قال قال الرضا (عليه السلام) : ...

(٣) المصدر عن التوحيد باسناده إلى عبد الله بن ميمون القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهم السلام) قال : قيل لعلي (عليه السلام) ان رجلا يتكلم في المشية فقال : ادعه لي قال فدعاه فقال له : يا عبد الله خلقك الله لما شاء او لما شئت؟ قال : لما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء او إذا شئت؟ قال : إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء او إذا شئت قال : إذا شاء قال : فيدخلك حيث يشاء او حيث شئت قال : حيث شاء ، قال فقال له علي (عليه السلام) : لو قلت غير هذا لضربت الذي فيه عيناك.

ومصير واحد ، تدلنا على كمال خضوعها دون تلفت وتخلف عن ارادة الله الواحد القهار ، فهو هو المسجود لا سواه ، فحريّ ان لا يعبد إلا إياه.

﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ١٩.

«اختصموا» هنا دليل ان «خصمان» لا تعني شخصين اثنين ، وانما جمعين ، ثم ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تأييد ثان لهذه الجمعية وان الأولين هم الذين آمنوا ، وتقول الروايات انها نزلت في جمعي البدر ، ثلاثة مؤمنون يقودهم علي (عليه السلام) وآخرون كافرون ، وقد قال علي (عليه السلام): انا اوّل من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة[١].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤٨ . اخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي ذر انه كان يقسم قسما ان هذه الآية : هذان خصمان ... نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر وهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قال علي (عليه السلام) انا ...

وفيه . اخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية . قال لما التقوا يوم بدر قال لهم عتبة بن ربيعة لا تقتلوا هذا الرجل فانه ان يكن صادقا فأنتم اسعد الناس بصدقه وان يكن كاذبا فأنتم أحق من حقن دمه فقال ابو جهل بن هشام لقد امتلأت رعبا فقال عتبة ستعلم أيّنا الجبان المفسد لقومه قال فبرز عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة فنادوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه فقالوا : ابعث لنا أكفاءنا نقاتلهم فوثب غلمة من الأنصار من بني الخزرج فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اجلسوا قوموا يا بني هاشم فقام حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث فبرزوا لهم فقال عتبة تكلموا نعرفكم ان تكونوا أكفاء قاتلناكم ، قال حمزة انا حمزة بن عبد المطلب انا اسد الله واسد رسوله فقال عتبة كفء كريم فقال علي (عليه السلام) انا علي بن أبي طالب فقال كفؤ كريم فقال عبيدة انا عبيدة بن الحارث .

ولان اختصام فريقين لا يختص بمورد خاص فلتعن الآية كلّ اختصام في الرب ، بين البدريين ام اهل الكتاب والمؤمنين [١] ام اهل الجنة والنار أجمعين [٢] مهما كانوا في ظاهر الحال في المسلمين كبني أمية ، واهل الحق من امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) [٣] وقد فصل الله بين الفريقين ، المشركين وسواهم ، والمؤمنين وسواهم في آيات سالفة ، إذا فهما ﴿خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ ككل دونما اختصاص.

والمختصمون في الله هم بين محق ومبطل ولا ثالث لهما ، إذا ف ﴿هذانِ خَصْمانِ ..﴾ على طول خط الزمن الرسالي ، وكافة الاختصامات راجعة

. فقال عتبة كفؤ كريم فأخذ حمزة شيبة بن ربيعة وأخذ علي بن أبي طالب عتبة بن ربيعة وأخذ عبيدة الوليد ، فاما حمزة فأجاز على شيبة واما علي فاختلفا ضربتين فأقام فأجاز على عتبة واما عبيدة فأصيبت رجله ، قال فرجع هؤلاء وقتل هؤلاء فنادى ابو جهل وأصحابه : لنا العزى ولا عزى لكم ، فنادى منادي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فانزل الله ﴿هذانِ خَصْمانِ ...﴾.

(١) المصدر . اخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : اختصم المسلمون واهل الكتاب فقال اهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن اولى بالله منكم ، وقال المسلمون : ان كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء فنحن اولى بالله منكم فأفلج الله اهل الإسلام على من ناواهم فانزل الله هذه الآية.

(٢) المصدر . اخرج ابن جرير عن عكرمة في الآية قال : هما اهل الجنة والنار اختصمتا فقالت النار خلقتني الله لعقوبته وقالت الجنة خلقني الله لرحمته.

(٣) نور الثقلين ٣ : ٤٧٦ عن الخصال عن النضر بن مالك قال قلت للحسين بن علي (عليهما السلام) يا أبا عبد الله حدثني عن قوله تعالى ﴿هذانِ خَصْمانِ ..﴾ فقال : نحن وبنو امية اختصمنا في الله تعالى قلنا صدق الله وقالوا كذب الله فنحن الخصمان يوم القيامة ، وعن الكافي بسند متصل عن أبي جعفر (عليه السلام) ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بولاية علي (عليه السلام) ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ﴾.

الى ربوبيته تعالى.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق لما جاءهم كفرا عاندا عامدا مقصرا ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ﴾ تشتمل عليهم اشتمال الملابس على الأبدان ، حتى لا يسلم منها عضو من أعضائهم ، ولا يغيب عنها شيء من أجسادهم ، وعلّها هي ﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ﴾ إذا لبسوها واشتعلت النار فيها صارت كأنها ثياب من نار لاحاطتها بهم ، واشتمالها عليهم ، ولا فحسب بل ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ مادة حارة حارقة لباسا فوق اللباس ، كدثار فوق الشعار ونار فوق نار ، اضافة إلى ذواتهم النارية حيث ﴿أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ فهم إذا محشورون في ثالوث النار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ٢١.

والصّهر هي الإذابة ، فذلك الحميم المصبوب من فوق رؤسهم يذيب ما في بطونهم من أمعاء وأحشاء ، ويذيب الجلود نضجا : ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها ..﴾

والمقامع هي المداقّ والعمد ، حيث تضرب على رؤسهم بما يصبّ ، ويصبّ بما تضرب ، جمعا بين جموع العذاب.

ففي هذه الضفة الكافرة ثياب من نار تقطع وتفصل ، وحميم ومقامع تصبّ وتضرب عذابا دائبا لا حول عنه :

﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ ٢٢.

ارادة للخروج تشرفهم على واقع الخروج ، ثم اعادة فيها قطعا لأمل كأنه واقع عذابا فوق العذاب.

و «كلما» هنا تحلّق على كل زمن العذاب دون كل الزمن حتى يدل على لا نهائية في العذاب ، فالخروج عن العذاب ما دام استحقاق العذاب للآبدين فيه ممنوع ، ولا ينافيه فناء النار بمن في النار فانه ليس خروجا عن النار وهي باقية.

فالنار ـ إذا ـ تعمهم وتغمهم دون خروج عنها للدائمين فيها ما دامت هي مشتعلة ، ولا خروج عنها او عن غمها كما لا تخفيف ، وانما عذاب قدر استحقاق ، قضية العدل والتسوية بين عصيان محدود وعذاب محدود.

ويقال لهم عند ردهم إليها ﴿وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ هنا كما أذقتموه من اضللتموه هناك جزاء وفاقا ، عذابا فوق العذاب.

ثم نرى ضفة الايمان كيف تزفّ بحلية من لباس وطيب من القول :

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ ٢٣ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ ٢٤.

فأين الثياب المقطوعة من حرير من مقطوعة النار ، واين التحلية من أساور الدستوار الذهبية زينة للأيدي ، من حميم مصبوب فوق رؤسهم ومقامع من حديد ، واين الهدي الى الطيب من القول تحية وسلاما وإكراما من الرد إلى النار للمغتمين فيها والقول ﴿ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾.

هنا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها .. وَلِباسُهُمْ فِيها﴾ يلمحان بحلّيتهما لهم! فقط ـ فيها دون الاولى ، وقد تظافر الحديث عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم): من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» [1] وبالطبع

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥ ـ اخرج البخاري ومسلم عن عمر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ذلك التهديد التحديد خاص بقبيل الرجال فان التزين بهما للنساء غير محظور بل هو مشكور.

«وهدوا» هداية كهديّة ﴿إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ تكلما به واستماعا له ﴿وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ لان صراطهم في الدنيا كان حميدا بهدي الله الحميد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)

. والنسائي والحاكم عن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن الزبير عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرج النسائي والحاكم وابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. وزاد : وان دخل الجنة لبسه اهل الجنة ولم يلبسه.

أقول ويساعده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ لمكان الجمع ، فمن عمل بعض الصالحات لم يكن بهذه المثابة والمثوبة الكاملة.

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾(٣٧)

ثلاثة عشر آية تحوم حوم الحج في البعض من هامة مناسكه ، والتوجيهات العقائدية والسياسية اما هيه مما يقصد من هذه العبادة الجماهيرية السياسية القيادية ، ولكي يتبنّى دولة الإسلام قوية صامدة عالمية ، رباطا تاما بين الكتلة المؤمنة في ارجاء المعمورة ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾.

فلذلك ترى ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ يختص بالذكر بعد ﴿سَبِيلِ اللهِ﴾ كأصدق مصداق شاخص يتجسد فيه سبيل الله ، وهي سبيل صالح الإنسان بما يصلحه إصلاحا جماعيا جمعيّا في كافية الجنبات.

صحيح ان سائر الفرائض الإلهية كلها سبل الله ولكنما الحج تجمع بين

كافة السبل قضية مناسكها الهامة التي تجمع جموعها في عبودية جماهيرية حركية عالمية :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ ٢٥.

فكما الإسلام بضوابطه هو لكافة المسلمين ، كذلك قبلة الإسلام وعاصمته : ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ فقد جعله الله للناس . وطبعا المسلمين منهم . فإنهم الذين يقصدونه كسبيل الله الموحّدة بينهم . جعله لهم حال انه ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ سكنا وعبادة ، فلا يفضّل عاكف فيه على باد ، وذلك لأنه المعكف والمطاف والقبلة لكل المسلمين على حد سواء ، بيت عتيق طليق لا يملكه احد سوى الله ، وقد جعله الله لعباده ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ فكل ترجيح لعاكف على باد لحاضر على مسافر ، ولمواطن على سواه ، كل ذلك الحاد فيه بظلم ، ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾.

لا يعني «العاكف» فقط المعتكفين في المسجد الحرام كعبادة معروفة حيث العبارة الصالحة عنه المعتكف ، ولا «الباد» غير المعتكف ، بل هما «المقيم والذي يرحل» سواء اعتكفا ام أحدهما ام لا ، وعلّ التعبير بالعكوف للتأشير إلى مدى المسؤولية الهامّة على عواتق المقيمين بمكة المكرمة ، أن عليهم حياة العكوف والعبودية فيها بكل رقابة.

وطبعا لا يعني ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ هنا نفس المسجد إذ لا يقيم فيه المقيم ولا البادي ، بل هو مكة المكرمة كلها او الحرم كله ، تعبيرا بأقدس مكان فيه ، كما و ﴿ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ (٢ : ١٩٦) ليست لتعني نفس المسجد فانه ليس مسكنا للأهلين ، وذلك عناية في التعبير عن البلاد المقدسة ان يذكر الامكنة المقدسة فيها.

وليس ذلك الصدّ . فقط . عن المسجد الحرام ، فانه صدّ عن المناسك

كلها ، وليس في المسجد الحرام إلا شطر منها ، إذا فالمسجد الحرام هنا هو امكنة المناسك كلها ، الحرم وما والاه من عرفات ومشعر ومنى.

وقد يقال ان «فيه» في ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ تتعلق ب «سواء» ف «سواء فيه» : نفس المسجد «العاكف» في مكة او الحرم «والباد» الا ان «العاكف» اقرب تعلقا ومعنى ، فان كانت «فيه» متعلقة بسواء لكانت الصيغة الصالحة «سواء فيه العاكف والباد».

او ان ﴿الْعاكِفُ فِيهِ﴾ هو المعتكف كعبادة خاصة ، ولكنه لا يقابله الباد ، فرب باد يعتكف.

إذا ف ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ تسوّي بينهما في بيوت مكة ، فهي مباحة للباد كما العاكف؟ فلا تؤخذ اجرة من زوار البيت والا فلا سواء ، وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «مكة مباحة لا توجر بيوتها ولا تباع رباعها» [١] و «من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا» [٢] وقد «توفى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وابو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى اسكن» [٣] ومن كتاب لعلي (عليه السلام) الى قثم بن عباس وهو عامله على مكة «وأمر أهل مكة ان لا يأخذوا عن ساكن اجرا فان الله سبحانه يقول ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ والعاكف المقيم به والبادي الذي يحج اليه من غير اهله» [٤].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥١ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عمران النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

(٢) المصدر اخرج الدار قطني عن ابن عمران رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

(٣) المصدر اخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن علقمة بن نضلة قال : ...

(٤) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عن الإمام علي (عليه السلام) : ... وفي نور الثقلين ٣ : ٤٨٠ عن قرب الاسناد للحميري باسناده إلى أبي جعفر عن أبيه عن.

والصد عن المسجد الحرام كسائر الصد عن سبيل الله هو الصد عن ان يعبد الله فيه بخاصة المناسك وعامة العبادة ، ومن الصدّ عنه التمييز بين العاكف فيه والباد ، ومنه تملكه روحيا او زمنيا ، والسيطرة الخاصة عليه الا تنظيما ادبيا بين جموع الوافدين عاكفين ام بادين.

وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «يا بني عبد مناف من ولى منكم من امور الناس شيئا فلا يمنعن أحدا طاف بهذا البيت او صلى اية ساعة من ليل او نهار»[1] فكلما يرغب في المسجد الحرام او يؤمر فيه او يندب لا يجوز الصدّ عنه.

. علي (عليهم السلام) كره إجارة بيوت مكة وقرء ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ وعن تهذيب الأحكام موسى بن القاسم عن صفوان بن يحيى عن حسين ابن أبي العلا في الصحيح قال ذكر أبو عبد الله (عليه السلام) هذه الآية فقال : كانت مكة ليس على شيء منها باب وكان أوّل من علق على بابه المصراعين معاوية بن أبي سفيان وليس ينبغي لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور ومنازلها وروى مثله في العلل عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سألته عن قول الله عز وجل ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ فقال لم يكن ينبغي ان يصنع على دور مكة أبواب لأن للحاج ان ينزلوا معهم في دورهم في ساحة الدار حتى يقضوا مناسكهم وان أول من جعل لدور مكة أبوابا معاوية وعن الكافي روى مثل ما في التهذيب باختلاف يسير.

وفي تفسير البرهان ٣ : ٨٤ عن الحميري باسناده عن جعفر عن أبيه عن علي (عليه السلام) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نهى اهل مكة عن إجارة بيوتهم وان تعلقوا عليها أبوابا وقال : سواء العاكف فيه والباد . وقال : وفعل ذلك ابو بكر وعمر وعثمان حتى كان في زمن معاوية.

وفي الصحيح عن حفص البختري عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال ليس ينبغي لأهل مكة ان يجعلوا لدورهم أبوابا وذلك ان الحاج ينزلون معهم في ساحة الدار حتى يقضوا حجهم (التهذيب ٥ : ٤٦٣ ورواه مرسلا في الفقيه : ٣ : ١٢٦).

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٢٤ قال (عليه السلام) : ...

وهل ان تلك التسوية تقتضي ألّا تملك دور مكة المكرمة؟ علّها لا ، إذ يجوز ان تملك على ذلك الشرط ألا يمنع الحجاج من سكنها زمن الحج.

هنا بيت الله ، فلا يعبد فيه الا الله ، وكل عباد الله فيه على سواء ، ومهما اختلفت درجاتهم روحية وزمنية ، فلا ينبغي لأحد ان يختص فيه بكرامة وحرمة زائدة ، اللهم الا بتقوى الله ، ولكنها ايضا ليست لتميز عباد الله في بيت الله بشأن من شؤون عبادة الله مكانا او مكانة او زمانا ام أيا كان ، فان ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ تحلّق على كافة التسويات من حيث كون المسجد الحرام سبيل الله.

ثم الإلحاد فيه يعم كل ميل عن الحق ، عامة في كل الحقول ، وخاصة في حقل المسجد الحرام بما له من حرمات خاصة ، فيشمل كل عصيان وظلم في مثلثه ، بحق الله او بحقك وبحق الناس.

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾ . لا فقط . من يعمل فيه أو يلحد فيه . تحتث عن هذه الساحة المباركة كافة التخلفات عقائدية وعملية وحتى في النية والطوية ولمن لم يصل إلى الحرم رعاية لقداسة الموقف فانه اقدس مقدس في الكون كله بأسره وعن بكرته ، فكما من الإلحاد في المسجد الحرام تهديمه وعوذا بالله ، او الإشراك بالله ، كذلك كل تخلف عن شرعة الله ، حيث يتضاعف في المسجد الحرام وفي الحرم كله ومنه الصيد في الحرم لا سيما حالة الإحرام ، وارتكاب محرمات الإحرام حاله ، ودخوله الحرم بلا إحرام الا لمن استثني ، بل و «احتكار الطعام في الحرم الحاد فيه» [1] وعلى الجملة «كل

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥١ . اخرج البخاري في تاريخه وعبد بن حميد وابو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يعلي بن امية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ... واخرج مثله البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ...

ظلم يظلم به الرجل نفسه بمكة من سرقة او ظلم احد او شيء من الظلم فاني أراه إلحادا ولذلك كان ينهي ان يسكن الحرم [١].

ولا فحسب فيه ، بل ومن يرد فيه قبل ان يوافيه وان لم يصله فضلا عن وصوله بما أراد ، وباحرى من يرد فيه وهو فيه ولم يحقق ما أراد ، وهذه من ميزات قبلة الإسلام ، ان الارادة السيئة بمجردها في غيرها لا تؤخذ بشيء ، ولكنها فيها مأخوذة مهددة بعذاب اليم ، فضلا عن تحقيقها فيها! وقد يتوسع ﴿مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ الى غير الإنسان من حيوان كسباع الطير إذا صارت في الحرم [٢].

وهل يتحصن بالحرم عن اجرام فيه ام خارجه؟ كلا! فانه ليس ملجأ للمجرمين ، بل ونفس «التحصين بالحرم الحاد» [٣] فانه حرم للمؤمنين ، دون المجرمين.

اللهم إلا تحصينا مؤقتا مشروطا لمن جنى في غيره ثم لجأ اليه فانه يضيّق عليه في مأكله ومشربه حتى يضطر للخروج عنه فيقام عليه الحد ، واما

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٨٢ في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن أبي الصباح الكناني قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن هذه الآية قال : ... أقول : والراويات بذلك مستفيضة.

(٢) المصدر عن العلل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قيل له : ان سبعا من سباع الطير على الكعبة لا يمر به شيء من حمام الحرم الا ضربه ، فقال (عليه السلام): انصبوا له واقتلوه فانه قد الحد في الحرم.

(٣) جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٩٢ ح ٢١١ . يب ٥٧٩ احمد عن ابن محمد الحسن بن علي الوشاء عن بعض أصحابنا يرفع الحديث عن بعض الصادقين (عليه السلام) قال : التحصين بالحرم الحاد.

الجاني في نفس الحرم فيقام عليه الحد في نفس الحرم «لأنه لم يدع للحرم حرمة» [١].

وعلى اية حال فكل الظلم فيه الحاد [٢] بل وارادته ايضا من الإلحاد فيه.

وترى ما هو موقف «بظلم» بعد «بإلحاد» وكل الحاد ظلم؟ عل الباء في «بإلحاد» للملابسة ، تعني ملابس الإلحاد فيما يريد ، وفي «بظلم» للسببية ، تعني إلحادا ظالما ، عله هنا بحق الناس حيث ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ وكما بحق الله وأدناه الظلم بالنفس ، ام انهما حالان ل «يرد» والمفعول محذوف ليتناول كل متناولاته ، انحرافا بظلم.

ام ان «بظلم» بدل عن «بإلحاد» تعني ارادة ملابسة بظلم أيا كان ، فانه الحاد ، اكبارا لاي ظلم يراد فيه انه الحاد ، وان كان ظلما بالنفس فضلا عن سواها ، ام انها كلها معنية مهما تفاضلت.

وكل ذلك لسيادة منقطعة النظير في ذلك الموقف العظيم ، فانه قبلة الإسلام ومطاف المسلمين ، فليقدّس عن كل الحاد وكل ظلم وكل ما لا يرضاه الله تعالى ، منطلقا لكافة الأبعاد الإسلامية السامية [٣].

فكما ان المسجد الحرام هو اقدس مكان في الكون كله ، فليكن كل

---

(١) تفصيل البحث راجع إلى تفسير آية «وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فراجع.

(٢) كما رواه أصحابنا مستفيضا كصحيحة ابن أبي عمير عن الصادق (عليه السلام) ان كل ظلم فيه الحاد ، ومثلها غيرها.

(٣) جامع أحاديث الشيعة ١٠ : ٩٣ في الرضوي (عليه السلام) فمن هم لمعصية (اي في مكة) ولم يعملها كتب عليه سيئة لقوله تعالى : ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب السعير» وليس ذلك في بلد غيره.

عاكف فيه او باد واقدس ممن سواه بواقع القداسة ام ـ لأقل تقدير ـ بحراسة وقتية ، تصنيعا لنفسه وتصنيعا لآخرين.

وهكذا يسبق الإسلام سبقا بعيدا عريقا بإنشاء واحة السلام ومنطقة الأمان ، ودار الإسلام المفتوحة لأهل السلام والإسلام ، مهدّدا هؤلاء الذين يريدون اعوجاجا في هذا المنهج القويم المستقيم بعذاب اليم ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾.

وعلّ ذلك التعقيب يكفي جوابا عن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كما هو جواب ل ﴿مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ﴾ فلا حاجة إلى تقدير ، ام انه لوضوحه بعظم عذابه ليس بحاجة إلى جواب حيث يعرفه البسطاء فضلا عن اولي الألباب.

ولقد ذكر المسجد الحرام في اربعة عشر موضعا بمختلف المناسبات ثم مسجد ومساجد اخرى بنفس العدد ، ويا لها توافقا بين عديد الذكر للمسجد الحرام وسائر المساجد ، وفقا فيهما لعدد المعصومين الأربعة عشر ، فإنهم من شروط المسجد الحرام سبيلا إلى الله ، وتقبلا لفريضة الله.

ولماذا يعطف هنا المستقبل «ويصدون» على الماضي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؟ علّه للتأشير إلى استمرارية صدهم منذ كفرهم الماضي ، اضافة إلى كل صادّ عن سبيل الله في المستقبل على مر الزمن فإنهم يكفرون ويصدون ، فلا يكفي ـ إذا ـ وصدوا ، حيث لا يشمل استقباله واستمراره ، فهم بعكس التعبير ك ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ٢٦.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ﴾ (٢ : ١٢٥).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنا﴾ كأنه قبل ان يبني البيت ، لمكان ﴿مَكانَ الْبَيْتِ﴾ دون ـ فقط ـ «البيت» فقد جعله الله له بواء مباءة : مرجعا يرجع إليه إسكانا من ذريته ، وعمارة للبيت ، وطوافا به ، فلان الأولين يختصان به ، لذلك يختص هو بتلك المباءة ﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ نهيا صارما يحلّق على كافة دركات الإشراك بالله حتى الرئاء وما دونه.

لا فحسب نفسك بل ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ عن مظاهر الإشراك وملامحه وعمن يشرك بالله ، إخلاء ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

صيغة «بيتي» مصوغة لخصوص الكعبة المشرفة ، اضافة تشريفية ما أشرفها ، مهما كانت كل مساجد الله بيوت الله ، إلّا ان الكعبة إمام البيوت كما هي أمام البيوت.

هنا وفي ﴿أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ﴾ (٢ : ١٢٥) و ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (١٤ : ٣٧) الكعبة فيها بيت الله ، لأنها مباءة العبادة لله ، ثم في ثلاث اخرى [١] هي بيت الناس لأنها معبد الناس ومطافهم ، فهي إذا بيت الله وبيت الناس ، ثم وفي عشر هي الاخرى «البيت» اشارة إلى بيت الله وبيت الناس.

فهو بيت الله حيث يعبد فيه الله وهو قبلة المصلين لله ، وهو بيت عتيق لم يكن ولن يكون في ربقة غير الله.

---

(١) «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ..» (٣ : ١٦) و «جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (٥ : ٩٧) «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً» (٢ : ١٢٥).

وهو بيت الناس ، فإنهم هم الذين يبيتون فيه ويستقبلونه ويطوفون به لله ، إذا فهو بيت الناس كما هو بيت الله مهما بان البون بين الانتسابين كالبون بين الناس وبين الله.

ثم الطهارة المأمور بها ظاهرية عن كافة الأنجاس والأقذار ، وبأحرى باطنية عن الإشراك بالله في مربع «الطواف والقيام والركوع والسجود» كالقمة المعنية من توحيد الله في عبادته.

فكما ان هؤلاء عليهم تطهير بيوت قلوبهم وافكارهم ومظاهر أبدانهم وملابسهم واعمالهم حتى يصلحوا لحج هذا البيت ، كذلك ﴿طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ ...﴾ ومن تطهير ذلك البيت ان تكون عمارته بصدق النية وطهارة الطوية : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ ..﴾ (٩ : ١٠٩) وكما منه تنحية المشركين عنه [١].

وترى من هم «الطائفين والقائمين» حيث ﴿الرَّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم المصلون؟ فهل الطائفون هم من يطوف البيت ، والقائمون هم القائمون في الصلاة ، فهو والركع السجود تعبيرات ثلاث عن الصلاة؟

و ﴿الرَّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يكفي تعبيرا عن الصلاة ، فإنهما تعنيان عبادة تحويهما قضية ردفهما دون عطف ، وهما معا لا يوجدان إلّا في الصلاة ، وقد عطفا بالقائمين دليلا على مفارقتهما إياهم!

ولو كانت الثلاثة هم المصلين فصحيح العبارة عنهم «القائمين الركع السجود» ردفا دون عطف قضية وحدة العبادة ، رغم ان ضم ﴿الْقائِمِينَ﴾ لا يفيد زيادة معنى!

---

(١) تفسير القمي ص ٣٢ عن الصادق (عليه السلام) نح عنه المشركين.

ثم وذكر ﴿الْعاكِفِينَ﴾ في آية البقرة بديلا عن ﴿الْقائِمِينَ﴾ هنا مما يحتّم انهم هم العاكفون المقيمون في مكة المكرمة ، فالطائفون هم البادون ، الحاضر للطواف دون الإقامة.

وتأييدا ثالثا قرن السواء في غاية التطهير ، بالسواء بين العاكف والباد ، فكما لم يميزوا في البداية فكذلك الأمر في النهاية ، هناك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ﴾ وهنا ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ﴾.

فالطائفون هم الزائرون ، والعاكفون هم القائمون ، والركع السجود هم المصلون ، مهما شمل الطائفون كل الطائفين حوله ، والعاكفون من يعتكف فيه وسواه.

فقد جعل الله هذا البيت للناس سواء العاكف فيه والباد في كل شعائر الحج ، ولذلك امر ابراهيم ان يطهره للناس سواء الطائفين والقائمين بعكس الترتيب هناك كيلا يتقدم مقيم على مسافر ولا مسافر على مقيم تحقيقا للتسوية حتى في التعبير.

ثم الأمر بتطهيره لا يخص ابراهيم الخليل ، بل هو مستمر إلى يوم الدين ، كما التسوية المجعولة المرمية إلى يوم الدين.

وذكر ﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ مقيما او مسافرا بعد «الطائفين والقائمين» مسافرا او مقيما ، لطواف البيت وسواه من مناسك الحج والعمرة ، يصوّر لنا صلاة الطواف بعده ، مع ان «الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة» [1].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٤ ـ اخرج الحاكم عن ابن عباس قال قال الله لنبيه : وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود قال : طواف قبل الصلاة وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة إلا ان الله قد أحل فيه المنطق فلا ينطق الا بخير.

فليكن ذلك البيت العتيق بالمسجد الحرام والحرم كله ، اطهر بيت في الكون كله ، متخليا عن كل مظاهر القذارة والرجاسة ، متحليا بكل مظاهر الطهارة والقداسة ، بعيدا عن كافة المفارقات والتمييزات لاي مقيم او مسافر ، في طواف وصلاة وسواهما من مناسكه.

وهنا ﴿الرَّكَّعِ السُّجُودِ﴾ دليل جواز الصلاة في جوف الكعبة المشرفة ، فانها أصدق مواضع «بيتي» حين يشمل المسجد الحرام ، وتأويل ﴿الرَّكَّعِ السُّجُودِ﴾ بكونها فقط أمامها قبلة عليل خارج عن التحصيل.

واما الطائفون الزوار والقائمون المقيمون ، فهم بين طائف ومصلّ ، ومعنى الطواف هو التطواف حوله ، فالداخل فيه السائر في حواليه لا يسمى طائفا بالبيت العتيق [1].

واما الآية ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ فهي للخارجين عن الكعبة والمسجد الحرام ، حيث امر به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنون معه في المدينة المنورة.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ٢٧.

وترى من هو المخاطب المأمور هنا بالأذان الإعلان بالحج؟ أهو ـ فقط ـ ابراهيم الخليل (عليه السلام) وهو دعوى دون دليل إلّا سبق الخليل بأمر قبله : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ والآيات التالية المخاطبة للحاضرين ومن

---

(١) البحار ٩٦ : ٤٨ ـ ٥٠ عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال : لما اوحى الله إلى ابراهيم (عليه السلام) ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ، اهبط إلى الكعبة مائة وسبعين رحمة فجعل منها ستين للطائفين وخمسين للعاكفين وأربعين للمصلين وعشرين للناظرين.

يلحقهم مستقبلين تطارد ذلك الاختصاص ، لا سيما وان ذلك الخطاب «في الناس» كل الناس كقضية حقيقية تحلّق على كافة المكلفين إلى يوم الدين ، فحتى إن كان خطابا لإبراهيم ، فهو كأوّل من يحمله إلى الناس دون اختصاص ، والخطابات الشرعية للناس دائبة ما دام الناس إلا ان يأتي نسخ او تبديل ، وليس في القرآن دليل على اي تبديل بالنسبة لذلك الخطاب بكل ما يضمنه من مضامين.

ام هو خطاب لخصوص الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بعيد عن السياق حيث سبق الخطاب ابراهيم الخليل وهو اوّل بان للبيت ، فهو ـ بطبيعة الحال ـ اوّل مؤذّن للحج ، مهما يستمر حتى الرسالة الاخيرة بأكمل صورة وسيرة.

حقا انه خطاب أولا لإبراهيم كأذان اوّل ، ثم للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كأذان ثان ، مهما كان بينهما عوان على طول خطوط الرسالات منذ ابراهيم حتى محمد (عليهما السلام) [1].

ومجرد ذكره هنا مجردا عن احد المخاطبين دليل الشمول ، ثم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أحرى من يشمله كما نتلمح او نتصرح من خطابات تالية ، ﴿**فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا ... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ... إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ ..**﴾

---

(١) فروع الكافي ١ : ٢٣٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم انزل الله سبحانه ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ...**﴾ فامر المؤذنين ان يؤذنوا بأعلى أصواتهم بان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحج في عامه هذا فعلم به من حضر المدينة واهل العوالي والاعراب ...

أقول : ولا تنافيه الرواية القائلة ان المأمور به ابراهيم (عليه السلام) حيث الأمر يحلق كافة الرسل منذ ابراهيم حتى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿فَاجْتَنِبُوا .. وَاجْتَنِبُوا .. لَكُمْ فِيها مَنافِعُ﴾ ومن ثم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً ..﴾ فالهكم آله واحد ـ امة واحدة ـ! ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ .. لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها ... فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا ... كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٨ : ٣٧).

ثمانية عشر خطابا في مناسك الحج تحملها آيات عشر بعد آية الأذان تعم الحاضرين من المسلمين وإلى يوم الدين ، كيف نتجاهلها باختصاص خطاب الأذان بأصل الحج لإبراهيم الخليل ، اللهم الا بتأويل عليل وتدجيل.

وهذه ضابطة ثابتة في فقه القرآن ، أن كل امر او نهي فيه لاي رسول ، يبقى امرا او نهيا لكل المرسل إليهم ، اللهم إلّا ببرهان قاطع من القرآن نفسه ينسخه او يحدده ، حيث الرسالة واحدة ، والمرسل إليهم امة واحدة ، اللهم إلّا في بعض مظاهر العبودية وسواها حسب المصالح ، فما لم يثبت نسخ من الكتاب لحكم مذكور فيه فهو ثابت ، ولا سيما مثل أذان الحج الذي هو بطبعه زمني يشمل كافة الأمم ، مهما تكامل في الامة الاخيرة.

. «وأذن» امر صارم ﴿فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ وهو زيارة البيت حجا او عمرة ، و «يأتوك» دون «يأتونك» هو جواب الأمر ، فذلك أمر بأمر ، أمر أن يأمر الناس بالحج ، مقدّما للمشاة على الرّكب ﴿يَأْتُوكَ رِجالاً﴾ جمع راجل وهو الماشي ﴿وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ وهو اي مركوب مهزول ، ضمره الجوع او المرض ، وقد أهمل هنا اي مركوب قوي مزين مرمول ، مما يدل على ان الراحلة في أصلها ـ فضلا عن سليمها ـ ليست شرطا في فرض الحج.

فمن المضحك المبكي اعتذار بعض المتفقهين عن الآية ـ بعد الإذعان بدلالتها ـ على انها خلاف الشهرة العظيمة او الاطباق ، وخلاف الرواية المشترطة الراحلة في استطاعة الحج ، فلا يعمل بها!

وترى ما هو شأن الشهرة او الرواية امام تصريح الآية ، وهي غير منسوخة بل مؤيدة مبيّنة بآية الاستطاعة ، فمن استطاع مشيا او على كل ضامر دون حرج او مشقة لا تستطاع ، فهو ممن استطاع اليه سبيلا ، ومن لا يستطيع لا راجلا ولا راكبا فهو ممن لا يستطيع اليه سبيلا.

والرواية المفسرة للاستطاعة بالزاد والراحلة تقول «فإذا كان صحيحا في بدنه مخلى سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج» [1] لا هو المستطيع للحج ، سلبا لاستطاعة من لا يحتاج إلى زاد وراحلة.

واشتراط الزاد والراحلة في الاستطاعة هو طبيعة الحال في الاكثرية الساحقة الساكنين في كل فج عميق ، واما القريبين إلى مكة المكرمة ، غير المحتاجين إلى راحلة ، فهم ممن يستطيعون الحج دون راحلة ، كما المحترفين في سفر الحج يستطيعونه دون زاد حاضر ، فانما الاستطاعة ـ دون حرج او مشقة زائدة غير متحمّلة ـ هي فقط شرط الوجوب ، إلا ان الاكثرية الساحقة او المطلقة لا يستطيعونه إلا بزاد وراحلة.

---

(١) في الكافي ٤ : ٢٦٧ والتهذيب ١ : ٤٤٧ والاستبصار ٢ : ١٢٩ سأل حفص في الصحيح أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ ما يعني بذلك؟ قال : من كان صحيحا في بدنه مخلى سربه له زاد وراحلة فهو ممن يستطيع الحج.

أقول : والرواية المطلقة في ذلك محمولة على الأكثر إذ ليست لتعارض نص آية الأذان كما رواه الصدوق في التوحيد عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية ما يعني بذلك؟ قال : من كان صحيحا في بدنه مخلا سربه له زاد وراحلة.

لذلك ترى آية الأذان تطلق «رجالا» ثم تقيّد ﴿وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ ب ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وطبعا لا يركب الضامر إلّا من يحتاج إلى ركوبه لعمق فجه أم ضمور قوته.

فالأصل في أذان الحج هم «رجالا» وهم ـ في الأكثر ـ الذين يأتون من كل فج قريب ، ثم ﴿عَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ وهم ـ في الأكثر ـ الآتون من كل فج بعيد ، ومن ثم على كل مركوب مستطاع ، قويا في جسمه ، سريعا في مشيه ، حيوانا ام سفينة ام سيارة ام طائرة.

وقد يتعاكس الأمر ، فمن ساكن في فج قريب لا يستطيع المشي فهو ـ إذا ـ غير مستطيع دون راحلة ، وآية الاستطاعة لا تشترط إلّا اصل الاستطاعة ، بزاد وراحلة ام دون زاد وراحلة ، راحلة ضامرة ام عامرة ، وقد استفاضت السنة في افضلية الحج ماشيا على الركوب لمن يستطيعه وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):: ان الملائكة لتصافح ركاب الحجاج وتعتنق المشاة» [1] وذلك خاص بطبيعة الحال بمن لا يحشره امر أهم كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث القيادة الرسالية لا تسمح له ان يصرف شطرا بعيدا من أوقاته في أداء ندب كالحج ماشيا واما الائمة الذين حجوا مشاة لمرات ومرات فلم يكونوا بمنصب القيادة الحاضرة حيث اغتصب عنهم.

وعلى اية حال فهنا في تقديم «رجالا» دليل تفضيل الحج ماشيا ، وتفضيل المشاة الذين لا يملكون راحلة ضامرة ، ثم تفضيل الركب الضامرة على الركب العامرة ، مما يوضح تماما ان ليست الاستطاعة بادية من المال على اية حال ، فليس المستطيعون هم الأغنياء بالركب الفاخرة ، بل هم غير مذكورين في عديد المستطيعين حتى في المرحلة الآخرة ، لولا آية الاستطاعة

---

(١) الدر المنثور : ٤ : ٣٥٥ ـ اخرج البيهقي عن عائشة قالت قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

الشاملة لهم في اطلاقتها الظاهرة ، وليست الاستطاعة الا القوة [١] دون حاضر الزاد والراحلة ، فقد لا يقوى رغم حضورهما وقد يقوى دونهما ، فان كان له بعض الزاد وبامكانه تحصيل البعض الآخر في الطريق فهو ممن له زاد ، «فان كان يطيق ان يمشي بعضا ويركب بعضا فليحج [٢] حيث المدار على اصل الاستطاعة وهي تختلف حسب مختلف الظروف والامكانيات ، ومن الناس من يمكنه المشي كلا وتحصيل الزاد في الطريق او المقصد ، فهو ممن استطاع اليه سبيلا ، وتفصيل الاستطاعة يختص بآيتها الثانية.

إذا ف «حجة الإسلام واجبة على من أطاق المشي من المسلمين ولقد كان اكثر من حج مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مشاة [٣].

---

(١) جامع الأحاديث ١٠ : ٢٤٦ ح ٧٤٦ عن المحاسن عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سأله حفص الأعور وانا اسمع فقال جعلني الله فداك ما قول الله : ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا؟ قال : ذلك القوة في المال واليسار.

(٢) المصدر ٢٤٩ ح ٧٥٤ عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في آية الاستطاعة ما السبيل؟ قال : ان يكون له ما يحج به ، قال قلت : من عرض عليه ما يحج به فاستحى من ذلك اهو ممن يستطيع اليه سبيلا؟ قال : نعم ما شأنه يستحي ولو يحج على حمار ابتر فان كان يطيق ان يمشي بعضا ويركب بعضا فليحج ، أقول وقد وردت بذلك روايات مستفيضة.

(٣) المصدر ٢٥١ ج ٧٦٣ باب ٤٤٩ ص ١٤٠ الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن فقيه ١٧٤ معاوية ١ . بن عمار قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن رجل عليه دين أعليه ان يحج؟ قال : نعم ان حجة الإسلام .. شاة ولقد مر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بكراع الغميم فشكوا اليه الجهد (والطاقة . في فقيه) والعن فقال : شدوا أزركم واستبطنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم ، أقول ورواه مثله في بعض نسخ فقه الرضوى وفي ج ٧٦٥ بإسناد متصلة عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) قول الله عز وجل ولله على الناس ... قال (عليه السلام) يمشي ان لم يكن عنده قلت لا يقدر على .

ولان «الحج» هو قصد البيت لزيارته ، فهو يعم طواف الحج والعمرة ، وهما كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، فمثل ﴿أَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ مكان افتراقهما ، واما آية الأذان واستطاعة الحج فهما في اجتماعهما.

ذلك الأذان الاعلام الإعلان لحج البيت منذ ابراهيم حتى الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فما يزال وعد الله يتحقق منذ ابراهيم إلى اليوم والغد ، وما تزال افئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام ، وترف اليه ، يتقاطرون إلى ذلك البيت العتيق من كل فج عميق من فقراء وأغنياء من استطاع اليه سبيلا.

ولماذا تلك الفريضة الجماهيرية العالمية ، وهنا لك فرائض اخرى لا تضم ذلك الحشد الكبير؟ :

﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ٢٨.

ذلك لان الحج مشهد المنافع العامة لعموم المسلمين ، ومسرح الفوائد والعوائد الجماهيرية التي تكفل كيان الإسلام وشوكة المسلمين ، وقد قدمت هنا على ذكر اسم الله وهو خالص العبادة التي يؤتى بها إعلانا وإسرارا ، أفرادا وجماعات ، ولكنها في ذلك المسرح كمشهد المنافع جماعية جماهيرية ، مما يدل على أن هنا لك منافع تختلف صوريا عن ذكر اسم الله ، هي التي تتبنى قوائم شرعة الله في بلاد الله.

. المشي قال يمشي ويركب قلت لا يقدر على ذلك قال يخدم القوم ويخرج معهم ، وفيه (٧٦٦) عن عبد الرحمن بن الحجاج قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) الحج على الغني والفقير؟ فقال : الحج على الناس جميعا كبارهم وصغارهم فمن كان له عذر عذره الله.

فهي ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ كمجموعة من الكتلة المؤمنة ، لأنها مسرح ومصرح للشرعة الإلهية كلها كشعائر ، بين تطبيق لقسم منها وتدريب لأخرى في تأشيرات عشيرات لمناسكها رميا للشيطان وطوفا حول بيت الرحمان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

اجل «واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق «يأتوك» ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله.

وتنكير «منافع» هو تنكير تعظيم لما يجهل من منافع ، فلم يقل «منافعهم» او «المنافع» لكيلا يخيّل إليهم أنها المنافع المعروفة لديهم ، الحاصلة في غير ذلك المؤتمر العالمي ، وانما ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ مجهولة لمن لم يأتوا ذلك المشهد المسرح ، وهي «لهم» جميعا ، دون المنافع الفردية الحاصلة في كل مطرح!

وهل هي ـ فقط ـ منافع الدنيا لذكرها قبال ذكر اسم الله ، ام منافع الآخرة [١] سوى ذكر اسم الله؟ إنها «الكل» [٢] دونما اختصاص ، منافع طليقة تحلّق على حاجيات الدنيا والآخرة ككل ودون إبقاء.

اجل «وعلة الحج الوفادة إلى الله عز وجل ، وطلب الزيادة ، والخروج من كل ما اقترف ، وليكون تائبا مما مضى ، مستأنفا لما يستقبل ، وما فيه

---

(١) المجمع عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : هي العفو والرحمة.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٤٨٨ في الكافي بسند متصل عن الربيع بن خثيم قال شهدت أبا عبد الله (عليه السلام) وهو يطاف به حول الكعبة في محمل وهو شديد المرض فكان كلما بلغ الركن اليماني أمرهم فوضعوه بالأرض فاخرج يده من كوة المحمل حتى يجرها على الأرض ثم يقول : ارفعوني فلما فعل ذلك مرارا في كل شوط قلت له جعلت فداك يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان هذا منافع الدنيا او منافع الآخرة؟ فقال : الكل.

من استخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد وخطر الأنفس شاخصا في الحر والبرد ثابتا عليه دائما مع الخضوع والاستكانة والتذلل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع والرغبة والرهبة إلى الله تعالى ، ومنه ترك قساوة القلب وجساوة الأنفس ونسيان الذكر ، وانقطاع الرجاء والأمل ، وتجديد الحقوق ، وحظر النفس عن الفساد ، ومنفعة من في شرق الأرض وغربها ، ومن في البر والبحر ممن يحج ومن لا يحج من تاجر وجالب وبايع ومشتر وكاسب ومسكين ، وقضاء حوائج اهل الأطراف والمواضع الممكن لهم الاجتماع فيها ، كذلك ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾[1].

وقد ذكر الله تعالى من ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ ما ذكر في آي أخرى لفريضة الحج : ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ﴾ (٥ : ٩٧) . ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ (٢ : ١٢٥) . ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ (٣ : ١٦).

اجل «قياما للناس ومثابة للناس وهدى للعالمين» لا فقط الذين يأتونه ، مهما كانوا هم الركن الركين لتلك المنافع ، و «لهم» يعمهم كلهم

---

(١) المصدر في عيون الاخبار باب ما كتب به الرضا (عليه السلام) الى محمد بن سنان في جواب مسائله في العلل : ...

وفي باب العلل التي ذكر الفضل بن شاذان في آخرها انه سمعها من الرضا مرة بعد مرة وشيئا بعد شيء : فان قال : فلم امر بالحج؟ قيل : لعلة الرفادة إلى الله تعالى وطلب الزيادة ... وزاد بعد قوله : في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيها : مع ما فيه من التفقه ونقل اخبار الأئمة (عليهم السلام) الى كل صقع وناحية كما قال الله عز وجل ﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ.﴾ أقول وقد نقلنا في المتن بعض المواضيع مما في العيون.

ممن شهد مواقفه ومن لم يشهد ، ممن يحج ومن لا يحج ، فان في ذلك المؤتمر الاسلامي السامي إذا طبّق بشروطها ، منافع للمسلمين بل وللعالمين ككل.

ذلك و «ليتعارفوا .. ولو كان كل قوم انما يتكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد وسقط الجلب والأرباح وعميت الاخبار ولم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج» [١].

ومن ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ في مدرسة الحجج اسرار المناسك [٢] التي تتضمن صناعة الإنسان وصياغته بقمة الانسانية السامية كما أرادها الله تعالى من هذه الفريضة التدريبية ، الجامعة لكافة الفرائض والنوافل الفردية والجماعية ، دنيوية واخروية.

فمهما كانت البلوى بالحج عظيمة ، فالمنافع الناتجة عنها أعظم ، وكل أبعاد هذه الفريضة منقطعة النظير في شرعة البشير النذير ، مما يطرح

---

(١) البحار ٩٦ : ٣٣ . ٩ بسند متصل عن هشام بن الحكم قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) فقلت له : ما العلة التي من أجلها كلف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟ فقال : ان الله عز وجل خلق الخلق لا لعلة الا انه شاء ففعل ، فخلقهم الى وقت مؤجل وأمرهم ونهاهم ما يكون من امر الطاعة في الدين ومصلحتهم من امر دنياهم فجعل فيه الاجتماع من المشرق والمغرب ليتعارفوا ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد ، ولينتفع بذلك المكاري والجمال ولتعرف آثار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعرف اخباره ويذكر ولا ينسى ولو كان كل قوم انما يتّكلون على بلادهم وما فيها هلكوا وخربت البلاد وسقط الجلب والأرباح وعميت الاخبار ولم يقفوا على ذلك فذلك علة الحج.

(٢) قد أفردنا لها كتابنا . اسرار . مناسك وادلة الحج . باللغة الفارسية ، الفناه خلال السنتين اللتين كنا بمكة المكرمة ضمن سني الهجرة السبعة عشر من شر الطاغية الشاه.

السؤال الكثير ، واجابة عن بلواها في مكانها نقتطف حكما ناصعة عن الخطبة القاصعة عن الإمام علي امير المؤمنين (عليه السلام): .

«وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل ، ألا ترون ان الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما ، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا ، واقل نتائق [١] الدنيا مدرا ، وأضيق بطون الاودية قطرا ، بين جبال خشنة ورمال دمثة [٢] وعيون وشلة [٣] وقرى منقطعة ، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف ، ثم امر سبحانه آدم وولده ان يثنوا أعطافهم نحوه ، فصار مثابة لمنتجع [٤] أسفارهم ، وغاية لملقى رحالهم ، تهوي اليه ثمار الافئدة من مفاوز قفار سحيقة ، ومهاوي فجاج عميقة ، وجزائر بحار منقطعة ، حتى يهزوا مناكبهم ذللا لله حوله ، ويرملون [٥] على اقدامهم شعثا غبرا ، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم ، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم ، ابتلاء عظيما وامتحانا شديدا واختبارا مبينا وتمحيصا بليغا ، جعله الله تعالى سببا لرحمته ، ووصله إلى جنته .

ولو أراد الله سبحانه ان يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وانهار ، وسهل وقرار ، جم الأشجار ، داني الثمار ، ملتف البنى ، متصل القرى ، بين برة سمراء وروضة خضراء ، وأرياف محدقة ، وعراص

---

(١) جمع نتيقة وهي البقاع المرتفعة

(٢) هي اللينة التي يصعب عليها السير.

(٣) قليلة الماء.

(٤) محل الفائدة.

(٥) الرمل ضرب من السير فوق المشي ودون الجري وهو الهرولة.

معذقة ، وزروع ناضرة ، وطرق عامرة ، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف لبلاء .

ولو كان الأساس المحمول عليها ، والأحجار المرفوع بها ، بين زمردة خضراء ، وياقوتة حمراء ، ونور وضياء ، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور ، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب ، ولنفي معتلج [١] الريب من الناس ، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ، ويتعبدهم بألوان المجاهد ، ويبتليهم بضروب المكاره ، إخراجا للتكبر من قلوبهم ، وإسكانا للتذلل في نفوسهم ، وليجعل ذلك أبوابا فتحا إلى فضله ، وأسبابا ذللا لعفوه» [٢].

ف ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ هي كل المنافع الروحية والزمنية في كافة الحيويات الاسلامية السامية ، فالحج مؤتسم ومؤتمر ، موسم عبادة شعائرية جاهرة ، ومؤتمر عبادة سياسية ، فريضة تلتقي فيها الدنيا والآخرة ، مسرح تشاور وتعاون بين الكتل المؤمنة في كافة المسائل العويصة الإسلامية.

مجالة عالية غالية لتذوب فيها الفوارق من مختلف الجنسيات والعنصريات والقوميات والطائفيات ولا تبقى في صعيدها إلا اخوة اسلامية خالصة تتبناها كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، بوحدة الأرواح وتقارب الأشباح حيث يصبحون الأشباه حول كلمة ﴿لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾.

عبادة تصفو فيها الأرواح مشروحة لكافة الذكريات الصالحة في ذلك المشهد الحافل ، حيث ترف كالأطياف حول البيت العتيق طائفين حول مركز واحد ، يحوّلهم عن مختلف التطوافات حول سائر المطافات.

---

(١) الاعتلاج هو الالتطام.

(٢) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي ٢ : ١٧٠ ـ ١٧٣ محمد عبده.

هنا يجد المسلمون رايتهم المظلّة عليهم ككلّ حيث تتوارى الرايات ومختلف السلطات ، وتتوارى في الراية الإسلامية الموحّدة كافة الفوارق.

هنا مملكة الحج ، في بيت عتيق طليق عن كل ملكة ، لا يقودها إلّا الله ، ولا يرأسها من قبل الله إلّا رسول الله ، ولا يحكمها إلا كتاب الله ، حيث تتوحد القيادة الروحية والزمنية في هذه الرسالة السامية ، دون سماح لأية سلطة ، إلا لمن يطبق هذه الرسالة الموحدة بين جماهير المسلمين.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ ...﴾.

وترى ما هي ﴿أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ نحن نجهلها؟ أهي أشهر الحج كلها حيث ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ﴾ (٢ : ١٩٧) فمن أهلّ فيهن بالحج فليذكر اسم الله حتى تتم مناسكها ، ذكرا خاصا لله ليس معه ذكر لسواه ، فانه قضية تلبية الإحرام «لبيك اللهم لبيك» لك لبيك لا لسواك ، فانما أذكرك لا سواك؟

و ﴿عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ قد تعممه إلى كل الأيام! ثم ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قد تخصصه بأيام الذبح ، وان ذكر اسم الله هو على الذبائح عند ذبحها كشرط من شروط التذكية!

ولكن ذكر اسم الله على الذبائح يعم كل ذبح في اي زمان او مكان دون ايام معلومات للذبح في منى!

وذلك الشرط مذكور في آيته التالية ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ﴾ وذلك في يوم الأضحى كيوم معلوم ، دون ايام معلومات ، ثم الأضحى إلى آخر ذي الحجة حيث يجوز فيها تقديم الاضحية ، ذلك مخصوص

بالأعذار وهي مقدرة بأقدارها ، فليست هذه العشرين هي الأيام المعلومات.

واما تعميم ﴿عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ فلا شاهد له هنا الا عليه ، حيث الذكر هنا ذكر خاص كما ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ ف ﴿عَلى ما رَزَقَهُمْ﴾ يقتضي في ذلك المسرح الحاشر ذكرا خاصا لله على رؤوس الاشهاد.

ف ﴿أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ علها هي ايام الحج والعمرة كلها ، ثم ايام الحج ثم عشرة ذي الحجة [١] ايام التشريق الاربعة وكلها ايام معلومات ، فلم يقل «الأيام المعلومات» لكي لا تختص ببعض دون اخرى ، بل في كل هذه الأيام بدرجاتها ، بذكر التلبيات والصلاة والتسمية عند الذبح وعند الرمي ، ذكر القال والحال والأفعال ،

وليصبح الحاج في أيامه ذكرا بكل كيانه ، بعد ان لبى دعوة ربه ، وترك اهله وماله وشغله وكافة ما كان يشغله عن ذكر ربه ، والآية تتحملها كلها حيث المسرح كله مسرح ذكر الله كما هو مسرح ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾

ومن ﴿أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ هي ﴿أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ﴾[٢] ايام التشريق

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٠ في كتاب معاني الاخبار بسند متصل عن حماد بن عيسى في الصحيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سمعته يقول قال علي (عليه السلام) في قول الله عز وجل ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ قال : ايام العشر ومثله في التهذيب عن حماد عنه قال أبي (عليه السلام) ... وايام معدودات قال : ايام التشريق وفي الخلاف والأيام المعلومات عشرة ايام من ذي الحجة آخرها غروب الشمس من يوم النحر ذهب اليه علماءنا اجمع.

(٢) المصدر عن معاني الاخبار عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هي ايام التشريق ، وفيه عن زيد الشحام عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : المعلومات والمعدودات واحدة وهن ايام التشريق.

وفي الدر المنثور ٤ : ٣٥٦ ـ اخرج ابن المنذر عن علي (عليه السلام) قال : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة ايام بعده.

﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى ..﴾ (٢ : ٢٠٣) وكشاهد آخر لها ان يوم الذبح هو يوم الأضحى ثم من بعده قضاء التفث كما في الآية التالية ، وهذه الأيام كانت معلومة لدى الكل شاخصة بين كل ايام الحج والعمرة دون تقدم عن مواضعها او تأخر خلاف سائر ايام الحج حيث تتقدم او تتأخر اللهم الا يوم عرفة والمشعر الحرام فعلّه من تلك الأيام المعلومات ، والمجموعة هي الخمسة من التاسع إلى الثالث عشر ، والقدر المعلوم من ﴿أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ هي اربعة التشريق فانها ايام الذبح المقررة له في الحالات العادية غير الاستثنائية وقد يتلمح من ﴿وَيَذْكُرُوا ... عَلى ما رَزَقَهُمْ﴾ وهو التسمية على الذبائح ، ولكنه لا يختص ذكر اسم الله بها ، فان «على» كما تعني ذلك ، كذلك تعني على انه تعالى رزقهم ، وذلك مهما كان عاما يحلّق على كل حياة التكليف ، ولكن لذكر الله في ذلك المسرح الحاشر موقعه الخاص ، سواء على الأضاحي ام على أية حال في ايام الحج.

ذلك وكما منها يوم عرفة والمشعر الحرام ﴿فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ﴾ (٣ : ١٩٨)

ذلك وكما منها يوم عرفة والمشعر الحرام ﴿فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ﴾ (٢ : ١٩٨) فقد يضاف إلى ايام التشريق ، كما تضاف بقية العشرة وسواها إليها.

بل ومنها بعد ما قضيت المناسك : ﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ (٢ : ٢٠٠) فضلا عن ايام الحج بعمومها وخصوصها ، فانها ايام ذكر الله ، كلما كانت الشعائر أهم فالذكر أتم ، فهي . إذا . كلها ايام معلومات مهما اختلفت الدرجات حسب الدرجات.

ومختلف الحديث عن ايام معلومات ومعدودات مما يبرهن على انها كلها

معنية وانما الاختلاف في الدرجات

وترى ﴿بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ خاصة بالبدن كما في الآية التالية : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾؟ وهي من أبرز مصاديق الأنعام العائشة في البلد الحرام فلا تخص بها الأنعام!

ام هي فقط الانعام الثلاثة : الإبل والبقر والغنم؟ وقد عممت أحيانا إلى ما يصطاد ، ولا يصطاد شيء من هذه الثلاث وانما الظبي وحمار الوحش واضرابهما من ذوات القوائم الأربع فقد ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ فليكن الصيد من الانعام حتى يصح الاستثناء!

ولكنه صيد . مهما كان من الانعام . ولا يحل الصيد في المنسك ونحن حرم ، بل وفي غير حالة الإحرام أيضا ، إذا فالأنعام هنا هي الثلاثة لا سواها.

﴿.. فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

من هذه والتي تليها : ﴿فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ نتأكد ان التقسيم ثنائي وليس ثلاثيا خلاف ما يقوله جمهور الفقهاء ، وان لحوم الاضاحي هي في الأصل للفقراء لا للإحراق والدفن وسائر الهدر والغدر كما هو المتعود بين الحجاج ، والقول الفصل فيها عند الآية الاخرى.

ثم ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ هنا وهناك كأنه امر أدبي رخصة لا عزيمة فانه عقيب حظر مظنون حيث كان المشركون لا يأكلون من ذبائح نسائكم [1] فانزل

---

(١) آيات الأحكام للجصاص ص ٣ : ٢٩٠ روى يونس بن بكير عن أبي بكر الهذلي .

الله : ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل ، والاكل أفضل كما فعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هدما لسنة جاهلية ومشاركة مع البائس الفقير ، فيها تسوية بينهم وبينهم كيلا يظنوا انها خاصة بهم . فقط . لفقرهم ، بل هي هدية إلهية يشارك فيها المفدي ، وقد نحر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخذ من كل جزور بضعة فجعلت في قدر فأكل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليّ من اللحم وحسوا من المرق [١].

وقد يكون الاكل منها . كما الإطعام واجبا . ادبيا فان تركه ترفّع على الفقراء كما كان عند اهل الجاهلية ، فليس الأمر . فقط . تجويزا لسابق الخطر ومظنته ، بل وإيجابا لكسر هذه السنة ، ففي تركه إبقاء لهذه السنة ومسايرة عملية مع أهلها.

ذلك واما اطعام البائس الفقير فهو الواجب الركني الأصيل في ذلك الهدي ، فأمره للإيجاب دونما ارتياب ، وليس الأمر الأوّل إلا هامشيا

. عن الحسن قال : كان الناس في الجاهلية إذا ذبحوا لطخوا بالدم وجه الكعبة وشرحوا اللحم ووضعوه على الحجارة وقالوا : لا يحل لنا ان نأكل شيئا جعلناه لله حتى تأكله السباع والطير فلما جاء الإسلام جاء الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا : شيئا كنا نصنعه في الجاهلية ألا نصنعه الآن فانما هو لله فانزل الله تعالى ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا﴾ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). لا تفعلوا فان ذلك ليس لله.

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٦ ، اخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال نحر رسول الله (ص) ومثله في التهذيب ٥ : ٢٢٣ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا ذبحت أو نحرت فكل واطعم كما قال الله تعالى ... وفيه ايضا الصحيح عن الباقرين عليهما السلام انهما قالا إن رسول الله (ص) امر أن يؤخذ من كل بدنة بضعة فأمر بها رسول الله (ص) فطبخت فأكل هو وعلي وحسوا المرق.

تعبيدا لطريق ذلك الإطعام ادبيا فائقا. والبائس الفقير ، هو أفقر من الفقير وأبأس من البائس فقد يكون «هو الزمن الذي لا يستطيع ان يخرج لزمانته» [١] وكما الفقير هو المكسور الفقار من شده المسكنة ، فذلك كسر في المال وكسر في الحال ، فانه اجهد من المسكين والفقير [٢].

فهذه اللحوم مما رزقهم الله وهي من ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ وقد جعلناها نحن رزقا للديدان والمحرقات والجرافات ، وبديل ان يكون ذلك الرزق من ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ أصبح عمليا من أضر المضار ماليا وادبيا وسياسيا حيث يضحك علينا العالمون كيف نبذر ذلك التبذير الرذيل وأمامنا في العالم الإسلامي فقراء لا يشمون ريح اللحم وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : انما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فأطعموهم منها» وسيأتيكم التفصيل بكل بيان فيه تحصيل عند تفسير الآية الثانية ان شاء الله تعالى.

واطلاق الذبح هنا وان كان يعم كل الحجيج حتى المفرد ، ولكنه مخصوص بحج التمتع ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ... ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ (٢ : ١٩٦) ثم

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩١ عن تفسير القمي عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله (ع) قال هو ...

(٢) المصدر عن الكافي بسند متصل عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله (ع) قول الله عز وجل : انما الصدقات للفقراء والمساكين؟ قال الفقير الذي لا يسأل الناس والمسكين أجهد منه والبائس أجهدهم.

أقول : تقديم الفقراء على المساكين عند الجمع ، وتخصيص الفقير بالذكر عند الإفراد كما هنا يساعدان المعنى اللغوي الذي ذكرناه.

القران واسمه معه ، دون الإفراد حيث اسمه معه ، إفرادا عن الهدي أو قرانا بالهدي ، فلا يجب الذبح في الإفراد ، ولا يجوز الاكل من غير الهدي ، كالذبيح للجريمة حالة الإحرام ، حيث النص خاص بالهدي الواجب على أية حال ، لا والواجب عند الجريمة حالة الإحرام ، فانه خاص بالفقراء دونما استثناء ، ذلك فرض ثان في منى بعد الرمي وبعدهما الحلق والتقصير :

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(٢٩).

القضاء متعديا بنفسه كما هنا هو الإتمام بالنسبة لأمر ابتدأه ، والتفث علّها مأخوذة من اصل عبراني وهو «تافس» (؟؟؟) او «تافش» (؟؟؟) وكلاهما بمعنى امسك وقبض ، فقضاء التفث هو إتمام القبض والإمساك الذي ابتدئ فيه بالإحرام قبل عرفة ، وقضاء التفث هنا بعد الذبح هو بالحلق والتقصير فيحلّ عن الإحرام [١] إلّا عن الطيب والنساء حيث يحللهما طواف الزيارة والنساء ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ إشارة إلى الطوافين ، تكملة لذلك التفث فيحل عن كل محرمات الإحرام مهما بقي عليه بيتوتة مني ليلتين أو ثلاث ورمي الجمار في أنهارها.

وما أجمله تعبيرا منقطع النظير عن الإحلال عن الإحرام «التفث» كما التعبير عن بداية الإحرام «الرفث» : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ ..﴾ (٢ : ١٩٧).

وقد تعني قضاء التفث ضمن ما عنت «تعليم الأظفار وطرح الوسخ

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٧ ـ اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : يعني بالتفث وضع إحرامهم من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار ونحو ذلك.

وطرح الإحرام» [١].

وعلّ كل ما ذكر في الأحاديث من تفسير للتفث اعتبارا بأنها من لوازم إتمام الإحرام وإنهائه ومن ذلك «هو ما يكون من الرجل في إحرامه» [٢].

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٢ ـ احمد بن محمد بن أبي نصر قال قلت لأبي الحسن (عليه السلام) إنا حين نفرنا من منى أقمنا أياما ثم حلقت رأسي طلب التلذذ فدخلني من ذلك شيء فقال : كان ابو الحسن صلوات الله عليه إذا خرج من مكة نأتي بثيابه حلق رأسه وقال في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال : التفث ... وفيه في صحيحته البزنطي عن الرضا (عليه السلام) قال : التفث تقليم الأظفار وطرح الوسخ وطرح الإحرام عنه ، وفي قرب الاسناد للحميري احمد بن محمد عن احمد بن محمد بن أبي نصر قال سألت الرضا (عليه السلام) عن الآية قال : تقليم الأظفار وطرح الوسخ عنك والخروج من الإحرام ، واقتصار أبي جعفر (عليه السلام) في صحيحه محمد بن مسلم عنه بقص الشارب والأظفار تفسير ببعض لوازم الخروج عن الإحرام.

وفيه عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هو الحلق وما في جلد الإنسان ، وعن ذريح المحاربي في الصحيح قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) ان الله امرني في كتابه بأمر فأحب ان أعمله قال : وما ذاك قلت : قول الله تعالى : ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم قال : ليقضوا تفثهم لقاء الامام وليوفوا نذورهم تلك المناسك ، قال عبد الله بن سنان فأتيت أبا عبد الله (عليه السلام) فقلت جعلت فداك قول الله تعالى : ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، قال : أخذ الشارب وقصّ الأظفار وما أشبه ذلك ، قال قلت جعلت فداك ان ذريح المحاربي حدثني عنك بأنك قلت : ثم ليقضوا تفثهم «لقاء الإمام» وليوفوا نذورهم «تلك المناسك»؟ فقال : صدق وصدقت ان للقرآن ظاهرا وباطنا ومن يحتمل ما يتحمل ذريح.

(٢) المصدر حميد بن زياد عن ابن سماعة عن غير واحد عن ابان عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية هو ما يكون من الرجل في إحرامه فإذا دخل مكة فتكلم بكلام طيب كان ذلك كفارة لذلك الذي كان منه.

وعلى الجملة فقضاء التفث هو قضاء الإحرام بالخروج عنه تاما وافيا ، ولزامه بعد ما قضى إلى الذبح ، الحلق او التقصير ، والخروج عن تقصير كان له في إحرامه بفدية وسواها ، ثم طوافي البيت زيارة ونساء ، ثم ومن أكمله تتميم مناسك منى من بيتوتتها ورمياتها.

ولان قضاء التفث ثنّي بطواف البيت ، إذا فهو الإحلال الاول الا عن الطيب حيث يحل بطواف الزيارة ، والنساء حيث يحل بطواف النساء ، وانما عبّر عن الإحلال الاول بقضاء التفث لأنه أهمه ، ام ان قضاء التفث يعم الآخرين ، وذكر الطواف ـ إذا ـ من باب ذكر الخاص بعد العام.

وقد يعرف واجب الترتيب بين هذه المذكورات من ترتيبها في هذه الآيات ، ذبحا ثم حلقا او تقصيرا ثم طوافا ، اللهم إلا للمعذور عن تقديم الذبح كمن نبحث عنهم بعد.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾.

وترى ما هي النذور التي يؤمر الحاج بإيفائها بين هذه المناسك وقبل ان «يطوفوا ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؟ وهي الوحيدة الآمرة بايفاء النذور بين آياتها الخمس الذاكرة له دون امر ، اللهم إلا تبجيلا لمن يوفي ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (٧٦ : ٧).

النذر ـ وهو إيجاب ما لم يجب على نفسك ـ قد ينشأ وافيا ، ثم ليوف تطبيقا ، وعلّ الإيفاء هنا يشملهما ، فما فرض الحاج على نفسه بتقصير في إحرام ، ام فرضه على نفسه دون تقصير وبدون تحديد لوقف الإيفاء ، فليوفه تطبيقا هنا وقد تخلص عن حصر الإحرام ، ولكي يتخلص عن سائر الحصر فيصبح طليقا من الأخفّاء حتى يطوف دون أثقال بالبيت العتيق ، وذلك آخر المطاف في تخلّصه عن حصر المحرمات الخاصة بالإحرام.

وما يعنيه من نذر لأمر يتقاضاه ، فلينذر هنا إيفاء له كما يصح ويحق ، وان ناسب وقت إيفاء التطبيق قبل الطواف فليوف.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

وذلك آخر طواف وآخر المطاف في أهم مناسك الحج ، وترى ماذا تعني ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ في تشديد التأكيد ، دون ﴿وَلْيَطُوفُوا﴾؟ بلا تشديد ، وهي الآية الوحيدة الآمرة بالطواف؟

قد تعني طوافا بعد طواف ، فلو كان الواجب هنا مرة واحدة لكان ﴿وَلْيَطُوفُوا﴾ بتخفيف ، فليكن اكثر من مرة حيث هذه الصيغة تتطلب المزيد على طواف وأقله مرة أخرى.

فلا هو ـ فقط ـ طواف الزيارة ، ولا هو ـ فقط ـ طواف النساء ، وعلّ الرواية القائلة انه طواف النساء ، تعني بيان الخفي من واجب الطواف المختلف فيه بين المسلمين ، دون خصوصه ، رغم ان الواجب الأصيل من الطواف هنا هو طواف الزيارة ، كما القائلة انه طواف الفريضة تعني بيان الجلي.

إذا فهو الطوافان : طواف الفريضة وطواف النساء [1] ومن المضحك المبكي تخصيص الآية بخصوص طواف النساء ، وطواف الزيارة وهي ركن

---

(١) التهذيب ٥ : ٢٥٢ الرقم ٨٥٤ والكافي ١ : ٣٠٥ باب طواف النساء قال ابو الحسن (عليه السلام) في الآية : طواف الفريضة طواف النساء ، أقول علّ العاطف سقط عن قلم الناسخ ، ام ترك اشارة إلى اندغام الطوافين مع بعض استدلالا بتأكيد الصيغة في الآية ولكنه في المرآة ٣ : ٣٤٦ والفقيه ٢ : ٢٩١ هو طواف النساء ، والنقل الاول أصح ، وليئول الثاني بما ذكرناه في المتن ، وفي نور الثقلين ٣ : ٤٩٣ عن الصادق (عليه السلام) قال هو طواف النساء. .

لا يعني منها [١] والآية هي الوحيدة في القرآن! فالأحاديث الثلاثة ، انه طواف الفريضة او النساء او الطوافان مرجوعة إلى كتاب الله ، فهو الطوافان دون ريب لمكان ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾.

ولأن ظاهر الأمر هو فور العمل به فليكن طواف الزيارة يوم النحر بعد قضاء التفث ، اللهم الا للمفرد [٢] حيث لا تشمله الآية لمكان الأضحية غير الواجبة عليه ، والصحيحان المتعارضان [٣] في القارن يرجعان إلى القرآن ، فعلى القارن كما على المتمتع طواف الزيارة والنساء يوم النحر إلا لعذر ، والصحيحان المجوزان للتأخير [٤] محمولان على موارد العذر ،

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٣ في قرب الاسناد عن الرضا (عليه السلام) في حديث ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ طواف الفريضة ، أقول هو طواف الزيارة وعله (عليه السلام) اكتفى به هنا لأنه الأصل ، وكما اختص طواف النساء بالذكر في حديث سالف في بعض النقل انه طواف النساء إلحاقا به ، والأوضح هو حديث الطوافين.

(٢) في الكافي ٤ : ٥١١ والتهذيب ١ : ٥١٨ والاستبصار ٢ : ٢٩٤ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) في زيارة البيت يوم النحر قال : زره فان اشتغلت فلا تضرك ان تزور البيت من الغد ولا تؤخر ان تزور من يومك فانه يكره للمتمتع ان يؤخر وموسع للمفرد ان يؤخره.

(٣) وهما صحيحة هشام عن أبي عبد الله (عليه السلام) لا بأس ان أخرت زيارة البيت الى ان يذهب ايام التشريق الا انك لا تقرب النساء ولا الطيب ، ومثلها صحيحة الحلبي سأل الصادق (عليه السلام) عن رجل أخر الزيارة إلى يوم النفر قال لا بأس (السرائر ٤٤٤) أقول وهي مقيدة بالمفرد ، او محمولة في غيره بالمعذور.

(٤) قد مضت الاولى في رقم (١) والثانية في التهذيب ١ : ٥١٧ والاستبصار ٢ : ٢٩٢ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) سألته عن المتمتع متى يزور البيت؟ قال : يوم النحر او من الغد ولا يؤخر والمفرد والقارن ليسا بسواء موسع عليهما ، وفي خبر عمر بن يزيد ثم احلق رأسك واغتسل وقلم أظفارك وخذ من شاربك وزر البيت فطف به أسبوعا وفي صحيح معاوية عن الصادق (عليه السلام) في حديث قال : فإذا أتيت البيت يوم النحر فقمت على باب المسجد قلت ...

حيث المحور هو الآية الظاهرة في وجوب الاستعجال ، ونتيجة قياس الروايات عليها بقاء الوجوب الظاهر الا لعذر ام في المفرد.

وقد يوهن الوجوب ب «ثم» هنا ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهي للتراخي ، فالواجب بعد الذبح وفاء النذر وطواف البيت في وقت متراخ ، خرج الحلق او التقصير بدليل وبقي الباقي ومنه الطواف.

ذلك ، اضافة إلى ان ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ وآخرها ذو الحجة إلى آخرها ، ولان البيتوتة في منى هي ـ فقط ـ في ايام التشريق ، وليس بعدها إلا الطوافان فليسمح فيهما إلى آخر الشهر الأخير من المعلومات ، فلا يبقى في البين الا رجاحة تقديم الطواف ، وهو الأحوط مطلقا إلا لعذر عاذر.

ولان الآية ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ مطلقة في مسرح الطواف ، فطليقة ما صدق انه طواف ، فقد يصح الطواف حوله من ايّ المسجد الحرام ، مهما توسع المسجد ما صدق أنه المسجد الحرام ، فالمقام داخل في حد الطواف ، كما ان المسجد الحرام بمسارحه الثلاثة ، ارضية وتحت الارضية وفوق الارضية ، كله مطاف ، مهما كان الأقرب إلى البيت فالأقرب أفضل كما الصلاة ، وقد سئل الصادق (عليه السلام) في الصحيح عن الطواف خلف المقام فقال : ما أحب ذلك وما ارى به بأسا فلا تفعله إلا ان لا تجد منه بدا» [١].

ولا تعارضها الرواية اليتيمة القائلة أن حدّه ما بين المقام والبيت [٢]

---

(١) الفقيه كتاب الحج ب ٧٢ ح ١.

(٢) في الكافي ٤ : ٤١٣ والتهذيب ١ : ٤٧٧ مضمرة حريز عن ابن مسلم قال سألته عن حد الطواف بالبيت الذي من خرج عنه لم يكن طائفا بالبيت؟ قال : كان الناس .

لضعفها في سندها وفي متنها لنفسها قضية تعارض أجزائها ، وتعارضها ككلّ اطلاق الآية ونصّ الصحيحة.

. على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يطوفون بالبيت والمقام وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام وبين البيت فكان الحد موضع المقام اليوم فمن جازه فليس بطائف والحد قبل اليوم واليوم واحد قدر ما بين المقام وبين البيت من نواحي البيت كلها فمن طاف متباعدا من نواحيه ابعد من مقدار ذلك كان طائفا بغير البيت بمنزلة من طاف بالمسجد لأنه طاف في غير حد ولا طواف له».

أقول : بعد مخالفتها لإطلاق الآية وصريح الصحيحة هي مضمرة غير منسوبة صريحا إلى المعصوم وهذا كسر في الرواية ، ثم ان بدايتها خلاف نص القرآن بالنسبة للطواف ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى﴾ فلو كان المقام زمن الرسول قبل موقفه الآن . وكما في بعض الأحاديث . ملتزما بالبيت وعمر هو الذي نقله إلى موقفه الآن لكانت صلاة الطواف قرب البيت حيث موضع المقام زمن نزول الآية ، وهذا خلاف الضرورة الاسلامية بالاطباق.

ثم الطواف بالبيت والمقام زمن الرسول والطواف بينهما اليوم ليس لزامهما أنهما سيان ، حيث الأول غير محدود بحد والثاني محدود ، اللهم الا بتلزيق الجملة التالية «والحد قبل اليوم واليوم واحد» فالجملة السالفة اجنبية عن اثبات الوحدة بين الحدين.

ثم القول «فمن طاف متباعدا من نواحيه ابعد من مقدار ذلك كان طائفا بغير البيت» هذا خلاف الواقع الملموس ، فانه طائف بالبيت ولو دل الدليل على بطلانه ، كمن يصلي إلى القبلة بصلاة باطلة ، فهو قطعا مصل إليها مهما كانت باطلة والتعبير الصحيح هنا من طاف هكذا كان طوافه باطلا ، لا انه لم يكن طائفا بالبيت كمن طاف بالمسجد.

ثم المحكوم بالبطلان في هذه الرواية هو الطواف الذي كان متباعدا من نواحيه ، فلا تحكم بالبطلان إذا تباعد من بعض نواحيه ، ومحور الابطال هنا ان يطوف بكلا المقام والبيت من كل نواحيه فان طاف بينهما في موضع المقام ثم طاف ابعد من هذا المقدار في سائر الطواف فلا تبطله هذه الرواية حيث يصدق انه لم يطف بالبيت. متباعدا من نواحيه ابعد من ذلك.

ومن ثم كيف يصح فقهيا بيان مثل هذا الحكم المبتلى به دائما بمثل هذه اليتيمة : .

ثم الحجر مطاف كما البيت فهو بيت في مسرح الطواف ، فليكن الفصل المحدد بين المقام والبيت في هذه اليتيمة ، هو الفصل بين جدار الحجر دون البيت.

ثم الممنوع فيها هو الطواف متباعدا من نواحيه أبعد من ذلك ، إذا فالابتعاد في بعض النواحي كناحية الحجر ولا سيما رأس الزاوية ، غير ممنوع في نصها.

وبعد كل ذلك ليس الطواف خاصا بزمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمون الحجاج قلة ، حتى يصح ذلك التحديد . ان صح دليله . بل هو عام يحلّق على الطول التاريخي والعرض الجغرافي الاسلامي ، ففيما يحج مئات الآلاف والملايين من المسلمين كيف يمكن الطواف المحدد بذلك الحد ، ولا سيما في قياس هؤلاء الذين يفتون باحتساب ساحة الحجر في هندسة حدّ الطواف ، إذا فلا يبقى في رأس الزاوية إلّا زهاء ثلاثة امتار ونصف يجب ان يجتازها دون تجاوز مئات الآلاف من الطائفين! وما كان ليجتازها القلة القليلة في البداية ، ولا سيما الركاب ، ولقد طاف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحيانا بالبعير ، فهل كان يهندس هذه الهندسة الضيقة المضايقة في رأس الزاوية؟!

إذا فلا اشكال في الطواف في ايّ المسجد الحرام ، مهما كان مكروها في موضع المقام ان يدخله في الطواف إلا عند الحرج او المشقة.

. المشوشة ، المخالفة للآية والصحيحة الصريحة ، غير القابلة للتطبيق حين كان المسلمون قلة فضلا عن هذه الكثرة الكثيرة؟

ثم الحجر في المطاف محسوب من البيت فلما ذا التضييق عنده بانحسابه من المطاف فلا تبقى في رأس زاويته الا زهاء ثلاثة امتار!.

ثم ﴿لْيَطَّوَّفُوا﴾ قضيته ان يطوف الطائف باختيار منه ، فان طيف به دون اختيار منه ام هو نائم لم يكن من الطائفين ، وان طيف به باختيار منه ورضى ، ام طلب منه فهو من الطائفين ، ومجرد الطواف باختيار ونية من الطائف ما صدق انه طاف يكفي أداء لذلك الركن الركين.

ولان طبيعة الحال في المطاف اصطكاك الطائفين بعضهم ببعض ، وتدافعهم في ذلك السباق ، وان الطائف يحمل أحيانا بطوف من سيل الطائفين ، شاء ام ابى ، ويحوّل أخرى إلى غير أمامه شاء ام ابى ، علما منه في ذلك المسيل الجارف غير المجازف والدوارة الهائلة ، علما انه قد يطاف به او يحوّل!

لذلك كله لا يضره في كونه طائفا باختيار هذه الحالات التي هي من لزامات الطواف ، ولا نص من غير آية الطواف يشترط عدم التحول عن الأمام حالة الطواف ، وما مثل من يحمل ماشيا بحمل الطواف ، إلا كمثل من يركب في الطواف ، فلا ضير ـ إذا ـ في تلك العوارض التي هي لزام الطواف في ذلك السيل الجارف الدائر مدار البيت العتيق ، كدوارة سيالة في ذلك المدار.

فمن يوغل نفسه في مجرف السيل باختيار ، ثم يجرفه السيل اي مجرف دونما اختيار ، فقد ينحسب كل انحراف له بمبدإ الإختيار ، حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار ، وحكمه ـ أيا كان ـ حكم الاختيار.

ثم طبيعة الحال العادية غير المصطنعة في الطواف حول البيت ، انحراف اليسار عند الحجر عن جدار البيت لحد المواجهة للبيت نفسه ، وهذا ـ قطعا ـ لا يضر بواجب الطواف ، فلا يجب بل لا يجوز تحويل اليسار إلى البيت عند الحجر ، إما لان الحجر محسوب في الطواف بحساب البيت فجداره جداره كما ساحته ساحته ، ام لان المأمور به هو الطواف عاديا دونما

اصطناع حول البيت ، ولا سيما في ذلك المجرف الدائري ، الجراف القوي القوي ، الذي لا يسمح بذلك الطواف باختيار ، فضلا عن الهندسة المصطنعة للمحتاطين ، تحويلا لليسار إلى جدار البيت في زاوية الحجر ، فانها حالة مضحكة مبكية ، شاقة محرجة وأحيانا غير ممكنة للطائف.

لا نص هنا ولا اشارة لان يجعل جدار البيت في زاوية الحجر على اليسار ، فاصل جعل البيت على اليسار ايضا لا دليل له لفظيا إلا عمل المعصومين ، وحتى لو كان هنا لك نص على وجوب هذه الهندسة الملتوية ، لكان ساقطا عند الضرورة التي يعيشها الطائفون في الحج ، كيف ولا نص هنا او هناك إلا ﴿لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وكانوا يطوفون على اليسار.

ولان المسألة هي من أهم ما تعم به البلوى ، فلو كانت تلك الهندسة المحرجة شرطا في الطواف لكانت النصوص عليها متواترة ، وليس هنا لك نص ولا إشارة!.

﴿.. بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

مواصفة البيت بالعتيق لم تأت الا هنا و ﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٢٢ : ٣٣)

وعلّ العتيق هو القديم زمانا ومكانا ، وهو الطليق عن أسر الملكة والسلطة الخاصة لغير الله ، فلم يملك ولن يملك لأيّ كان وايّان ، وقد يجمعهما : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ (٣ : ٩٦) فهو اوّل زمانا ومكانا وقد مكّت الأرض من تحته وبكّت منذ حرّكت ، وهو للناس كل الناس دون اختصاص ودون أية ملكة فانه بيت الله ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾[1].

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٤ في الكافي بسند متصل عن أبي حمزة الثمالي قال قلت لأبي .

ومن ثم فهو عتيق طليق عن التهديم كما انعتق عن اصحاب الفيل ، ومن قبل عتق من الغرق [١]. و «لان الله اعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط» [٢] وهم الملحدون والمشركون الداعون إلى غير الله ، مهما سيطر عليه ـ دون ملكة ـ جبابرة من المسلمين ، ام تهدم ثلاث مرات في التاريخ الإسلامي!

والطواف بالبيت العتيق هو أركن أركان الحج ، بل هو هو الحج فانه قصد البيت لزيارته ، وقد سميت سائر شعائره حجا بضمنه وضمانته ، فما إحرام العمرة بواجباته ومحرماته الا مقدمة تحضيرية للطواف ، وما السعي بعده الا تلحيقا له وتعقيبا ، ثم الإحرام للحج والوقوفان وبيتوتة مني بواجباتها ، هي كذلك تحضيرات للطواف الثاني وهي طواف الحج : الزيارة ، ثم السعي له تعقيب ثان.

. جعفر (عليه السلام) في المسجد الحرام لأيّ شيء سمى الله العتيق؟ فقال : انه ليس من وضعه الله على وجه الأرض الا له رب وسكان يسكنونه غير هذا البيت فانه لا رب له الا الله وهو الحر ثم قال : ان الله تعالى خلقه قبل الأرض ثم خلق الأرض من بعده فدحاها من تحته. وفيه عنه (عليه السلام) هو بيت حرّ عتيق من الناس لم يملكه احد.

(١) المصدر عن أبي عبد الله (عليه السلام) انما سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق عتق الحرم معه كف عنه الماء وفي البحار ١١ : ٣٢٥ ص بسند متصل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الله تعالى أغرق الأرض كلها يوم نوح (عليه السلام) الا البيت فمن يومئذ سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق فقلت له : صعد إلى السماء؟ فقال : لم يصل الماء اليه وانما رفع عنه (قصص الأنبياء مخطوط).

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٥٧ . اخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عبد الله بن الزبير قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انما سمى الله البيت العتيق لان الله ...

مناسك الحج كلها تحوي أسرارا ، فطواف البيت هو محور الأسرار ، حيث تحللت الآن عن كل طواف حول كلّ مطاف ، فتطوف الآن حول البيت العتيق.

لقد كنت قبل طائفا حول نفسك ونفسياتك ، ام أنفس الآخرين ونفسياتهم ، ثم لبيّت دعوة ربك لحج بيته العتيق ، لبيك لله ولا لبيك لسواه ، فأنت الآن وبعد إحرامك تطوف حول البيت العتيق ، بعد ما كنت طائفا طوف الرقيق حول الرقيق ، فالآن أنت منعتق عن التطواف حول ما سوى الله ومن سوى الله ، حيث بيت الله في كونه مطافا يمثل التطواف حول محور الحق لا سواه ، الله لا سواه ، كما الطواف محصور في بيت الله لا سواه.

أنت في حياتك كلها طائف حول مطاف ، حركة دائرية دائبة حول مركز من مراكز الحياة والحيوية كما تروم ، فتحوم حومه ، وتطوف حوله ، واصلا اليه ام غير واصل ، حاصلا على بغيتك ام غير حاصل.

فأنت طائف أينما كنت وحيثما كنت ، فأنت أنت بنفسك الطواف طائفا حول نفسك ونفسياتك ، حول إنّياتك ومراداتك ، حول أصنامك وطواغيتك ، حول شخصياتك ومصلحياتك في كل محاورك ، حركة دائبة دون أيّة وقفة ، وكلها هباء وإلى العراء ، والآن ـ بعد ما لبيّت ـ تبدّل محور الطواف عن كل المحاور سوى الله ، من غير الله الى الله ، من سائر البيوت وأصحابها إلى بيت الله وإلى الله.

وانه حركة دائرية لا توصلك إلى مركزها ، حيث الله لا يوصل إليه ، ولا نهاية لها قضية الدائرة ، لان معرفة الله وعبوديته لا نهاية لها ، وانما تجعل هنا ـ كأمثولة ـ كلّ حركاتك حول محور الحق ، فليس لله مكان ولا بيت يحله حتى يطاف حوله ، وانما جعل هذا البيت رمزا للتطواف الحق ،

انه فقط حول مرضات الله ، حول بيت الله كأنه حول الله وليس له حول.

أنت في ذلك الطواف حول البيت العتيق تحرر نفسك عن كل طواف غير عتيق ولا طليق ، وتحصر نفسك في حركاتها في ذلك الطواف ، فتصبح طوافا . وعلى طول خط الحياة . حول البيت العتيق ، حول الحق الطليق.

تطوف بالبيت العتيق ، الذي لا ظاهر له باهرا إلا أحجار سوداء ، ولا باطن إلا خلوا عن كل باطن ، غير مزخرف البنيان ، ولا ساكن فيه أيّ كان ، من نبي أو إمام ، وليس الله . وهو بيته . من السكان ، محور ومطاف حاسر عن كل ما يجلب العيون ، ويجذب الأهواء ، اللهم الا مرضات الله حيث أمرنا ان نطوّف ببيته العتيق ، تحررا عن كل حركة وطواف ، وانحسارا فانحصارا في التطواف حول ما يرضاه الله.

ذلك تدريب اديب ، يؤدبنا كيف علينا ان نطوف في كل مجالات الحياة تحررا فيها . عن كافة المحاور إلا الله ف ﴿لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾.

تذيب هنا كافة التشخصات عن نفسك ، وتخفي شخصك بين سيول الطائفين ، غارقا فيهم دون تميّز ، درسا لك ملموسا لتكون في حركاتك إلى الله مع عباد الله ، فان «يد الله مع الجماعة».

تطوف سبعا . عله . لكي تزيل عنك الوصمات السبع الابليسة ، فتغلق على نفسك الأبواب السبع الجهنمية ، وكما تسعى سبعا وترمي الشيطان الأكبر والأوسط والأصغر سبعا ، سبعا تلو بعض ولصق بعض ، ولكي تتخلص بالنتيجة عن السبعة اللعينة الشيطانية وأبوابها.

ولان الطواف بالبيت العتيق عبادة لا تؤتي إلا بأمر ، ولم يؤمر به الا بالبيت العتيق ، فلا يجوز الطواف حول النبيين وسائر المعصومين ، او

بيوتهم ، او قبورهم ، فإنهم معكم طائفون حول هذا البيت فلا يطاف حولهم ، كما الصلاة . فقط . لله وسائر العبادات خاصة بالله لا سواه ، والعبادات توقيفية حسب المقرر في شرعة الله ، فلا يؤتى حتى بصورتها لغير الله ، لأنه تشريك بالله وتسوية في حرمة الله.

﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾(٣٠).

«ذلك» البعيد البعيد المدى ، العظيم العظيم الصدى ، من حج البيت بمناسكه ، فانها من حرمات الله التي احترمها ، وحرّمها على من يخترمها ، حرمات وحرمات واجبة الاحترام عقيديا وعمليا.

﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ﴾ في أية مجالة من مجالاتها «فهو» ذلك التعظيم ﴿خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ «له» دون ربه ، ومهما لم تكن خيرا عند من سوى ربه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فمن يهتكها فهو شر له عند ربه ، ومن لا يحترمها ولا يخترمها ، عوانا بين تعظيمها وتصغيرها ، فلا خير له ولا شر له إلا تركا لتعظيمها الواجب ، بل ان «خير» هنا يقابل الشر ، فمن لا يعظمها فهو شر له عند ربه ، فكما الله يعظّم فرضا ، كذلك حرمات الله ، حيث احترمها الله وحرّم خلاف التعظيم لها.

و ﴿حُرُماتِ اللهِ﴾ في وجهة عامة هي ما لا يحل هتكه وتجب حرمته ورعايته ، من واجبات او محظورات ، فليست هي . فقط . المحرمات ولم تذكر هنا من ذي قبل إلا واجبات ، وليست هي . فقط . الواجبات ، بل هي حدود الله في ما فرض او حذّر ، مهما اختلفت درجاتها حسب قراراتها ،

رجاحة في فرض أو واجب أو مندوب ، وكراهة في فحشاء أو منكر أو مكروه ، وهي كلها واجبة الاحترام فعلا او تركا وعلما واعتقادا : ﴿إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ (٢٧ : ٩١) وهكذا سمي المسجد الحرام بالحرام لواجب الاحترام ، وكما تسمى المحرمات ايضا حرمات ﴿وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ﴾ (٢ : ١٩٤).

إذا فحرمات الله هي عبارة اخرى عن شرعة الله ككل ، وقد ذكر هنا ويذكر قسم منها عظيم ، لعبادة جماهيرية سياسية هي من شعائر الله ، ومن مكبرات ومذياعات شرعة الله ككل.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ في الكتاب من قبل هذا ومن بعد ، تلاوة دائبة في العهدين مكيا ومدنيا ، حيث الاستثناء لا يختص بما يتلى بعد وقد تلي من قبل كما يتلى من بعد ، حيث تلي في مكيات من قبل كالأنعام وكما هنا وفي النحل في أخريات العهد المكي ، ثم في البقرة المدنية وإلى المائدة وهي آخر ما نزلت من المدنيات ، إذ نجد في مكيات سالفة ولاحقة ام في مدنيات مستقبلية استثناءات عما أحلت من الانعام.

و «أحلت» هذه هنا دون رباط ظاهر بما يتلوها ، إلا ما سلف ﴿مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ أكلا وايكالا ، انها تنديد بالمشركين الذين كانوا يحرّمون لحوم الاضاحي من الأنعام على أنفسهم وعلى الفقراء ، لأنهم قدموها لله! فهنا وفي التالي يأمر الله بأكل لحومها وايكالها وأنها ليست مما يتلى عليكم.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ﴾ حيث تضحون باسمها ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أن لحومها محرمة لأنها لله ، ف ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ..﴾!

وترى ما هو «الرجس» وما هو موقف «من» في ﴿مِنَ الْأَوْثانِ﴾؟

الرجس هو القذر ماديا او عمليا او معنويا ، يجمعها الرجس المنفي عن اهل البيت ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣٣ : ٣٣) وتتلوها ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ (٥ : ٩٠) حيث الخمر رجس ذاتها وعملها وشربها وكل محاولة فيها الا تحويلها خلا ، والميسر عملها وأكل المال فيها ، والأنصاب وهي ما ذبح على النصب فعملها رجس وذاتها وأكلها. ومن الذاتي والعملي : ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ (٦ : ١٤٥) ومن الذاتي والمعنوي : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ (٩ : ١٢٥) ومن الفاعلي ﴿قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ (٧ : ٧١) وفي صيغة شاملة كل واجب الاجتناب رجسّ مسا او عملا او عقيدة فيعم الرجاسات الظاهرية والباطنية.

و «الأوثان» هي رجس صناعة ، ورجس عبادة ، ورجس ما ذبح عليها باسمها ، ورجس سائر المعتقدات فيها والطقوس لها.

إذا ف «من» هنا قد تكون نشوية فهو رجس ناشئ عن الأوثان مثل ما ذبح على النصب ، وما ذبح مذكورا عليها اسم غير الله ، وما أهلّ به لغير الله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ : ما اهل به لغير الله ، رجس صادر عن الأوثان.

واخرى جنسية : «الرجس» الكائن «من» جنس «الأوثان» صناعة وعبادة واية محاولة شركية فيها.

وثالثة بيانية كأن الرجس ـ فقط ـ هو الأوثان ، ولأنها مبدء كل رجس في جنبات الحياة.

ورابعة تبعيضية «الرجس من» بعض المحاولات «من الأوثان» ككل المحاولات الشركية الناشئة عن عبادة الأوثان ، وأما كسرها وإحراقها وأمثالهما من محاولات توحيدية فهي واجبة «من الأوثان» كبعض آخر مما يرتبط بالأوثان.

وقد تكون كلها معنية والأنسب في هذا المسرح هو الأول ، اجتنابا مما اهل لغير الله به عملا واكلا ، واجتنابا من القول الزور فيها أنها آلهة تستحق الإهلال لها في الذبائح ،

والقول بحرمة الاكل والإيكال من الاضاحي لأنها لله إذ كانوا يقولون فيها : لا يحل لنا ان نأكل شيئا جعلناه لله حتى تأكله السباع والطير فرد الله عليهم امرا بالأكل والإيكال بشروط الحلية ، وانه ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها ..﴾.

ثم ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ لا القول الزور ، هو قول من الزور او في الزور او للزور بمثلث التقديرات في الإضافات الطليقة ، فيحلق على كل قول مصدره زور ، او في مجال زور ام لغاية زور.

والزور من الزّور والتزوير هو الميل عن الحق تظاهرا بالحق ، نفاقا عارما ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب ، فهو أخص من مطلق الكذب ، لأنه الكذب المنافق.

وواجب اجتناب قول الزور لا يخصه فاعليا ، بل وحتى حضورا لمحضره وانفعاليا ، فسماع شهادة الزور كنفس الشهادة مأمور باجتنابه وسائر قول الزور ، فمنه شهادة الزور ومنه قول المشركين في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك» [1] كما منه قولهم في الاضاحي

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٩ ـ اخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية يعني الشرك بالكلام وذلك انهم كانوا يطوفون بالبيت فيقولون ...

وتسميهم غير الله عليها ، وكذلك الغنى الملهي [١] لفظيا بأصوات مطربة ام معنويّا بمعاني ملهية ام جمعا بينهما فوا ويلاه! ومن قول الزور ان تقول للذي يغنّي أحسنت [٢] مهما اختلفت دركاتها.

وقد قرن قول الزور أيا كان بالرجس من الأوثان ومن أنحسه شهادة الزور فقد «قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطيبا فقال ايها الناس عدلت شهادة الزور اشراكا بالله ـ ثلاثا ـ ثم قرء : فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور [٣].

إذا فقول الزور هو كل قولة هارفة جارفة مزخرفة بظاهرة الصدق ، مهما اختلفت دركاته ، وكما تختلف دركات الشرك ، وقد قورن قول الزور

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٥ عن الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : الغناء ، أقول :

انها مخصوصة بالغناء الملهى كما في بعض الروايات لأنه في اللهو ، واما غير الملهي كالتفنن بالقرآن فهو غير محظور بل هو مشكور كما في الحديث : تغنوا بالقرآن ـ ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، فالقول ان كل غناء زور هو نفسه من القول الزور ، وفي المجمع روى أصحابنا انه يدخل فيه الغناء وسائر الأقوال الملهية.

(٢) المصدر عن معاني الاخبار عنه (عليه السلام) في الآية قال : منه قول الرجل للذي يغني أحسنت ، أقول : وهذا من باب بيان بعض المصاديق الخفية المختلف فيها ، وكافة الرجس من الأوثان بالشطرنج فان اللاعب به ينجذب اليه تاركا ما يعنيه إلى ما لا يعنيه عاكفا عليه كأنه يعبده ، وهذا جار في كل ما يلهيك عما يعنيك كأنك تعبده.

(٣) الدر المنثور ٤ : ٣٥٩ ـ اخرج احمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ايمن بن خريم قال قام ... وفيه اخرج احمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي بكرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا بلى يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس فقال ـ : الا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت.

بالشرك ، دركات بدركات مما يجعله تلو الشرك ، وهو في الحق إشراك للكذب بالصدق حيث يزوّر بظاهرة الصدق.

ذلك. والزور أيا كان : قولا وعلما وعملا واعتقادا ومشهدا محظور ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ (٢٥ : ٧٢)﴿فَاجْتَنِبُوا ...﴾!

﴿حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾ ٣١.

ان كل زور حالا ومقالا وأعمالا ، ناشئ من الإشراك بالله مهما كان شركا خفيا ، إذا ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ حال انكم ﴿حُنَفاءَ لِلَّهِ﴾ مائلين عما سوى الله ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ كلّ من سواه وما سواه ، في أية دركة من دركاته جلية وخفية ، فانما يريد الله من عباده ان يميلوا عن الشرك كله ، الى التوحيد كله ، وان يجتنبوا قول الزور كله إلى الصدق كله ، استقامة على التوحيد الخالص حالا وقالا وافعالا.

وهنا يرسم النص مشهدا عنيفا مخيفا يصوّر حال من يشرك بالله ﴿فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ ..﴾ فإذا هو ذاهب بددا كأن لم يكن من ذي قبل ابدا ، فانه مشهد الهويّ من اعماق السماء إلى اعماق الأجواء الواسعة ، فلا يجد مهبطا إلا مخطف الطير في الطريق ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾ : بعيدا عن الانظار ، في هوّة هاوية ليس لها من قرار ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾.

ذلك هو صورة الهوي من أفق التوحيد السامق الشاهق ، الى درك الشرك الساحق الماحق.

وقد يعني ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ بعد ﴿حُنَفاءَ لِلَّهِ﴾ تعريضا بناس كانوا

يحجون وهم مشركون فكانوا يسمونهم حنفاء الحجاج فنزلت هذه التلحيقة ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[1] إذ ليست الحنافة لفظة تقال ، الا رفضا لكل ما سوى الله.

وهكذا نجد في آيات عدة نفي الإشراك بالله بعد الحنافة لله تأكيدا في حق المعني منه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠ : ١٠٥) ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦ : ١٢٠).

﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ٣٢.

﴿شَعائِرَ اللهِ﴾ وما ادراك ما هي شعائر الله؟ ان الحج بكل نسكه شعائر الله ، اذاعة عالمية تبين الإسلام الحركي السياسي للعالمين ، مهما كانت هذه الشعائر درجات : ﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ (٢ : ١٥٨) أفلا يكون ـ إذا ـ الطواف بالبيت من شعائر الله ، وإن سبقه على ﴿شَعائِرَ اللهِ﴾ هنا قد يجعله كأنه كل شعائر الله ، ام هو المحور الأصيل فيها ، كما ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾(٣٦) وهي على هامش شعيرة الطواف!

بل والشهر الحرام وهو مسرح هذه الشعائر هو ايضا من شعائر الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ ..﴾ (٥ : ٢).

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٩ ـ اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال ...

وعلى الجملة ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ﴾ معرفيا وقوليا وعمليا واذاعة بين الجماهير ﴿فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ إذا فمن لم يعظم شعائر الله فانها من طغوى القلوب.

ولماذا سميت ﴿شَعائِرَ اللهِ﴾ بما سميت؟ انها جمع شعيرة وهي ما يدرك بلطف ودقة من اصل الشعر لدقته. وكما الشعور هو دقة الإدراك والشعار هو الثوب الرقيق الذي يلبس تحت الثياب ، ملاصقا للشعر وكما الشعر دقة في الإدراك. والعلامات المعنية المقررة لقوم من المحاربين مستسرة ، فالأصل في كل صيغها الدقة واللطافة ، وهكذا يكون شعائر الحج ومشاعره حيث تدرك أسرارها بدقة التفكير ، مناسك لها معاني ومرامي دقيقة لا يدركها الا أهلوها ، ويرفضها او يهينها البسطاء في المعرفة والايمان.

هذه المناسك الشعائر كلها اعمال ، وهي بحسب الظاهر بين سلبية كالوقوفين وايجابية كالطوافين ، اعمال رقيقة المعاني ودقيقة المرامي ، كما الألفاظ الغامضة ، والمشتبهة المعاني ، ولكنها حكيمة الدلالة ومحكمة المدلول لمن يتعرف إلى الدلالة والمدلول.

هذه الشعائر ، رغم لطافتها وغموضة المعني فيها ، هي اذاعات عالمية اسلامية ، تعريفا بالإسلام الجماهيري الحركي ، اشعارا إلى ضرورة تأسيس دولة اسلامية وحيدة ، فان مملكة الحج نموذجة بارعة تحضّر لها حضورها ، وكما هي رحمة وبركة وهدى للعالمين.

وهذان بعدان بعيدان لهذه المناسك الشعائر ، ليسا في سائر الفرائض والطقوس الاسلامية بهذه الصورة الرائعة والجمعية البارعة ، اللهم الا شذرات بينها هنا وهنا لك وهناك.

فالحج بكل مناسكه. إذا أقيمت كما رسمت. هو مدرسة سيارة تجعل من الحاج إنسانا كاملا محتلّلا عن كافة الوصمات فردية جماعية ، متحليا

بكل بصمات الحق ونسمات القدس ، وذلك «لمن ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وترى كيف اختصت تقوى تعظيمها بالقلوب؟ لأن تقوى القوالب ليست بتلك الاهمية مهما كانت مظاهر للتقوى ، وانها ايضا في صالحتها من تقوى القلوب.

ثم لا يشعر هذه الشعائر الا اصحاب القلوب التقية ، المدركة لقلوب هذه الشعائر ومغازيها ومراميها ، فإنها قوالب لها قلوب وأسرار ، ليس ليدركها إلّا اصحاب القلوب.

ثم وتعظيم شعائر الله يحلّق على كافة المراحل والمسارح ، تعلما وتفهما وتأدبا وتطبيقا واذاعة.

فمن تعظيم شعيرة الاضحية اصطفاء الجميلة السليمة السمينة الثمينة ، وإيفاء ما يتوجب في شأنها دون افراط ولا تفريط ، وكما يأتي في مجاله القريب.

ثم ولسائر الشعائر حرمات وتعظيمات كما تناسبها ، قلبيا وقالبيا ، ولكي يعلم العالمون انك في موقف التعظيم والتكريم ، دون ان تبذرها بذرا او ترذّلها رذلا ، بل وتهتم بها اكثر من كل مهام الحياة ، بكل دقة وهمامة.

وعلّ ضمير التأنيث في «فإنها» راجع إلى تعظيمات حسب الشعائر ، جمعا بجمع ، فان هذه التعظيمات من تقوى القلوب ، ام إلى الشعائر نفسها ، فان الشعائر من تقوى القلوب ، فان محاورها هي محاور التفكير الدقيق العميق ، وهي من قضايا تقوى القلوب ، حيث القلوب غير المتقية لا تدرك حق الشعائر واسرارها حتى يعظمها ، والمعنيان علهما معنيّان حيث

يتحملها ادب اللفظ والمعنى.

﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(٣٣).

«لكم» في بهيمة الأنعام ﴿مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو ما قبل واجب الذبح والنحر ، من ظهورها واشعارها وأوبارها وألبانها واوراثها ، وهذه من منافعها الدنيوية غير الشعائرية «ثم» بعد منافعها إلى اجل مسمى «محلّها» الذي تحل فيه إحلالا باسم الله وإحلالا للأكل والإيكال ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ منافع اخرى هي كلها للأخرى ، نسكا وايكالا وشعيرة عظيمة من شعاعر الله.

ولتكن واجهتك لها ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أوجه منها من ذي قبل [1] ولتعظمها منذ صممت وعزمت على هديها ، حيث تخرجها من ملتك إلى ملكة الله ، ومن بيتك إلى بيت الله ، ومن حوزتك وحيازتك إلى حوزة الله ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. و «ثم محلها» قد يعم زمان الحلول ومكانه ، وكيف يكون محل الأنعام إلى البيت العتيق والمنحر في منى هو يحلّها ثم الطواف فقط إلى البيت العتيق؟.

قد تعني محلها ما عنته هديا بالغ الكعبة» (٥ : ٩٥)؟ ولكنه يختص بمن قتل الصيد محرما : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ ...﴾! أم تعني «محلها» زمانا ومكانا ومصدرا ، وهو حلولها للذبح ، تحليلا عن الإحرام ،

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٧ في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : البدن يركبها المحرم من موضعه الذي يحرم فيه غير مضر بها ولا معنف عليها وان كان لها لبن يشرب من لبنها إلى يوم النحر.

ناحية منحى البيت العتيق ، لأنه بطوافه هو المحور لكل المناسك الشعائر ، فانه ام الشعائر.

ام يعني ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الحرم كله ، ام منى ومكة كلها وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر» [1] ولكن البيت العتيق هو البيت العتيق ، دون مكة كلها او الحرم كله!

ام وباحرى «محلها» تعني محل شعائر الحج كلها ، ومرجعها ومختمها ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ طوافا ، حيث الشعائر كلها تنحو منحى الطواف فانه اصل الحج ، بل هو الحج كله ، ثم شعائره كلها تعبيدات له وتلحيقات كهوامش على ذلك المتن المتين والركن الركين.

ثم وهكذا ﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ﴾ تحلّق على شعائر الحج كلها ، فان فيها منافع من كافة أنواعها ، روحية ومادية ودنيوية واخروية ، ولا سيما مدرستها السيارة ، من إحرامها ووقوفيها وبيتوتتها ، مدارس مسلسلة متصلة ترقى بالحاج إلى مراقي المعرفة والكمال وكما الله قال ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٣٤ قال (عليه السلام) : ... وفي الوسائل ١٠ : ٩٢ ح ٢ والوافي ٢ : ١٦٩ عن الصادق (عليه السلام) «مكة كلها منحر» ولكنه خاص بغير هدي الحج ، ام مخصوص بحالة الاضطرار ام مضي ايام التشريق ، والآية في مقام بيان ضابطة عامة تعني الحالة العادية.

اجل ﴿ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ كأصل اصيل عريق ضارب في اعماق الزمن ، حيث كان مطافا لكافة الموحدين منذ كانوا وإلى يوم الدين ، فهذه الحرمات المناسك الشعائر ، كلها إلى حرم الله ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فانه المحور والمدار ، والمستقر القرار ، ولا ركن في الحج يوازي الطواف او يساميه ، فانه اركن أركانه وأعظم شعائره.

وانها كلها تتسل مندغمة مع بعض ، ثم تحل إلى البيت العتيق طوافا ، فانها تحضّر الطائف ليحل ذلك المحل الرفيق ، فيكون طوافه جامعا لشروطاته.

يخطو الحاج تلك الخطوات الرائعة ، اللائقة البائقة ، بأقدام المعرفة وإقدام التضحية والعبودية ، دارسا في مدرسة الإحرام ، عارفا في عرفات ، مغربلا عرفاته في المشعر الحرام ، مطبقا مناه في منى ، وإلى تقديم الأضحية التي ترمز إلى تقديم النفس والنفيس ، تحلّلا عن كل ما يملكه منهما في الله ﴿ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾!

ان لكل شعيرة من شعائر الحج أجلا معجلا ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ثم أجلا مؤجلا بعد البيت العتيق ، حيث الحاج يستمر بهذه الذكريات منذ الحج وطيلة الحياة ، أجلان هما مسميان ، واين اجل من اجل ، والثاني خير مؤول ، والاول خير معوّل ، حيث الأجل المحل إلى البيت العتيق أمثولة ودراسة تدريبية ونموذجية من برمجة الحياة السليمة الاسلامية ، ومن البيت العتيق إلى آخر الأجل مسرح للتطبيق.

ثم وليست هذه المناسك الشعائر ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فقط لهذه الامة الاخيرة ، بل

:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ ٣٤.

منسك واحد في الجذور وآله واحد في كل العصور ، فأمة واحدة ذات رسالة واحدة مهما اختلفت القشور : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢ : ٦٧).

والمنسك هو مصدر ميمي واسم زمان ومكان ، فهو نسك في زمان ومكان خاص ، وهو عبادة خاصة في زمانها ومكانها الخاص بها ، فهو هنا مناسك الحج كلها ، ومما يلمح له هنا ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ ثم قرنه بعبادات أخرى : ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (٢ : ١٩٦) . ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي ...﴾ (٦ : ١٦٣) ثم التماسه في موقف الحج كما في ابراهيم ﴿وَأَرِنا مَناسِكَنا﴾ (٢ : ١٢٨) ثم ذكره بعد سرد من مناسك الحج : ﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ (٢ : ٢٠١).

ولو كان المنسك هو العبادة ككل لكان صحيح التعبير عنه النسك دون المنسك ، فهو . إذا . مناسك الحج لا سواها.

وهذه الآية مما تدل على امية المناسك عبر الرسالات والأمم منذ آدم إلى الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد وردت روايات في مناسكهم رسلا وامما.

وقد تمتاز المناسك الاسلامية بميّزات ، كما هي طبيعة الحال فيها قضية الخلود والكمال القمة المغنية ، ومنها ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾ فانها مزيد على ما لكل امة ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ ..﴾! مهما كانت لهم منافع اخرى فيها من

واجهات اخرى ، ولكنها ليست لتبلغ مبلغ تلك المنافع الاخرى للشرعة الأخرى.

﴿فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ﴾ وبيت عتيق واحد ، ودين واحد ، مهما اختلفت مناسك عن مناسك ، كما شرعة عن شرعة في مظاهر ، حيث الأصل صادر عن مصدر واحد ولغاية واحدة.

إذا ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ لا سواه ، من عادات مهما كانت لشرعة سابقة ، فالإسلام له ، يجعل من الأمم امة واحدة مسلمة لله ، دون تنازع في الأمر ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ وهو الدين الحق التي تشرعت منه وتصدرت منه الشرائع.

﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ حيث الإسلام لله يوحد المشاعر والشعائر وكل الاتجاهات فيهما وسواهما.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ إلا خبات مفسّرة بالآية التالية وهي لغويا من الخبت : المتّسع المطمئن من الأرض ، والإفعال منه هو النزول إلى ذلك المتسع خروجا عن كل ترفع وارتفاع ، فالمخبت هو اللاصق بأرض العبودية اللازق بالخرور والخضوع والخشوع.

وهنا المعني منها الإخبات إلى ربهم ، في تلك الساحة المتسعة من العبودية بكل صورها ، في كل شرعة شرعة ، دون إخلاد إلى ارض واحدة وساحة خاصة من شرعة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ﴾ (١١ : ٢٣).

فمهما كان أصلها الإخبات إلى الأرض ، ولكنه ليس إلا له تعالى ، فمن مخبت إلى الأرض للحياة الارضية ﴿لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (٧ : ١٧٦) ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ (٢٢ : ٥٤) فبشر المخبتين [١] إلى ساحة متسعة من ارض العبودية «له» لا سواه :

﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ٣٥.

فللإخبات إلى الرب وللرب قوائم اربع من مظاهر العبودية وسرائرها ، وفاقا بين السر والعلن دون نفاق :

١ ﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والوجل هو استشعار الخوف ، من نفسه لمعاصيه ومآسيه ، ومن الله رهبة وهيبة ، فهو أحض من الخوف ، ووجل القلب يحلّق على كل كيان الإنسان بمشاعره وشعائره ، بأقواله وأفعاله وأحواله.

٢ ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ﴾ في جنب الله ، فيحتسبون عند الله عنائهم ، دون ان يعييهم او يخفف عن وطأتهم في عبادته ، وتنمّرهم في ذاته.

٣ ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾ اقامة لائقة بجنب الله ، فائقة كل قيام آخر وإقامة ، ولا فحسب هذه الثلاث من العلاقات الشخصية بالله ، بل وعلاقة جماهيرية خلقية كما امر الله:

٤ ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الله ، من كل نفس ونفيس ممكن الإنفاق في الله ، ومن ذلك ما علّمهم الله حيث منه يبثّون.

---

(١) تعليقات احقاق الحق في آية المخبتين «علي منهم» نقله وصححه القرطبي في عداد من نزلت هذه الآية في حقهم (الجامع لأحكام القرآن ١٢ : ٥٩) وابن مردويه في المناقب قال : علي منهم وسلمان.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٣٧.

هنا «البدن» وهناك ﴿بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ ذكرا لاسم الله عليها واكلا وايكالا منها ، فهما . إذا . سيان ، في أنهما ﴿مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ وكما لحقت آية الشعائر الاولى الانعام وبهيمة الانعام أضحيات.

إذا فالأضاحي هناك كلها من شعائر الله ، فلنعرف واجهات هذه الشعيرة ما هيه؟

هذه الشعيرة وهي ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ بدنا وهي أفضله ، ام سواها كما استيسر ، إنها «هدي» من الحاج لله تقوى وإشارات ، ولعباد الله الفقراء وهم ضيوف الله، إطعاما.

فمن شعيرة الهدي اشعار المهدي بمدى تضحيته في الله ، انه لولا نهي الله لكان ينتحر فهو . إذا . نفسه أضحية تقديما لله ، ولكنه . لمنعه . يقدم بديلا عن نفسه ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ اشعارا بذلك الشعار انني يا رب حضّرت حالي فداء لك ، وذلك الهدي كما استيسر اشارة مني ظاهرة إلى تلك الحالة الباهرة غير الظاهرة ، ولكي يعلم العالمون انني تخطيت النفس والنفيس ، فانا رهن الإشارة من ربي ، متى أمرني ان أكون من الضحايا في سبيله!.

وهذه الشعيرة البارعة ماخوذة مما فعله ابراهيم بديلا عن اسماعيله المأمور بذبحه امتحانا ، وقد كان عنده أنفس من نفسه ومن كل نفيسه ، فقد أمر في المنحر أن يذبحه إبرازا لمدى تسليمه لربه : ﴿قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى

﴿فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى. قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ... وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧ : ١٠٧).

فذلك الهدي المتواتر منذ ابراهيم وإلى يوم الدين ، انه ذبح عظيم ، إعلانا جاهرا واشعارا باهرا من الحاج ، أنني اذبح كما ذبح ابراهيم ، بديلا عما امر بذبحه ، فهذه شعيرة عظيمة في الهدي على مر الزمن ومنعطفات التاريخ ، منذ خليل الله إلى حبيب الله وإلى يوم لقاء الله.

ذلك «ذبح عظيم» ما أعظمه ، ابتداء من هذه الشعيرة العظيمة ، إذاعة للحجاج في مذياع الحج اننا وصلنا في مدرسة الشعائر المناسك إلى حد التضحية لأنفسنا في الله.

ثم حشرا لمسرح ومعرض الدم ، سيول الدماء تسيل بأمر الله وفي سبيل الله واطعام اهل الله ، ولكي تتعود العيون ان ترى لون الدم ، والأيدي والأرجل ان تنغمس في سيل الدم ، ولكي لا يهابوا ويخافوا الدم ، حيث تحب اراقتها في سبيل الله ، في خطوط النار ومسارح الحرب حفاظا على حرمات الله ، قاتلين اعداء الله او مقتولين في سبيل الله.

وهذه اشعارة ثانية في هذه الشعيرة ، أنّنا امة الدم ، فلا نخافه حين يطبّق امر الله ، حفاظا على شرعة الله.

ومن ثم اشعارة ثالثة هي القاعدة الظاهرة لذلك المثلث في آيات الهدى ، وهي : ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ . فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أكلا وإيكالا من هذه الهدية العظيمة ، إشباعا لبطون الجياع ، الوافدين إلى البيت العتيق ، حيث هم ضيوف الله ، ف «لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم»!

فإطعام البائس الفقير ، والقانع والمعتر ، في ذلك المسرح العظيم ، هو القاعدة المتينة والضابطة الركينة ، المصرّح بها في آياتها ، لا فقط : الزاوية الاولى والثانية ، اللتان لا يعرفهما الا اهلوهما ، ولو كانت فيهما الكفاية فليختص الهدي بقلة قليلة يعرفونهما ، ام لتجب معرفتهما لكل مهدي يقدم أضحيته لكي لا تذهب هباء منثورا!.

هنا ﴿**التَّقْوى مِنْكُمْ**﴾ . في هذه الزوايا الثلاث . تنال الله ، وان كانت أخيرتها وهي القاعدة الظاهرة إطعاما لعباد الله ، ثم ﴿**لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها**﴾ خلاف ما كان يزعمها المشركون :

«فقد كان اهل الجاهلية إذا ذبحوا لطخوا بالدم وجه الكعبة وشرحوا اللحم ووضعوه على الحجارة وقالوا لا يحل لنا ان نأكل شيئا جعلناه لله حتى تأكله السباع والطير فلما جاء الإسلام جاء الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا : شيئا كنا نصفحه في الجاهلية ألا نصنعه الآن فانما هو لله [١].

فالآن . وقد ابتلي المسلمون بمثل هذه الفعلة المنكرة ، والتبذير الموحش الوحشي ، بل واجتازوا فعلة المشركين ، حيث المذبح أصبح نتنا وعفنا لحد لا يقر به حتى السباع لتأكل من اللحوم . فمن هو المسؤول هنا إلا الفقهاء ، حيث ظلوا يفتون بوجوب الذبح في محشر منى ، دون ان يفكروا في علاج لهذه المشكلة العويصة من تبذير منقطع النظير في تاريخ الوحش والإنسان ، إحراقا او دفنا بالجرّافات والبولدوذرات لآلافات

---

(١) آيات الأحكام للجصاص ٣ : ٢٩٠ روى يونس بن بكير عن أبي بكر الهذلي قال : ...

الأطنان من هذه اللحوم الركام كالاتلال في ساحة منى ، مما يضحك الأعداء ، ويبكي او يشكك الأصدقاء.

فحين يحذّر القرآن عن السرف والتبذير و ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ! وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (٧ : ٢٧) فهل من الممكن ان نؤمر في مؤتمر الحج وشعائره أمام العالمين ، ان نبذّر ذلك التبذير المنقطع النظير في تاريخ التبذير ، وأما منافي العالم الاسلامي بطون غرثى وجياع بالملايين الملايين لا عهد لها بالشبع ولا طمع لها في القرص؟!

وقد حصر القرآن مناسك الحج وشعائره في ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ ومنها لحوم الاضاحي ، فحصرت آياتها منافعها الظاهرة لكل العالمين في إشباع الفقراء والمساكين ، وكما يروى عن الرسول الصادق الأمين (صلى الله عليه وآله وسلم) «انما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينكم من اللحم فأطعموهم» [1] لا ليشبع أعداءنا أغنياء وفقراء من الضحك علينا في ذلك التبذير العامد ، او تشبع ديدان منى او سباعها من أكلها ، والسباع متنفّرة منها ، حيث لا تدنوا منها!.

هنا الآيات من نواحي شتى ، والروايات من أخرى ، تفرض علينا ان نطعم الفقراء الجياع من لحوم الأضاحي ، وإليكم درسا فصلا هنا وهناك ليشبع دعوانا من أدلتها كتابا وسنة ، اضافة إلى ادلة اخرى يعرفها كل ذي حجى :

«والبدن» جمع بدنة وهي الإبل البدين الثمين . كسائر الانعام . ﴿جَعَلْناها لَكُمْ﴾ : الحجاج ﴿مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ شعائر حكيمة معقولة تعريفا

---

(١) وسائل الشيعة ١٠ : ١٤٧ ح ٢٢ من لا يحضره الفقيه قال قال (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

بمدى كمال الإسلام ونبوغه وعظم المسلم وبلوغه .

فهل ان ذلك التبذير الحاضر في تلك الساحة الفسيحة من منى ، ذلك من شعائر الله ، ام من شعائر الجاهلية الجهلاء وأضل منها وأنكى؟!

﴿لَكُمْ فِيها خَيْرٌ﴾ حية وأضحية ، وهل ان من خيرها اضحية ان تبذر وتهدر هكذا أمام عالم من البطون الجائعة الغرثى التي لا عهد لها بلحوم وسواها؟ كلا! وان ذلك شرّ ما أنحسه وأتعسه ، ف «لكم فيها شر» حيث تقدمونها للديدان والمحرقات والجرافات ، وتعفّنون بها جوّ منى ، جاعلين ساحة البيتوتة الذكر ، والمشاورة بين الجموع ، ساحة محرجة مهرجة ، كلّ يعد الساعات والدقائق للفرار!

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها﴾ حال كونها «صوافّ» مصطفة للنحر . او الذبح . ﴿فَإِذا وَجَبَتْ﴾ وسقطت «جنوبها» وظلت ميتة صالحة للأكل منها ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ ﴿كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

اجل «كذلك» المذكور المأمور به المشكور ، ان تختاروا خيرها ، وتذكروا اسم الله عليها وتأكلوا منها وتطعموا .. لا أن تختاروا شرها النّكر ، فتذكروا سوى اسم الله عليها كما المشركون ، ام لا تذكروا عليها اسما كما الملحدون فتصبح ميتة لا توكل ولا تطعم.

او ان تذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها تذروها في محالها وتهدّروها فتعفّنوا الأجواء بها ، او تحرقوها ام تدفنوها!.

كذلك المعقول المشكور ﴿سَخَّرْناها لَكُمْ﴾ لا هكذا اللامعقول المكفور ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما رزقكم من بهيمة الانعام «لا» «لعلكم تكفرون» بنعمته ، إزهاقا لأرواحها ، وإفناء جنونيا وحشيا للحومها ،

فتكفرون أنتم كفرا او كفرانا ، ثم يكفر العالمون الناظرون إلى ذلك المسرح اللعين ، كفرا بشرعتكم ، زعما انها هي التي تأمركم او تسمح لكم بهكذا تبذير وحشي لا يعرفه الوحوش في الغابات والفلوات!

﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها﴾ كما كان يزعمه المشركون ، ملطخين البيت بدمائها ، مهدّرين لحومها للسباع لأنها قدّمت لله فلا توكل! ..

﴿وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾ اتقاء عن ان تذكروا اسم غير الله عليها ، ام تبخلوا عن هديها ، ام تهدروا لحومها . «كذلك» الذي ذكرناه ﴿سَخَّرَها لَكُمْ﴾ ذبحا شرعيا واكلا وايكالا للجياع ، على تقوى من الله في هذه الساحة الدامية ، دون طغوى منكم بتبذير وحشي موحش ، بحرمان أهليها الفقراء.

كذلك ﴿سَخَّرَها لَكُمْ﴾ ربكم ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ﴾ تكبيرا بتقواكم ، وتكبيرا باطعام الفقراء من عباده ، لا تصغيرا لله بتلك الطغوى والتهدير والتبذير ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ في هديهم ، حيث يراعون فيه تقوى الله ، دون المسيئين في هديهم تلك الإساءة المخزية المزرية.

ذلك ، وقد عدت بهيمة الانعام الاضاحي من منافع الحج الجماعية العالمية للمسلمين ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ ... لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

فحين تجمل ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ تلك المنافع الهامة المنقطعة النظير ، ثم يفرد منها بالذكر ﴿ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ أكلا وإطعاما ، اعتبارا انها من أهم المنافع مادية ومعنوية ، فهل ان ذلك التهدّر في لحومها من ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ الشاخصية؟ فما هي ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ في ذلك التبذير المنقطع النظير اقتصاديا ، وما هي في ذلك الإعلان الجاهر بسماح ام فرض واجب على

ملاء العالمين ، أن ذلك التهدير الكبير هو من احكام الإسلام ، الذي لا يسمح باي إسراف او تبذير حتى في نواة تمر!.

وهل عليهم ان «يذكروا ﴿اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ﴾ هكذا ، ان يقدموا الأثمن الأسمن منها للحرق والتدفين والتعفين ، بديلا عن ان يأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير والقانع والمعتر؟!

او هكذا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ سماحا أمميا لذلك التبذير النكير؟

ويكأن دين الله بشرائعه هو دين الإسراف والتبذير ، فعلى المتشرعين بكل شرعة ان يدرسوا في مدرسة منى كيف لهم او عليهم ان يبذروا رزق الله وبأمر الله؟!

أفهكذا دعى ابراهيم الخليل ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣ : ١٢٦)؟ ففي الحق انها دعوة عليهم لا لهم ، ان يرزقوا من ثمرات الأنعام ثم يؤمروا بذبحها مهدّرين لها؟!

أو هكذا يكون الهدي والقلائد مع البيت الحرام والشهر الحرام ﴿قِياماً لِلنَّاسِ﴾ حيث :

﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٥ : ٩٧).

فهل ان في ذلك التهديد الهدير الشرير النكير قيام للناس ، قياما روحيا ام سياسيا واقتصاديا ، ام إنه قيام للنسناس الذين يعارضون شريعة الناس.

انه قيام رمزا للتضحية في سبيل الله ، وشهودا لسيول الدماء المهراقة

في الله ، واطعاما لعباد الله ، ولكنا بدلنا قيامه سقوطا وإسقاطا لهذه الشعيرة الغالية عن أعين الناس ، واثباتا لوحشية منقطعة النظير في شرعة الناس أمام النسناس.

أو هكذا يكون ذلك البيت العتيق بمناسكه ﴿مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ﴾ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ .. وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ (٣ : ١٦) فحتى الحشرات حيث لا تؤذى ، وأما بهيمة الانعام فتؤذي هكذا دونما نفع إلا ضرا راجعا إلى أصل الإسلام والإسلام الأصل.

وما هي هذه البركة والهداية للعالمين ، وتلك الساحة الدامية المدمية في منى دركة وضلال للعالمين؟!

أم هكذا يكون البيت مثابة للناس وأمنا : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ (٢ : ١٢٥) أمثابة في مثل ذلك التهدير التبذير ، ولكي يدرس المسلمون كيف عليهم ان يبذروا أرزاقهم أمام الملايين من الجياع ، وكما يفعله الاستعمار الكافر ، فقد نرى السلطة الامريكية كيف تلقي ملايين الاطنان من الحنطة والشعير في البحر ، لكي يبقى الجياع جياعا ، وان وراءه سياسة ابليسية؟.

فما هي سياستنا الإسلامية السامية في ذلك الإسراف العجيب والتبذير الرهيب؟!

تلك الاضاحي المهداة والأتلال من اللحوم الزكية ، هي ـ فقط ـ للبائس الفقير والقانع والمعتر ، وما الأمر بالأكل منها للمهدين إلا ادبيا تأديبيا ليصطفّوا هناك في صفوف الفقراء دون تميّز عنهم ، ومحقا للسنة الجاهلية حيث كانت تحرّم الاكل منها وإيكالها ، وقد يكفي هذا وذاك رفعا للحظر عن الاكل منها لأنها ـ فقط ـ للفقراء ، وهم الركن الركين والمتن المتين في هذه

الساحة الدموية دون سواهم ، اللهم الا على هوامشهم ، والتقسيم كما كما يأتي ثنائي بين المهدين والفقراء ، وليس ثلاثيا ثالثه الأصدقاء غير الفقراء.

لذلك يحصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا الأضحى في المساكين قائلا : «انما جعل الله هذا الأضحى لتشبع مساكينهم من اللحم من اللحم فأطعموهم»[١].

ويخطب علي (عليه السلام) في الأضحى قائلا : «وإذا ضحيتم فكلوا وأطعموا واهدوا واحمدوا الله على ما رزقكم من بهيمة الأنعام» [٢].

ولقد كان من رعاية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حقوق الفقراء فيها لحد «نهى (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يعطى الجزار من جلود الهدي وجلالها شيئا» [٣]. ويقول حفيده الكاظم (عليه السلام) «لا يصلح ان يجعلها جرابا الا ان يتصدق بثمنها»[٤].

وفي متظافر الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة

---

(١) وسائل الشيعة ١٠ : ١٤٧ ح ٢٢ من لا يحضره الفقيه قال قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ....

(٢) المصدر ح ٢٣.

(٣) المصدر ١٥١ : ١ بسند متصل عن حفص البختري عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم ...) ومعاوية بن عمار عنه (عليه السلام) وصحيح البخاري ٢ : ٢١٢ وصحيح مسلم ٣ : ٥٩٤ قال : نحر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بدنة ولم يعط الجزارين من جلودها ولا قلائدها ولا جلالها ولكن تصدق به ولا تعط السلاخ منها شيئا ولكن أعطه من غير ذلك.

(٤) المصدر الصدوق عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (عليهما السلام) قال : سألته عن جلود الاضاحي هل يصلح لمن ضحى بها ان يجعلها جرابا؟ قال : ...

اهل بيته (عليهم السلام) انه لا يجوز للمهدي ان يدّخر من لحوم الاضاحي شيئا ، وانما قدر يومه.

ذلك فكيف يجوز هضم حقوق الفقراء كما نفعله نحن في منى ، هدرا ساحقا للحوم ، وحيلة شرعية! إعطاء لثلث الثمن اللاشيء . في تقدير ذلك المسرح الذي لا قيمة فيه للحوم . للفقراء ، واي فقير يرضى ان يعطي من خمسمائة ريال عشرة؟!

وقد نتساءل فكيف . والحال هذه . يأمرنا الله تعالى بما استيسر من الهدى ، وقد نحر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحيانا ستا وستين بدنة ، مزيدا في الفضل ، وتطبيقا لما استيسر من الهدى؟

ولكن يأمرنا هكذا لنأكل منها ونطعم البائس الفقير والقانع والمعتر ، واما إذ لا فقير هناك ، وإذا كان فاللحوم هي ملايين اضعاف نصيب الفقراء الحضور ، إذا فلا هدي إلا على قدرهم ، أتراك حين تؤمر بإحضار طعام لتأكل ويأكل معك الف من الجياع ، فهل تحضّره على نفس القدر حين لا تقدر ان تأكل ، ولا ان هناك الف ولا مائة ولا عشرة من الفقراء؟.

بطبيعة الحال ليس القصد من إحضار طعام إلّا ليطعم قدر الطاعمين ، لا ليهدر حين لا يؤكل ام يؤكل منه جزء قليل ، ثم البقية في تسعة وتسعين بالمائة تهدر؟!.

ولقد نحر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع ذلك العدد الهائل لكثرة الفقراء ، حيث كانت الاكثرية ممن حج معه مشاة وفقراء ، فقد كان هديه قدر الحاجة والمكنة.

ورعاية لحقوق الفقراء الحضور في منى ، كان إخراج اللحوم منه ممنوعا

بعد ثلاثة ايام ، ثم سمح فيه لقلة الفقراء فيها ، فقد «كنا ننهى عن إخراج لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام لقلة اللحم وكثرة الناس ، فأما اليوم فقد كثر اللحم وقل الناس فلا بأس بإخراجه» [١].

وهكذا ترون أن الأمر والنهي حول اللحوم دائر مدار الحاجة حيثما دارت ، دونما هدر أعمى بتضحية جزاف فوضى دون رعاية لحقوق الفقراء!

وهنا نتساءل : فما ذا علينا في ظروفنا الحالية واللحوم مئات اضعاف الفقراء الحضور في منى؟

هنا طرق شرعية نتطرقها حفاظا على أمر الاضحية وحقوق الفقراء فيها :

أولا : تأسيس معامل لتعليب اللحوم الزائدة عن حاجة الفقراء الحضور والذين يمكن إيصالها إليهم حالا ، ام بعد زمن ، حفاظا لها في البرّادات على مدى الحاجات ، فتبعث هذه المعلّبات إلى أكناف العالم الاسلامي الأقرب إلى الحرم فالأقرب ، والأحوج إليها فالأحوج ، رعاية لكامل حقوق الفقراء فيها ، توزيعا بينهم دون ثمن إلا قدر تكاليف التعليب والتوزيع.

---

(١) الوسائل ١٠ : ١٤٩ ح ٦ قال الصدوق وقال ابو عبد الله (عليه السلام) وفيه ح (٤) * عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نهى ان تحبس لحوم الاضاحي فوق ثلاثة ايام من اجل الحاجة فاما اليوم فلا بأس به و (٥) عن جميل بن دراج قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن حبس لحوم الاضاحي فوق ثلاثة ايام بمنى؟ قال : لا بأس بذلك اليوم ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انما نهى عن ذلك أولا لان الناس كانوا يومئذ مجهودين فاما اليوم فلا بأس.

ثانيا : ـ والحال عدم وجود هذه المعامل ـ ان يذبح قدر الحاجة يوم النحر ، ثم يذبح قدر الحاجات في البقية الباقية من ذي الحجة الحرام ، كما يمكن إيصالها إلى الفقراء ، حفاظا عليها في البرّادات حسب الإمكانيات ، ومن ثم توزيعا بين فقراء الحرم وما والاه من مملكة الحج وسواها ، ثم القدر الزائد من كل ذلك لا يذبح وانما تدفع أثمانها حسب السعر الحالي للفقراء في منى وسائر الحرم وسواه ، تقديما للأقرب فالأقرب ، وهذا هو «ما ﴿اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ حيث لا يمكن في صورة الذبح ، انتقالا الى أثمانها العادلة.

وان ثمن الهدي كله للفقراء ، دون استثناء لما تأكلون حين تذبحون حيث السماح مختص بخصوص اللحم دون الثمن ، وإذا اختلفت الأثمان حسب تصاعد السوق وتنازله فالقسم العادل بين الأثمان هو العدل المستحق للفقراء ، ف «انظروا إلى الثمن الاول والثاني والثالث ثم تصدقوا بمثل ثلثه» [1].

هذا ـ وبأحرى من فقدان الاضحية فقدان من يأكلها من الفقراء ام عدم إمكان إيصالها إليهم فليتصدق عليهم أثمانها العادلة المعتدلة.

فما أمكن إيصال لحومها إلى الفقراء فالذبح يوم النحر ، وإلا فالي ايام أخر حتى آخر ذي حجة الحرام ، ومن ثم تنتقل الاضاحي إلى أثمانها ،

---

(١) الوسائل ١٠ : ١٧٢ ح ١ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن عبد الله بن عمر قال : كنا بمكة فأصابنا غلا في الاضاحي فاشترينا بدينار ثم بدينارين ثم بلغت سبعة ثم لم توجد بقليل ولا كثير فرفع هشام المكاري رقعة إلى أبي الحسن (عليه السلام) فأخبره بما اشترينا ثم لم نجد بقليل ولا كثير فوقع : انظروا ... ورواه الصدوق باسناده عن عبد الله بن عمر والشيخ باسناده المتصل الصحيح ايضا عنه.

رعاية في كل المراحل الثلاث كامل حقوق الفقراء ، دون ان ينتقص منها شيء ولا نقير ، الا ما يشارك في أكلها مع الفقير ، لحما دون بديله الثمن ، وكل ذلك تشمله ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ وللتفصيل يراجع آيتها.

وقد نتساءل كيف نخرج من الإحرام دون ذبح بتلك الأعذار؟ والجواب بصورة عامة ان الضرورات تبيح المحظورات ، وخصوص النصوص فيمن لم يجد الاضحية بدفع ثمنها ، ام توديعه عند من يذبحها بعد ذلك ام في سنة قادمة [١] فهل يبقى الحاج محرما حتى السنة المقبلة حيث تذبح عنه ، وليس من الممكن في ظروفنا الحالية الذبح الصالح في عشرات من السنين المستقبلة.

ذلك ، وهل هنا لك عذر عن الذبح اكثر من هدره هضما لحقوق الفقراء العزّل المظلومين؟!

ولان التقسيم عند الذبح ثنائي حسب النص ﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ. الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فلا نصيب إذا لغير الفقراء جيرانا وأصحابا ، لا سيما وان أصحابك من غير الفقراء لهم أن يأكلوا من أضحياتهم ، فالتقسيم الثلاثي ، ولا سيما الأثلاث المتساوية ، يجعل نصيب الأغنياء ثلثي نصيب الفقراء ، وهذا منكر من القول وزور من الفتوى ، المخالفة لنص الكتاب والسنة [٢] وقضية الحال في الهدي وطبيعتها انه . فقط . للفقراء.

---

(١) وسائل الشيعة ١٠ : ١٥٣ باب أفرد لذلك فيه اربعة أحاديث ومنها صحيحة حريز عن أبي عبد الله (عليه السلام) في متمتع يجد الثمن ولا يجد الغنم؟ قال : يخلف الثمن عند بعض اهل مكة ويأمر من يشتري له ويذبح عنه وهو يجزي عنه فان مضى ذو الحجة أخر ذلك إلى قابل من ذي الحجة.

(٢) المصدر ١٠ : ١٤٢ صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إذا ذبحت او نحرت فكل واطعم كما قال الله : فكلوا منها وأطعموا القانع .

ولم يسمح للأغنياء الا مشاركتهم في اكلة اليوم مواساة معهم ونقضا لسنة جاهلية قاحلة ، ثم وفي الأثلاث حيث يحسب القانع والمعتر اثنين ، لا يعني ثلثك واقع الثلث المحدد ، وانما قسم من الثلاثة يكفيك ام ولأهلك يومك ، وكما فعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أتراه اختص بنفسه واهليه اثنين وعشرين من هديه الستة والستين ، ثم البقية لسائر الفقراء والمساكين [١]؟

والرواية القائلة بالاثلاث ، وان منه صديقك ام جارك [٢] مؤولة بالصديق او الجار الفقير ، ام مطروحة بخلاف نص القرآن. كما والقائلة بهدية ثلث قد تعنيها لغير البائس الفقير ، من قانع او معترّ [٣].

. والمعتر ، فقال : القانع الذي يقنع بما أعطيته والمعتر الذي يعتريك والسائل الذي يسألك في يديه والبائس الفقير ، ومثلها صحيحة سيف بن تمار قال ابو عبد الله (عليه السلام) ان سعيد بن عبد الملك قدم حاجا فلقي أبي فقال اني سقت هديا فكيف اصنع؟ فقال له أبي اطعم أهلك ثلثا واطعم القانع والمعتر ثلثا واطعم المساكين ثلثا فقلت المساكين هم السؤال؟ فقال : نعم وقال : القانع الذي يقنع بما أرسلت اليه من البضعة فما فوقها والمعتر ينبغي له اكثر من ذلك هو اغنى من القانع يعتريك فلا يسألك.

(١) الوسائل ١٠ : ١٤٢ ح ٢ عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليه السلام) انهما قالا ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) امر ان يؤخذ من كل بدنة بضعة فامر بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فطبخت فأكل هو وعلي وحسوا من المرق ...

(٢) المصدر ١٠ : ١٤٥ صحيحة أبي الصباح الكناني قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن لحوم الاضاحي فقال : كان علي بن الحسين وابو جعفر يتصدقان بثلث على جيرانهم وثلث على السؤال وثلث يمسكانه لأهل البيت.

(٣) المصدر عن شعيب العقرقوفي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) سقت في العمرة بدنة فأين أنحرها؟ قال : بمكة ، قلت اي شيء اعطي منها؟ قال : كل ثلثا واهد ثلثا وتصدق بثلث.

ونص القرآن لا يسمح بالأكل منها الا في الهدي ، واما الكفارة فهي ـ فقط ـ للفقراء حسب الضابطة العامة وكما في روايات مستفيضة [١].

فمن المضحك المبكي جدا دمج كفارات الإحرام ـ التي هي من خالص حقوق الفقراء ـ في هدي الأضحى هدرا في هدر ، رغم التوسعة القطعية في مكانها وزمانها [٢].

ولان السلطة تمنع عن الذبح في منى بعد الأيام الثلاثة ، وان مكة ـ بل والحرم كله ـ منحر ، يجوز الذبح في مكة وفي أي الحرم شاء.

ومن الراجح او المتأكد جدا ان يشترك الحجاج ، كل جماعة منهم في هدي واحد جمعا في شعيرة الهدي ، قدر الحاجة في منى ، ثم ما تبقّى عليهم ، حكمه حكم المعذور كما قدمناه.

ثم «البائس الفقير والقانع والمعتر» هم شركاء ثلاث في هذه اللحوم قدر حاجياتهم ، وبعد ما تأكل منها قدر يومك ، فالبائس الفقير هو

---

(١) المصدر (١٤٣) صحيحة عبد الرحمن عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سألته عن الهدي ما يأكل منه أشيء يهديه في المتعة او غير ذلك؟ قال : كل هدي من نقصان الحج فلا يأكل منه ، وكل هدي من تمام الحج فكل ، وفيه عن السكوني عن جعفر عن أبيه (عليهما السلام) قال : إذا أكل الرجل من الهدي تطوعا فلا شيء عليه وان كان واجبا فعليه قيمة ما أكل.

(٢) الوافي ج ٢ ص ١١٩ ب ٨٧ من أبواب الحج عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال من وجب عليه هدي في إحرامه فله ان ينحره حيث شاء إلّا فداء الصيد فان الله عز وجل يقول : هديا بالغ الكعبة ، أقول وفي أحاديث عدة ان هدي الصيد إذا كان من العمرة فمكة وان كان من الحج ففي منى ، واما كفارة غير الصيد فحيث شاء. وفي صحيحة إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له الرجل يخرج من حجه شيئا يلزمه في دم يجزيه ان يذبحه إذا رجع الى اهله فقال نعم.

أحوجهم ومن ثم القانع والمعتر ، ثم القانع هو «الذي يرضى بما أعطيته ولا يسخط ولا يكلح ولا يرتد شدقه غضبا ، والمعتر المار بك تطعمه» [١] و «لا ينبغي له اكثر من ذلك هو اغنى من القانع ، يعتريك فلا يسألك» [٢].

وعلى أية حال فليكن التقسيم لحما وثمنا عادلا حسب الحاجة وقدر الأقدار ، فالسائل بالكف يعطى اقل من غير السائل ك «للفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» فقد لا يسألون ، واخرى لا يجعلون أنفسهم معرض السؤال وهم اعفّ من أولاء.

فالبائس الفقير الذي لا يسأل ولا يعرض نفسه معرض الحاجة والسؤال . فهو اخفهم سؤالا وأكثرهم سؤلا . يعطى اكثر ممن هو في معرض السؤال كالمعتر ، أمن يسأل كالسائل بالكف ، مهما كانوا على سواء.

فيا جماهير المسلمين ، مقلّدين ومقلّدين ، الى كتاب الله وسنة رسول الله (ص) دون رعاية للشهرات وكل ما هو آت خلاف الكتاب والسنة ، تطبيقا للمنى الاسلامية السامية في منى ، رميا على شيطان التبذير والإسراف سبعا سبعا ، وتوزيعا لحقوق الفقراء بينهم دون تبذير ولا تهدير.

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٩ صحيحة سيف التمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث التقسيم ....

(٢) مضت هذه الجملة عن صحيحة سيف التمار الاخرى.

بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها

فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهادِ

الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾(٥٧)

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ٣٨.

إعلام صارخ في هذه الاذاعة القرآنية يطمئن الذين آمنوا في حياة المعارضة الدائبة بين كتلتي الكفر والايمان ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فليدافعوا هم عن ايمانهم صامدين ، دون تزعزع ولا تلكع في تلكم العقبات والعقوبات ودوائر السوء المتربصة بهم ، حيث الله هو الدافع عنهم ما لا يستطيعون ، وهو القائم بأمرهم ما لا يقدرون ، شرط ان يوفوا بشرائط الايمان ، ويقدموا أشراطه جاهرين متجاسرين امام الكفر الطاغي أيا كان ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ وهو لا يدافع إلّا عمن يحب ، ثم يذر من لا يحب في طغيانهم يعمهون ، ويكلهم إلى أنفسهم ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

وليست هذه المدافعة الربانية ـ فقط ـ كما يزعمه البطّالون ان شرعة الله هي لله فهو الذي يدافع عنها ، والمؤمنون بالله هم أهل الله ، فهو الذي

يدافع عنهم ، دون ان تكون منهم دفاع.

انها دفاع رباني بعد دفاعهم كما يستطيعون كما هنا بفاصل آية ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ...﴾ وفي البقرة ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (٢٥١) ثم ونفس «يدافع» دون «يدفع» لمكان المفاعلة حيث تقتضي فعل الدفاع من الذين آمنوا كما من الله ، ان يدفع عنهم كما يدفعون ، وكما الشياطين يدافعون عن غير المؤمنين كما يدفعون ، واين دفاع من دفاع ، واين مدافعة من مدافعة؟.

ثم و ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تأييد ثالث بالتزام شريطة الايمان الدفاع ، فالمؤمن الذي حمّل امانة الايمان ، عليه ان يؤديها سليمة فلا يخون ، وان يحوطه شاكرا لنعمته بنفسه ونفيسه فلا يكفر به كفرانا ، إذا ف «يدافع» قدر حفظ أمانته والشكر له ، و «لا يحب» قدر الخيانة والكفران ، من ايّ كان مهما يدعي الايمان و ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ﴾ (٤٧ : ١١).

إذا فعليك الحركة وعلى الله البركة ، دون بطالة للايمان وعطالة لأهل الايمان ، متكلين كليا على الله دون ان يأتوا بشرائط الايمان ، وبالصمود والحركة اللائقة في مجالات الامتحان: ﴿... وَما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لَاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ ، الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٣ : ١٦٨).

اجل وهذه قضية أمان الله لأهل الايمان في هذه المعركة الصاخبة

المستمرة بين قوى الخير والايمان ، وقوى الشر والطغيان ، فالشر جامح مسلح ، وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ، ويسانده كل الطاقات الشريرة داخلية وخارجية ، فلا بد ـ اذن ـ للايمان من قوة تدفعه من بطشه ، وتمنعه عن طيشه ، وقاية للايمان من فتنة الدوائر ، وحراسة له من الأشواك في كل المحاور.

وليست قوة الايمان في النفوس ـ فقط ـ لتكفي مكافأة ومكافاة ، فللصبر حد وللاحتمال أمد ، والله اعلم بما في النفوس من أصالة الضعف والطموس ، فلذلك يعدهم ـ إن قاموا بشرائط الايمان ـ أن يدافع عنهم قدر ما يدافعون ، وان ينصرهم كما ينصرون : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾.

ولقد صبر المؤمنون طيلة العهد المكي وقاية لكيانهم الجديد كيلا يهدر بددا ، لحد غلى مرجل اصطبارهم [1] فكان يطمئنهم الله انه هو ناصرهم وسوف ينصرهم ، والآن وقد حان حين الدفاع الجاهر في العهد المدني ، يجدد لهم وعد المدافعة ، ثم يأذن لهم في الدفاع لأوّل مرة ، وهم في استعداد لائق للقيام بشروطات الدفاع ، إذا ف :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ٣٩.

---

(١) في المجمع كان المشركون يؤذون المسلمين لا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويشكون ذلك اليه فيقول لهم : اصبروا فاني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر فانزل الله هذه الآية بالمدنية وهي اولى آية نزلت في القتال.

وفي الدر المنثور ٤ : ٣٦٣ ـ اخرج جماعة عن ابن عباس قال : لما خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن مكة قال ابو بكر اخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن القوم فنزلت هذه الآية.

«لم يؤمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقتال ولا اذن فيه حتى نزل جبرئيل بهذه الآية .. وقلده سيفا [١] فهي أول آية نزلت في الدفاع والقتال ، وكل حروب الإسلام مصبوغة بصبغة الدفاع مهما اختلفت صورها وظروفها وبواعثها ، حيث يجمعها ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ طيلة العهد المكي ، ومن ثم في العهد المدني ، ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ حين هم قلة قليلة ، ولكنهم وهم خارجون عن مكة ، قائمون على سوقهم في المدنية ، «اذن لهم» حينئذ بالدفاع . فعلا . دون الهجوم البدائي وان لم يظلموا بل حين ظلموا وقوتلوا.

ذلك هو الذي يبرّر خوضهم للمعركة حيث هم منتدبون لمهمة انسانية كبرى ، يعود خيرها إليها كلها ، ولا سيما الكتلة المؤمنة المظلومة بين الكتل ، ضمانا لحرية الأنفس والأعراض والعقائد والعبادات الإسلامية حيث ظلمت وأهينت في بداية عهدها ، مستمرة حتى الدفاع الصارم.

فليس الدفاع الإسلامي صراعا على عرض من اعراض هذه الأرض المتشجرة فيها الأطماع ، دفاعا وحربا توسّعيا لمكسب اكثر متعة في هذه الأدنى ، وإنما هي عرض الانسانية المؤمنة المظلوم في جو الظلامات.

هكذا ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ﴾ دفاعا إذا ظلموا وقوتلوا دون افراط المتوسعين المهاجمين ، ولا تفريط التنابلة الكسالى القاعدين اولي الضرر باسترخاء ، نظرة ان ينزل عليهم النصر والرخاء سهلا هينا بلا عناء ، لمجرد انهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويرتلون القرآن ترتيلا ، فانها على فرضها ورجاحتها لا تؤهلهم وحدها لحمل دعوة الله وحمايتها وحياطتها.

ذلك ، وقد ينمو الايمان في ثنايا المعركة وهي في سبيل الله ، كما ينمو

---

(١) مجمع البيان وروي عن الباقر (عليه السلام) انه قال : لم يؤمر.

اللاايمان في ثناياها وهي في سبيل اللهو وزخرفة هذه الأدنى ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ إذا هم مضحّون في سبيله ، فعليهم الحركة وعلى الله البركة وهم منتصرون قاتلين ومقتولين.

إذا فالمدافعة الربانية عن الذين آمنوا انما تتم عن طريقهم هم أنفسهم ، دون لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء إلّا الدعاء.

انها حين تذوب الغايات والحميات وإبداء الشجاعات ثم ليس كيانهم الدفاعي إلا «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» [١] فالمقاتلون المظلومون هم :

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ٤٠.

ف ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ﴾ ذلك تصوير لغاية الظلم ، وهم قبل الإخراج كانوا في العهد المكي في كل إحراج وارتجاج في كل متطلبات الحياة ، فقد أحرجوهم حتى أخرجوهم مرة إلى الحبشة واخرى إلى المدينة المنورة.

فالآن وقد ظلموا من قبل حتى اخرجوا ثم ظلموا من بعد أن قوتلوا ، اذن لهم بدفاع صارم ، حيث الصبر على الظلم مع امكانية الدفاع ، هو ضيم وظلم على ظلم ، ظلم بالعقيدة وظلم بالمعتقدين وظلم بالآخرين حيث يعبّد عليهم طريق الظلم ف «لا يكون مأذونا له في القتال حتى يكون

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم في الصحيحين انه سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى فأيها في سبيل الله فقال : ...

مظلوما ولا يكون مظلوما حتى يكون مؤمنا ولا يكون مؤمنا حتى يكون قائما بشرائط الايمان التي اشترط الله تعالى على المؤمنين والمجاهدين فإذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى كان مؤمنا وإذا كان مؤمنا كان مظلوما وإذا كان مظلوما كان مأذونا له في الجهاد» [1].

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٠٢ عن الكافي في الصحيح عن أبي عمر الزبيدي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له اخبرني عن الدعاء إلى الله والجهاد في سبيله اهو لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم به الا من كان منهم ، ام هو مباح لكل من وحد الله عز وجل وآمن برسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن كان كذلك فله ان يدعو إلى الله عز وجل وإلى طاعته وان يجاهد في سبيل الله؟ فقال (عليه السلام) : ذلك لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم بذلك الا من كان منهم ، قلت : من أولئك؟ قال : من قام بشرائط الله تعالى في القتال والجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء إلى الله عز وجل في القتال والجهاد على المجاهدين فهو المأذون له في الدعاء إلى الله عز وجل ومن لم يكن قائما بشرائط الله في الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد والدعاء إلى الله حتى يحكم في نفسه بما أخذ الله عليه من شرائط الجهاد بيّن لي يرحمكم الله. فقال فقال : ان الله عز وجل اخبر في كتابه الدعاء اليه ووصف الدعاة اليه فجعل ذلك لهم درجات يعرف بعضها بعض ويستدل بعضها على بعض . الى ان قال . (عليه السلام) ثم اخبر تبارك وتعالى انه لم يؤمر بالقتال الا اصحاب هذه الشروط ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ وذلك ان جميع ما بين السماء والأرض لله عز وجل ولرسوله ولاتباعهم من المؤمنين من اهل هذه الصفة فما كان من الدنيا في ايدي المشركين والكفار والظلمة والفجار من اهل الخلاف لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمولي عن طاعتهما مما كان في أيديهم ظلموا فيه المؤمنين من اهل هذه الصفات وغلبوهم عليه مما أفاء الله على رسوله فهو حقهم أفاء الله عليهم ورده إليهم وانما معنى الفيء كلما صار الى المشركين ثم رجع مما كان غلب عليه او فيه فما رجع إلى مكانه من قول او فعل فقد فاء مثل قول الله عز وجل : ﴿فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ اي رجعوا ، ثم قال : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال ﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا

﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ استثناء منقطع ،

. بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى امر الله» اي ترجع ﴿فَإِنْ فاءَتْ﴾ اي رجعت ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يعني بقوله : تفيء . ترجع فذلك الدليل على ان الفيء كل راجع إلى مكان قد كان عليه او فيه ، ويقال للشمس إذا زالت قد فاءت الشمس حين يفيء الفيء عند رجوع الشمس إلى زوالها ، وكذلك ما أفاء الله على المؤمنين من الكفار فانما هي حقوق المؤمنين رجعت إليهم بعد ظلم الكفار إياهم فذلك قوله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ ما كان المؤمنون أحق منهم.

وانما اذن للمؤمنين الذين قاموا بشرائط الايمان التي وصفناها وذلك انه لا يكون مأذونا في القتال ... لقوله عز وجل : اذن للذين ... وان لم يكن مستكملا شرائط الايمان فهو ظالم ممن ينبغي ويجب جهاده حتى يتوب وليس مأذونا له في الجهاد والدعاء إلى الله عز وجل لأنه ليس من المؤمنين المظلومين الذين اذن لهم في القرآن في القتال فلما نزلت هذه الآية في المهاجرين الذين أخرجهم اهل مكة من ديارهم وأموالهم أحل لهم جهادهم بظلمهم إياهم واذن لهم في القتال.

فقلت : فهذه نزلت في المهاجرين بظلم مشركي اهل مكة لهم فما بالهم في قتال كسرى وقيصر ومن دونهم من مشركي قبائل العرب؟ فقال : لو كان انما اذن لهم في قتال من ظلمهم اهل مكة فقط لم يكن لهم إلى قتال جموع كسرى وقيصر وغير أهل مكة من قبائل العرب سبيل لأن الذين ظلموهم غيرهم وانما اذن لهم في قتال من ظلمهم من اهل مكة لإخراجهم إياهم من ديارهم وأموالهم بغير حق ولو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم اهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض عمن بعدهم إذ لم يبق من الظالمين والمظلومين احد وكان فرضها مرفوعا عن الناس بعدهم إذ لم يبق من الظالمين والمظلومين احد وليس كما ظننت وكما ذكرت ولكن المهاجرين ظلموا من جهتين ظلمهم اهل مكة بإخراجهم من ديارهم وأموالهم فقاتلوهم بأذن الله لهم في ذلك وظلمهم كسرى وقيصر ومن كان دونهم من قبائل العرب والعجم بما كان في أيديهم مما كان المؤمنون أحق به منهم فقد قاتلوهم بإذن الله تعالى لهم في ذلك (٣).

بحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان وانما اذن الله للمؤمنين الذين قاموا بما وصف الله تعالى من الشرائط التي شرطها الله على المؤمنين في الايمان والجهاد ومن كان قائما .

فان القول ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ لا يحق ذلك الإخراج الإحراج ، فهو ـ إذا ـ يستغرق سلب كل حق في ذلك الإخراج.

ـ بتلك الشرائط فهو مؤمن وهو مظلوم ومأذون له في الجهاد بذلك المعنى ومن كان على خلاف ذلك فهو ظالم وليس من المظلومين وليس بمأذون له في القتال ولا بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف لأنه ليس من أهل ذلك ولا مأذون له في الدعاء إلى الله تعالى لأنه ليس يجاهد مثله وأمر بدعائه إلى الله ولا يكون مجاهدا من قد أمر المؤمنين بجهاده وحضر الجهاد عليه ومنعه منه ولا يكون داعيا إلى الله تعالى من امر بدعاء مثله إلى التوبة والحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يأمر بالمعروف من قد امر ان يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد امر ان ينهى عنه فمن كانت قد تمت فيه شرائط الله تعالى التي وصف بها أهلها من اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مظلوم فهو مأذون له في الجهاد وكما اذن لهم في الجهاد لأن حكم الله تعالى في الأولين والآخرين وفرائضه عليهم سواء الا من علة او حادث يكون والأولون والآخرون ايضا في منع الحوادث شركاء والفرائض عليهم واحدة يسأل الآخرون عن أداء الفرائض عما يسأل عنه الأولون ، ويحاسبون عما به يحاسبون.

ومن لم يكن على صفة من اذن الله له في الجهاد من المؤمنين فليس من أهل الجهاد وليس بمأذون له حتى يفيء بما شرط الله تعالى عليه فإذا تكاملت فيه شرائط الله تعالى على المؤمنين والمجاهدين فهو من المأذون لهم في الجهاد فليتق الله تعالى عبد ولا يغترّ بالاماني التي نهى الله تعالى عنها من هذه الأحاديث الكاذبة على الله التي يكذبها القران ويتبرأ منها ومن حملتها ورواتها ولا يقدم على الله بشبهة لا يعذر بها أفإنه ليس وراء المعترض للقتل في سبيل الله منزلة يؤتى الله من قبلها وهي غاية الأعمال في عظم قدرها ، فليحكم امرء لنفسه وليرها كتاب الله تعالى ويعرضها عليه فانه لا احد اعرف بالمرء من نفسه فان وجدها قائمة بما شرط الله عليه في الجهاد فليقدم على الجهاد وان علم تقصيرا فليصلحها وليقمها على ما فرض الله عليها من الجهاد ثم ليقدم بها وهي طاهرة مطهرة من كل دنس يحول بينها وبين جهادها ولسنا نقول لمن أراد الجهاد وهو على خلاف ما وصفنا من شرائط الله عز وجل على المؤمنين والمجاهدين لا تجاهدوا ولكن نقول قد علّمناكم ما شرط الله تعالى على اهل الجهاد الذين بايعهم واشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنان فليصلح امرء ما علم من نفسه من تقصير عن ذلك ويعرضها على شرائط الله فان رأى انه قد وفي بها وتكاملت فيه فانه ممن اذن الله تعالى له في الجهاد .

أترى ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ هو ـ فقط ـ قول بالأفواه والأعمال لاهية والقلب لاه؟ ذلك القول الهازىء قولة المنافقين ، وهي تتطلب الإفراج دون الإخراج ، بل هو قول ينبئ عن عقيدة صارمة ظاهرة في الأفعال والأحوال على اية حال ، حيث يحرج غير الموحدين لحد إخراجهم من ديارهم : ﴿وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٨٧ : ٨).

فإذن الله لهم بالدفاع دفاع ، وأمرهم إياهم بالدفاع دفاع ، ونصرته إياهم زاوية ثالثة من الدفاع قد يعنيها كلها ﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ ...﴾ وهكذا الأمر ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ..﴾.

فذلك الدفع يجمع مثلثه تكوينا وتشريعا ، تطبيقا منهم ونصرة من الله ، لولاه لكان مسرح الحياة كله للشر والطغيان ، دون اية مجالة للخير والايمان ﴿وَلكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾.

هنا ﴿دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ تعم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع والجهاد ، فالناس الآخرون هم المؤمنون القائمون بشرائط الايمان في الأمر والنهي والدفاع والجهاد ، وليس كل الناس ، ف «لا يأمر بالمعروف من قد أمر أن يؤمر به ولا ينهى عن المنكر من قد امر ان ينهى عنه» [١].

. وان ابى ان لا يكون مجاهدا على ما فيه من الإصرار على المعاصي والمحارم والاقدام على الجهاد بالتخبيط والعمى والقدوم على الله عز وجل بالجهل والروايات الكاذبة فلقد لعمري جاء الأثر فيمن فعل هذا الفعل ان الله تعالى ينصر هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فليتق الله امرء وليحذر ان يكون منهم فقد بين لكم ولا عذر لكم بعد البيان في الجهل ولا قوة الا بالله وحسبنا الله عليه توكلنا واليه المصير» أقول : الأرقام الاخرى راجعة إلى مقتطفات من الحديث فلتراجع.

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٠١ في روضة الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول .

ثم لا تختص هذه الآية بزمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ككل الآيات حيث تحلّق على العالمين إلى يوم الدين ، و «لو كانت الآية انما عنت المهاجرين الذين ظلمهم اهل مكة كانت الآية مرتفعة من الأرض» [١].

«وبحجة هذه الآية يقاتل مؤمنوا كل زمان» ١ ولها مجالات متدرجة منذ حروب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الإمام علي (عليه السلام) والحسين (عليه السلام) ٣ وإلى حروب صالحة اخرى ، حتى حرب القائم المهدي (عليه السلام) ٤ حيث تتحقق هذه الآية حقها وكمالها الشاسع دون إبقاء لكل خوّان كفور.

﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ .. لَهُدِّمَتْ ..﴾ وذلك تهديم عميم لكل آثار الحق واهله وذكر الحق واهله :

﴿لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾.

تهديما لأمكنة الذكر والصلاة لأهل الملل الثلاث وهم هامة اهل

. الله تبارك وتعالى : الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله قال : نزلت في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي وحمزة وجعفر وجرت في الحسين (عليهم السلام) أجمعين وفي كتاب المناقب عنه (عليه السلام) في الآية قال : نحن . نزلت فينا.

(١) المصدر في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن مكان عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله عز وجل : اذن للذين يقاتلون .. قال : ان العامة يقولون نزلت في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أخرجته قريش من مكة وانما هو القائم (عليه السلام) إذا خرج يطلب بدم الحسين (عليه السلام) وهو يقول : نحن اولياء الدم وطلاب العترة.

الكتاب بل وعامتهم ، اليهود والنصارى والمسلمون.

ف «صوامع» هي الامكنة الخاصة المنعزلة عن الناس لعبادة النصارى حيث تتخذ من البراري والجبال ، و «بيع» معابد اليهود والنصارى ، «ومساجد» هي معروفة للمسلمين فما هي «صلوات»؟

أهي العبادة المعروفة الخاصة بالمسلمين مقرونة بذكر أمكنتها «مساجد»؟ ام إنها صلوات كل الفرق الثلاث فان لكلّ صلاة ، فحين تذكر معابدهم ﴿صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَ .. مَساجِدُ﴾ فلتذكر المعني منها كلها وهي «صلوات» فيعني تهديمها كما يناسبها من المنع عن إقامتها في محالها ، ام في كل المحال مختصة وسواها ، ام انها من صلوات العبرانية ، أماكن عبادة اليهود ، او الصابئين.

انها قد تعني كل صلة بالله ، ظاهرة وباطنة ، ولأن الامكنة الثلاث او الأربع هي المحال والمحاور المعدة لعمودها الصلاة ، لذلك أفردت بالذكر ، وكلها تجمعها الصلاة كعبادة خاصة لكل شرعة ، ثم «صلوات» تجمعها وكل صلة بالله ، فردية وجماعية اما هيه ، فان دوائر السوء المستديرة على اهل الحق من طغاة التاريخ لا تبقي ولا تذر أية صلة بالله ﴿لَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بمختلف المدافع في مختلف الميادين والجبهات ، عقائدية وثقافية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وعسكرية أما هيه ، ف ﴿أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾!.

هذه ، ولا سيما الصلاة الإسلامية السامية ، وقد قرنت «صلوات» ب «مساجد» عناية لهذه المعنية بين كل الصلوات والمساجد عبر الشرائع طول التاريخ الرسالي.

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ من ينصره في نفسه تخلقا بأخلاق الله ، وفي الحفاظ على دينه دفاعا عن حرماته : مساجده

وصلواته وكل صلاته ، ذلك هو الذي ﴿لَيَنْصُرَنَّ اللهُ﴾﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ينصر كل قوي في ايمانه ، عزيز في الدفاع عن ايمانه ، وهم :

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

٤١ وترى ما هو المعني ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ حيث هو شرط الوجوب او السماح لهذه الفروع الهامة من الشرائع كلها : «اقام الصلاة . إيتاء الزكاة . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»؟

ان تطبيق هذه الفرائض الثلاث . كسائر الفرائض والواجبات . مشروط بالامكانية والتمكن.

وكما انها مرحليات كذلك الإمكانيات طبقا عن طبق ، فلا تعني ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فقط تمكين السلطة الزمنية والروحية المحلّقة على البلد الذي يعيشه المتمكنون فيه ، فلا يجب . إذا . اقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على من ليست لهم تلك السلطة! فنظرا إلى الواقع المستمر في التاريخ ان السلطات ليست الا بأيدي النمردات والفرعنات تسقط هذه الواجبات الاصيلة عن المؤمنين العائشين تحت وطأة هذه السلطات!.

وانما تعني ان هذه الفرائض تقدّر في تطبيقاتها المرحلية بقدر الامكانيات ، فإذ لا إمكانية لمرحلة عليا لم تجب على من لا يتمكنها ، فانما على كلّ كما يستطيع ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

فهنا لك مكنة عامة تعم كافة المكلفين منذ بداية الرسالات إلى يوم الدين : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ (٧ : ١٠) ف «ان» بالنسبة لذلك التمكين وصلية لا شرطية

حيث الشرط لكل من يعيش على هذه الأرض حاضر ماثل أمامهم ، مهما اختلفت امكانياتهم في تطبيق واجباتهم : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ (٤٦ : ٢٦).

ثم مكنة خاصة كما كان لذي القرنين ﴿قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ..﴾ (١٨ : ٩٥) حيث مكن في مطلع الشمس ومغربها ، ففرضه . إذا . في مرحلة عليا قدر الإمكانية والمكنة ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (١٨ : ٨٤).

وكما حصل ليوسف : ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ﴾ (١٢ : ٥٦) ومثلهما التمكين الموعود في الأرض للمستضعفين المؤمنين شرط ان يجنّدوا طاقاتهم وإمكانياتهم للحفاظ على الايمان : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٢٨ : ٦).

وذلك الوعد مستمر التحقيق للذين يطبقون شروطه في أنفسهم ، وإلى يوم القائم المهدي (عليه السلام) حيث يمكّن الله له وللمؤمنين معه في الأرض كلها [١] ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ (٢٤ : ٥٥) . ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٠٦ في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في آية التمكين ، فهذه لآل محمد إلى آخر الآية والمهدي وأصحابه يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها ويظهر الدين ويميت الله به وبأصحابه البدع والباطل كما أمات الشقاة الحق حتى لا يرى اين الظلم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢١ : ١٠٥).

ثم وإقام الصلاة حقها له مراتب ودرجات حسب الامكانيات ، فإقامها كما تنهى عن الفحشاء والمنكر لفاعلها ومجتمعه الذي يعيشه هي القمة المعنية منها ، وإيتاء الزكاة كما تكفي لمصلحة الدولة الاسلامية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث يحلقان على كل معروف متروك وكل منكر مفعول ، هذه المرحلة من تلك الفرائض القمة تقتضي الامكانية القمة بتمكين مكين في الأرض كلها ، ثم وما دونها لما دونها ، وكما ان هذه الثلاث مفروضة كذلك المحاولة للتمكن من تطبيقها حسب المستطاع مفروضة ، وكما الله ينصر من ينصره في الدفاع عن حوزته ، كذلك ينصره . وباحرى . في خلق جوّ فيه يتمكنون من ذلك الدفاع والتطبيق لشرعته ﴿وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ . ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ دون المتخاذلين البطالين والتنابلة المهملين.

اجل . انه النصر القائم على أسبابه ومقتضياته ، المشروط بتكاليفه وأعباءه ، والأمر بعد ذلك لله ﴿وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ٤٣ وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ ٤٤.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ بسرد من نظائرهم من المكذبين السبعة كالسبعة من أبواب الجحيم المفتّحة طول التاريخ الرسالي على المرسلين ، ذلك تسلية لخاطر الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهؤلاء هم أشد المكذبين للمرسلين إلا ان طبيعة الرسالة الإلهية في هذه الأدنى ان تجتاز هذه المعاريض ، وهي سليمة لا تزداد الا تشعشعا وتلألؤا فلست أنت بدعا من

الرسل في سنة التكذيب فانها مطردة عبر الرسالات كلها.

ثم «ثم اخذتهم» تنديد شديد بهؤلاء الاغباش الأنكاد ، وقد كانوا من سبقوهم أشد منهم وأقوى ، أخذ شديد بعد إملاء وإمهال مديد ، وأمدّهم قوم نوح ثم فرعون ثم إخوانهم «ان أخذ ربك لشديد».

ولماذا يفرد موسى في جملة خاصة بتكذيب مجهول دون ﴿قَوْمُ مُوسى﴾؟ لأنه كذبه القبط الفرعوني كأصل ، مهما كذبه قومه أحيانا عن جهالة وغباوة دون فرعنة وعناد ، كذبه هؤلاء وأولاء رغم آياته البينات التي هي اكثر من آيات الرسل الذين قبله! وضخامة الأحداث التي صاحبتها ، فعليك بالتصبّر يا حامل الرسالة الأخيرة لتجتاز كل العقبات وتتحمل كل العقوبات فانك موعود بالنصر كمن سبقوك من حملة الرسالات ، والمكذبون موعدون بالأخذ النكير ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾؟ : نكراني عليهم عمليا في هذه الأدنى وهي ليست دار جزاء ، فويلاهم إذا من الأخرى ، وانه هنا نكير الطوفان والغرق والتدمير ، والخسف والهلاك والزلازل والعواصف والترويع ما يعجز عنه التعبير.

فتلك مصارع الغابرين المذكورين في صحائف التاريخ أمام الحاضرين والآتين ، إنذارا للمكذبين وتبشيرا للمؤمنين ، ولهم نظائر دونهم او أمثالهم :

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ ٤٥.

قرى كثيرة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي «أهلكناها» مساكن بساكنيها ﴿وَهِيَ ظالِمَةٌ﴾ أهلها ، لحد كأنها هي الظالمة بجوّها ، ﴿أَهْلَكْناها فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ والعروش هي كل السقوف القائمة على الجدران ، والأشجار الجنات القائمة على العمدان ، وعرش السلطان ام أيا

كان من سقوف العمران ، والخاوية هي الخالية كالمنزل الخاوي ، وهي الساقطة كالنجم الخاوي ، فمنها ما هي خالية عن ساكنيها على بقاء عروشها ، ومنها ما هي ساقطة على عروشها حيث خوت وتهدمت فخلت من ساكنيها.

ثم وكأين «من ﴿بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ : لا يستفاد منها حيث هلك أهلوها ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ مجصّص بألوان الجصّ وأشكاله ، وهي كسائر عروشها بين ساقطة مهدومة وخالية محرومة.

مناظر موحشة كئيبة تدعو إلى التأمل في صورها الخاوية وربوعها الخربة ، تستجيش للعبرة ، وإلى جوارها الآبار المعطلة المهجورة الخواء ، والقصور الخالية البواء ، تطوف بها الرؤيا والأشباح والذكريات والأطياف ، والله من أهلها براء!.

وقد يجري ﴿بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ في الإمام الصامت او الغائب و ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ في الامام الناطق [1] أهلكت هذه القرى وفيها حجج الله صامتة تتقي أم ناطقة تهدي أم غائبة ترتجى.

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٠٦ ف كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : البئر المعطلة الإمام الصامت والقصر المشيد الإمام الناطق ومثله في معالي الاخبار باسناده إلى ابراهيم بن زياد عنه (عليه السلام) وثالثة فيه عن نصر بن قابوس عنه (عليه السلام) ورابعة في الكافي موسى بن القاسم البجلي عن علي بن جعفر بن أخيه موسى (عليه السلام) وفيه عن تفسير القمي قال هو مثل لآل محمد (عليهم السلام) قوله ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ هو الذي لا يستقي منها وهو الإمام الذي قد غاب فلا يقتبس منه العلم إلى وقت ظهوره ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ هي المرتفع وهو مثل لأمير المؤمنين (عليه السلام) والائمة منه صلوات الله عليهم وفضائلهم المنتشرة في العاملين المشرفة على الدنيا وهو قوله : ليظهره على الدين كله. .

والمعنيان معنيان في ظاهر التفسير وباطن الجري والتأويل ، تنديدا بمن يهلكون عطاشا وعندهم بئر ، ويسكنون بواء دون ظل وعندهم قصر مشيد ، فليهلكوا ـ إذا ـ بقريتهم ﴿خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾!

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ٤٦

ويلهم! إن مصارع الغابرين أمامهم ماثلة ، وحيالهم شاخصة موحية ، تتحدث بالعبر ، ما بين مرئية بالبصر ومسموعة بالخبر ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سيرا تاريخيا وسيرا جغرافيا ، سيرا في ارض الحياة الغابرة والحاضرة ، ام ساروا دونما سمع ولا بصر من إيحاءات الأرض بآثارها من الصالحين والطالحين ، ليروا عواقب أولاء وهؤلاء هنا في الأولى ، فضلا عن الأخرى.

فالسير في الأرض تحرّيا عن نبهات واعتبارات يكون لمتحريها قلبا به يعقل ، واذنا به يسمع ، آيات آفاقية بين مسموعة ومبصرة ، تنضم إلى أخرى أنفسية ، فتكمل الحجة بما تتبين المحجة ، ارض معروضة للسامعين الذين يعقلون ، والعقلاء الذين يسمعون ، ارض التكوين ، وارض التدوين وأفضلها القرآن [1] فانه معاريض لكل غابر ومستقبل وحاضر ، وهو خير

. وقد قال الشاعر في ذلك :

بئر معطلة وقصر مشرف ... مثل لآل محمد متطرف

فالقصر مجدهم الذي لا يرتقى ... والبئر علمهم الذي لا ينزف

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٠٧ في كتاب الخصال وسئل الصادق عن قول الله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ قال : معناه او لم ينظروا في القرآن.

تأريخ يخبر عن اخبار الماضين وارض الرسالات وفاعلياتها ، وارض المرسل إليهم وانفعالاتهم ، ام اي ارض هي عرض لمن يستعرض.

هناك قلوب لا يعقل بها ، مقلوبة عن ان تعقل انسانيا ، وآذان لا يسمع بها ، صما أن تسمع انسانيا ، فأصحابها لا يهتدون بهدي آياتهم الأنفسية ، فليسيروا في الأرض ، في معرض الآيات الآفاقية ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها﴾ قلوب تعقل ما تراه من حقائق ، ام إذا لا تعقل في أنفسها بالمعاقل الآفاقية ، ف ﴿آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها﴾ ممن يعقل ، فانما الأصل ان تعقل الحقائق بالقلوب البصيرة ، غير المقلوبة العمي الحسيرة ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ﴾ الشاهدة لمشاهد الأرض ، حيث ابصار العيون فاتحة ﴿وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): ليس الأعمى من يعمى بصره ولكن الأعمى من تعمى بصيرته» [1].

فالأعمى البصر الذي له بصيرة يبصر ما لا يبصره من ليست له بصيرة ، كما الأصم المفتوح اذن قلبه له سمع ليس لمن يسمع باذنه ، فانما العمى عمى القلب حيث لا ينفع معها بصر العين ، والبصر هو بصيرة القلب التي لا تضر معها عمى العين.

وانما الأصل في سير الأرض أيا كان آفاقيا ، وسير النفس ، وهو بصيرة

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٥ . اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابو نصر السجزي في الابانة والبيهقي في شعب الايمان والديلمي في مسند الفردوس عن عبد الله بن جراد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .. وفي نور الثقلين ٣ : ٥٠٨ . عن روضة الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : وأعمى العمى عمى القلب ، وفيه قال ابو جعفر (عليه السلام) انما الأعمى عمى القلب.

القلوب التي في الصدور ، فالقلوب العمي هي ميتة مقلوبة لا تنفع معها الأبصار والآذان ، حيث تسمع كحيوان وتبصر كحيوان ، وهذه من صفات الدنيا «من ابصر إليها أعمته ومن ابصر بها بصرته» فأصحاب القلوب العمي يبصرون إليها كغاية ونهاية فيركنون إليها ، واصحاب البصيرة يبصرون بها إلى غايتها الاخرى ونهايتها فلا يركنون إليها.

والقرآن يعبر عمن ليست له بصيرة كما هنا ﴿وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وانهم صم عمي : ﴿وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً﴾ (٢٥ : ٧٣) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ (٤٣ : ٤٠) وأحيانا يزيد عليها البكم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (٤ : ١٨).

هذا . ولكنما اصل البلاء في ذلك الثالوث المنحوس هو «العمى» ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ حيث السمع مدخل لتبصّر القلب ، واللسان مذياع لما يعتقده القلب ، فالقلوب العمي التي لا تحن إلى البصيرة ، لا مدخل إليها سمعا فأصحابها «صم» ولا مذياع لحق فيها فأصحابها «بكم»!

فقد «تاه من جهل واهتدى من ابصر وعقل» [١] «ولا يصح الاعتبار الا لأهل الصفا والبصيرة» [٢] : و «إذا أراد الله بعبد خيرا فتح

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٠٧ . في اصول الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) ... فانها لا تعمى .... وكيف يهتدي من لم يبصر وكيف يبصر من لم يتدبر ، اتبعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واهل بيته عليهم السلام وأقروا بما نزل من عند الله واتبعوا آثار الهدى فإنهم علامات الامانة والتقى.

(٢) المصدر في مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) ... قال الله تعالى : فاعتبروا يا اولي الأبصار وقال عز من قائل : فانها لا تعمى الأبصار .. فمن فتح الله عين قلبه وبصر عينه بالاعتبار فقد أعطاه منزلة رفيعة وملكا عظيما.

عيني قلبه فيشاهد بها ما كان غائبا عنه» [١].

فقلب مقلوب واه ، ذاهل عن التفكر في آيات الله فلا يعقلها ، انه أعمى «وشر العمى عمى القلب» [٢]

وهنا معنى عجيب وسر لطيف في ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ﴾ حيث لا يعني نفي العمى عن الأبصار جملة ، فقد تعمى وقد لا تعمى ، وانما يعني ان الأبصار إذا كانت معها آلة الرؤية من سلامة الأحداق واتصال الشعاعات لم يجز ألا ترى ما يرى ، ولكن القلوب هي على خلافها ، إذ تكون فيها آلة التفكر والنظر وهي معذلك لاهية عن النظر ، متشاغلة عن الفكر ، إلا من هدى الله.

وهنا «في الصدور» بيان لعنوان القلوب ومكانها من الأرواح ، فالعقل الأول مكانه المخ ، والثاني المغربل الأصفى مكانه الصدر وهو برّاني القلب ، والثالث المصفّى مكانه القلب ، فكما ان قلب الجسم هو محور حياة الجسم ، كذلك قلب الروح المستكن في قلب الجسم الكائن في صدره ، انه محور حياة الروح ، ولا يحيى الروح الا ببصره وبصيرته ، فإذا عمي فالروح ميت انسانيا وايمانيا ، مهما كانت له أحظى حظوة الحياة حيوانية.

---

(١) المصدر في عوالي اللئالي وقال (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٢) المصدر علي بن ابراهيم في خطبة لعلي (عليه السلام) وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى وشر العمى عمى القلب.

وفيه عن الخصال عن علي بن الحسين عليهما السلام حديث طويل يقول فيه : ان للعبد اربع أعين عينان يبصر بهما امر دينه ودنياه وعينان يبصر بهما امر آخرته فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب وامر آخرته وإذا أراد به غير ذلك ترك القلب بما فيه.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها﴾ لا عقول ام صدور يعقلون بها ، رغم ان العقل هو الذي يعقل في البداية ، فقد يعقل العقل والصدر ضيق لا ينشرح به ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ فانه استيقان العقول فقط.

ام يعقل الصدر وينشرح بما عقله العقل ، والقلب بعد غير عاقل كما يحق ، فهو عوان بين الكفر والايمان ، فقد يفسق وقد لا يفسق.

واما إذا عقل القلب ما عقله الصدر عن معقول العقل ، فهنالك الايمان القمة المرموقة ، سواء أكان عقله ما عقل ظنا فهو من اصحاب اليمين ، ام علما فهو من السابقين والمقربين : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ (٢ : ٤٥) وذلك ظن القلب عقلا راجحا فيه ، دون ظن الصدر أو العقل!

فلأن أبصار القلوب هي قلوب الأبصار ، لذلك اختصرت هنا فيها كأنها احتصرت ، فما تفيد سائر الأبصار فوائدها المرغوبة منها إلا إذا انتشأت من ابصار القلوب ، فما يبصره البصر او يسمعه الأذن يتنقل إلى بصيرة العقل ، وما يبصره العقل في نفسه أم ببصر العين او الاذن يتنقل إلى بصيرة الصدر ، ومن ثم إلى بصيرة القلب ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ﴾ عينا وسمعا وعقلا وصدرا ﴿وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ التي لا تنفع معها سائر الأبصار ، مهما كانت ابصار العقول او الصدور فضلا عن ابصار العيون.

فالمعرفة ما لم تصل شغاف القلب فهي متقلبة ، مهما اختلفت الدرجات ، فإذا وصلت إلى القلب وأخذ شغافه فهنالك البصيرة التامة الطامة دون تزعزع ولا تلكع.

بل وعمى القلوب تصد الصدور عن الانشراح ، والعقول عن التعقل ، كما الإبصار عن الأبصار ، فتعطّل في عماها كل الأبصار عن الإبصار ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾!

اللهم أنر ابصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمة ، ولا تجعلنا ممن لهم ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ. أَبْصارُها خاشِعَةٌ﴾ (٧٩ : ٩) فانها عميت وكلّت يوم الدنيا ثم ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(٤٧) .

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٣٢ : ٥).

وترى كيف تتجاوب الآيتان هاتان وآية المعارج : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً ، يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ ...﴾ (٦ . ٩)؟ فأين الف سنة من خمسين الف سنة!

علّ المعني من ألف الحج انه في شدة العذاب كألف سنة مما تعدون اي ٣٥٥٠٠٠ ضعفا ، فلما ذا يستعجلون العذاب وكل يوم منه عند ربك في شدته كذلك الضعف الهائل.

ثم والف السجدة . علّه . هو واحد الزمان لعروج الأمر اليه عند الساعة ، فقد يعني انه يعرج امره اليه في واحد من الزمان قدر ما كان يفعله يوم الدنيا من تدبير الأمر في الف سنة مما تعدون ، فالف الحج يصّور شدة العذاب ، والف السجدة تصوير لسرعة النفاد ، وعل الألفين . كل فيما

يعنيه. هما تصويران للكثرة الهائلة ، والألف تعبير عن الكثرة ، دون تحديده بحده ، ام وبهذا الاعتبار يعني ان ﴿يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ . و ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ على سواء حيث الزمان لا يبعّد له قريبا ولا يقرب بعيدا ، فسواء استعجل في عذابهم ام استاجل فهما عنده سيان.

ام لأنهما سيان عنده في قدرته وعلمه فان أخّركم الف سنة مما تعدون فكأنه أخركم يوما ، فان بعد الزمان ليس بعيدا عنده ، فلما ذا تستعجلون في العذاب؟

وخمسون الف المعارج مفصلة في المعارج بتفصيل منقطع المثيل في الفرقان قدر المستطاع من التحصيل ، وعلّ الله يحدث بعد ذلك امرا ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾!

وعلى أية حال فذلك الاستعجال ليس من صالحهم او تعجيزا لرب العالمين فلما ذا يستعجلون؟

وليس الله ليعجّل باستعجالهم ام يؤجّل باستأجالكم ، وانما يعجل من يخاف الفوت ، وليس املاءه الظالمين الا امتحانا ومزيد بلاء :

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ٤٨

فلما ذا يعجل وهم في قبضته واليه مصيرهم عاجلا ام آجلا على سواء : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾؟!

﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ٤٩.

لست ربا ولا أن الأمر بيدي حتى تستعجلوني بالعذاب ام تستأجلون و ﴿إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ من ربي كما أنذر «مبين» في انذاري كما أبين فما ذا تطلبون!

انما انا رسول وليس لي من الأمر شيء! ممحّض كياني بالنسبة للكل اني نذير ، ثم للمهتدين بشير ، ومن بشارتي ونذارتي :

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٥٠).

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾(٥١).

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله عما اخطأوا ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو جنة النعيم ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ مسرعين ﴿فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ﴾ يصارعونها سراعا لإبطالها بكل سرعة ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾.

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٥٢.

هذه الآية من معارك الآراء بين المفسرين المسلمين وسواهم من مستشرقين طاغين بها وباضرابها من متشابهات في ذلك الدين المتين ورسوله النبي الأمين ، فقد أثاروا حولها عجاجة من القيلات التي هي ويلات على هذه الرسالة السامية وعلى كل الرسالات ، وسانده جماعة من المسمّين مسلمين ظاهرين بمظاهر المفسرين والمحدثين [١] حيث تناقلوا مختلقات وثنيات ، ام إسرائيليات وكنسيات جهلا او تجاهلا ، قصورا او تقصيرا بحق القرآن العظيم.

ولو ان هذه الفرية الجاهلة القاحلة على هذا الرسول (صلى الله عليه

---

(١) لقد أحدث رواة من الفريقين احدوثة كاذبة حول الآية ، فرواة من العامة تناقلوا حديث الغرانيق ، وآخرون من الشيعة تناقلوا حديث «محدث» في الآية كأنها ساقطة عنها ، والكل محجوجون بالقرآن والسنة.

وآله وسلم) ثبتت انه قال : تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى ، تجلّبا لخواطر المشركين ، اختلاقا وثنيا يناقض جذور الرسالة التوحيدية ، لكانت إذا فاشية في كافة الرسل والنبيين ، حيث الآية تعم مادة الفرية المتخيلة لكل رسول ونبي دون إبقاء.

ولكن الآية نفسها ، بعسكر مجنّد من آيات سواها وبراهين اخرى معها ، تذود هذه الوصمة الوقحة عن ساحتها وساحة الرسالة السامية ، لو ان الناظر إليها تأملها كما هيه ، دون تحميل للآراء والروايات عليها.

فالذي يبدو أولا من وجه الآية صارحة انها تعرض سنة رسالية شاملة لا تشذ عنها أية رسالة صغيرة ولا كبيرة ﴿**وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ ...**﴾ وطبيعة الحال في السنة الرسالية على اية حال ان تكون بمصلحة الدعوة ، دون خصوص الداعية ، او مصلحية الرعاية لناكريها المعارضين ، فانها ليست تجارة تحلّق عليها المصلحيات الخاوية من مكائد وأكاذيب واحتيالات ، فانها تملك من البراهين القاطعة أقواها ومن السبل الجادة اعبدها وأصفاها ، دونما حاجة إلى سياسات زمنية تحوم حولها شيطنات وإغرائات ، فلا تجد في قاموس الدعوات الرسالية شيئا من هذه المصلحيات القاحلة التي يعبدها أصحابها كاصنام ، وهي من الأخطار الهامة في الدعوات الحقة انحرافا عن نهجها السليم المستقيم غير الملتوي ، وانجرافا إلى هوّات السياسات الإبليسية التي يلعب بها الساسة الزمنيون.

فلا مسايرة في الرسالات الإلهية ولا أنصاف حلول بجعل البلد شطرين ، والدعوة في واجهتين ، فانما هي شطر واحد منذ بدايتها إلى ختامها ، صدقا صارما دونما خليط ، حتى في لفظة قول مهما كانت ثورية وتقية ، وإليكم البحث والتنقير حول ألفاظ الآية :

﴿مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ وهما هنا مرسلان ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ ذلك دليل افتراقهما في بعض الشؤون مع الاشتراك في اصل الرسالة ، وذكر «نبي» بعد «رسول» مما يجعله في قمة أعلى من اصل الرسالة وكما في آيات عدة : ﴿وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ (١٩ : ٥١ و ٥٤) في موسى وإسماعيل ، و ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾ (٧ : ١٥٨) في محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولو كان كل رسول نبيا لكان ذكر «نبيا» بعد «رسولا» زائدا بائدا ، إلا ان تكون النبوة مرحلة راقية من الرسالة وكما تلوح من آياتها.

وعل الروايات المعاكسة بينهما تعني النبوءة من النبإ ، دون النبوّة من النّبوة والرفعة : «نبي منبئ في نفسه لا يعدو غيره ..» وحين يخاطب يا نبيء الله يرده قائلا : لست انا نبيء الله ، انا نبي الله.

إذا ف ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ﴾ يحلّق على كل اصحاب الرسالات بدرجاتهم ، من مرسل دون كتاب او بكتاب ، من رسالة هامشية بكتابها كغير اولي العزم ام رسالة اصلية كهؤلاء الذين دارت عليهم الرحا وهم اصول النبوات وقواعد الرسالات.

إذا ف «إذا تمنى» تشملهم كلهم في التمنيات الرسالية ، التي تحصل أحيانا منها دون كل ادوارها لمكان «إذا».

ثم التمني هو تقدير وجود المحبوب ، وصورته قبل حصوله عند المتمني هي أمنيته وأصله المني : التقدير ، وتمنيات الرسل هي بطبيعة الحال التمنيات الرسالية تقوية لها وتطبيقا بعد حصولها ، وتلك التمنيات بما هي مصحوبة بمحاولات لتحققها تعرقل في مسيرها ومصيرها بإلقاءات الشيطان من جن وانسان ، وكما تعرقل أصل الرسالات منذ بزوغها ، وكلما ازدادت انتشارا وتقبلا وازدهارا ازدادت ضدها العرقلات ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي

﴿الشَّيْطانُ﴾ في تمنيات ودعوات او كتابات الرسل ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ الملقاة فيها ما يناحرها ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ تلك الالقاآت «حكيم» في تحقيق تمنيات الرسل نسخا لما يلقي الشيطان.

ولقد حصلت هذه الإلقاءات الشيطانية كلها في كل الرسالات ، خلقا لأجواء معرقلة دونها ، وتضليلا لمن لا يحن إلى الايمان تمام الحنان ، وإلقاء في كتاباتهم تحريفا وتحديفا ، ولكن الشرعة الاخيرة سليمة من ذلك الأخير.

إذا ففي ذلك العرض الشامل تسلية لخاطر الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله هو الذي ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته.

وهكذا نرى كل كتاب رسالي ينسخ التحريفات التي ألقيت فيما قبلها من كتاب [١] حتى وصل الدور إلى القرآن فأصبح مهيمنا على كافة كتب الوحي.

ونرى ان الأجواء المضلّلة الملقاة من الشياطين تتبدل صالحه هادية زمن الرسل وبعد كل رسول برسالة تالية وتأييدات ربانية ، والقلوب المزعزعة

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ١٠٢ . عن الاحتجاج للطبرسي في حديث عن امير المؤمنين (ع) قال : فذكر عز اسمه لنبيه ما يحدثه عدوه وفي كتابه من بعده بقوله ﴿وَما أَرْسَلْنا ..﴾ يعني انه ما من نبي يتمنى مفارقة ما يعانيه من نفاق قومه وعقوقهم والانتقال عنهم إلى دار الاقامة الا القى الشيطان المعرض بعداوته عنه . عند فقده . بعده في الكتاب الذي انزل اليه ذمه والقدح فيه والطعن عليه فينسخ الله ذلك من قلوب المؤمنين فلا تقبله ولا تصغى اليه غير قلوب المنافقين والجاهلين ويحكم الله آياته بان يحمي أوليائه من الضلال والعدوان ومتابعة اهل الكفر والطغيان الذي لم يرض الله ان يجعلهم كالأنعام حتى قال بل هم أضل سبيلا.

بهذه الإلقاءات تثبت على ما كانت من الايمان واليقين شرط ان تنحو منحى الإيمان واليقين ، وذلك هو النظر الموعود للرسل والمؤمنين :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ (٤٠ : ٥١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ (٣٧ : ١٧٢).

فليست امنية الرسل هي فقط آيات الوحي الرسالية حتي يفسّر إلقاء الشيطان فيها بزيادة عليها ، فانها حاصلة دفعة واحدة ام تدريجية طيلة كل رسالة دون حاجة إلى تمنّ ، ف «تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى» ليست من تلك الإلقاءات في آيات الوحي المحمدي ، بل هي من إلقاءاته على مختلقيها ، مردودة إليهم ومضروبة عرض الحائط ، حيث تضاد طبيعة الرسالة ولا سيما هذه الأخيرة السامية.

وتراه كيف ينطق هكذا عن أضل الأهواء الشركية ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ (٥٣ : ٤) تصون تنطقاته كلها كتابا وسنة عن كل هوى حتى العقل ، حاصرا لها في وحي يوحى؟!

ام كيف يتقول على الله هكذا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٦٩ : ٤٦) ولم نره حينا ما مقطوع الوتين او مأخوذا باليمين ، إلا في مزيد من التامين المكين ، والتأييد الرصين! : ﴿قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾ (١٠ : ٢٥) ثم ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ (١٧ : ٧٤) هذه ، تحتث عنه جذور هذه الفتن ، والمسايرة بها ليتخذوه خليلا كما افتراه عليه مختلقو الغرانيق العلى!.

ثم الله ضمن له ألّا ينسى الوحي فلا يزيد عليه ولا ينقص منه ،

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾ (٨٧ : ٦) وليست أمثال قصة الغرانيق الا من سلطان الشيطان شر سلطان ، وليس الا على الغاوين : ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ (١٥ : ٤٢) ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٨ : ٨٢) ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو من أخلص المخلصين ، وهو أول العابدين.

وفرية الغرانيق تعارض هذه الآيات وطبيعة الرسالات ، وتكذب هذه التضمينات والصيانات لأبعاد الرسالات ، فهي باطلة متنا مهما كثرت فيها الروايات ، كما هي ضعيفة سندا ، حيث رواها المطعون فيهم ، وحتى لو صحت أسنادها فهي كاذبة المتون لمعارضة القرآن ، وان الآية نفسها لا تتحملها.

هؤلاء المختلقون هم من اعداء الرسل وكما قال الله : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥ : ٣١) ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً. وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ. وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (٦ : ١١٣) والافئدة هنا هي القلوب المتفئدة بنيران النكران حيث تستزيد نكرانا على نكران.

فإيحاء زخرف القول غرورا منهم هو ـ فقط ـ إلقاءهم ، سواء في الأجواء والقلوب ، ام في كتب السماء ، والقرآن مصون عن ذلك الإلقاء ، ثم لا تصغى إلى زخرفاتهم إلا ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

ولماذا ﴿أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذ ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ ثم الله لا يصد عن ذلك الإلقاء الزخرف؟ :

﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ

﴿قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ ٥٣ . :

﴿وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ..﴾

فذلك . إذا . بالنسبة للقاسية قلوبهم والمرضى الناكرين للآخرة ، امتحان الامتهان ليزدادوا مرضا على مرض ونكرانا على نكران ، وكما ﴿إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾.

وهو في نفس الوقت مزيد علم وايمان لاولي العلم والإيمان ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ اكثر مما كان ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ ايمانا فوق ايمان ، حيث الايمان يتبلور بالامتحان ، فلما يرى المؤمنون تلك العرقلات الشيطانية ضد الدعوة القرآنية واضرابها ، يتأكدون أكثر مما كان ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

إذا فليس ما يلقي الشيطان فتنة إلا للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين لا يؤمنون بالآخرة ، ولو كان ذلك الإلقاء مثل ما يفترى على رسول الهدى من قصة فرية الغرانيق لكان هو (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه من هؤلاء المرضى الكافرين ، خارجا عن الذين أوتوا العلم! بل هو خارج عن القبيلين حيث المرسلون هم مليء العلم والايمان والإخبات إلى ربهم ، لولاها لما أرسلوا إلى العالمين ، فلقد اجتازوا مراحل الإخلاص من العلم والإيمان بالله والإخبات لله حتى أخلصهم الله واصطفاهم على علم على العالمين : ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (٢٢ : ٧٥) ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾ (٣٨ : ٤٧) ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ (٤٤ : ٣٢).

انهم عليهم السلام كلهم خارجون عن ذلك الثالوث المنحوس ، وحتى عن اولي العلم المتدرجين إلى ايمان الإخبات ، فهم في قمة الإسلام بعد ما اجتازوا درجات الايمان والإخبات إلى ربهم فاصطفاهم ربهم على العالمين.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ بينهم وبين الحق ، فليسوا ليكتفوا بنفاقهم العارم وكفرهم الصارم ، فيستزيدون نفاقا على نفاق وكفرا على كفر بما يلقي الشيطان ، صاغية اليه افئدتهم ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ . ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ (١٧ : ٨٢) ف ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (١٧ : ٢٠).

ف ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم مرضى القلوب لعدم استقامتها في التعقل ، فلا تذعن بما به يذعن إذا استقامت وصحت القلوب ، ثم تقسوا لحدّ لو أرادت الإذعان لما تيسر لها حيث ختم الله عليها بكفرهم وهم ﴿الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ويجمعهما ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ حيث تصغى إلى ما يلقي الشيطان وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وهم هؤلاء الصاغون اليه ﴿لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ غارقون فلا ينجون ، واصحاب الشقاق القريب قد ينجون ، ثم الرفاق للحق المحتارون الفاحصون عنه أولئك هم يؤمنون :

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٥٤.

ان المهديين إلى صراط مستقيم هم الراسخون في العلم ، ويتلوهم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ حيث الامتحان يستدرجهم إلى الرسوخ في العلم فالى صراط مستقيم ، حيث العلم هنا هو الايمان على بينة فانه مغزى المعرفة بالله دون العلم فقط ، وهكذا ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ..﴾ (٣ : ١٨) ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ (٢٩ : ٤٩) ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ (٣٤ : ٦) ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾

(٥٨ : ١١).

ذلك هو العلم الذي يزيد في الايمان ويحقّق الإخبات إلى الرب و «انه» ما يتمناه الرسل وهي مادة الرسالة أصلا وتطبيقا وخيرها أخراها وهي الرسالة الاخيرة. ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ لا سواه ، وان ما يلقي الشيطان هو الباطل ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالحق «فتخبت له لله «قلوبهم» حيث يصبحون لهم رفاقا في أمنياتهم دون فراق ولا شقاق ، متسابقين إلى مزيد الايمان في ميدان السباق ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾!

وهنا في محتملات المراجع لضمير الغائب «انه ـ به ـ له» وجوه عدة ، فقد يرجع الاول إلى ما يتمناه الرسل ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا﴾ بالحق «فتخبت له» : الحق الرب «قلوبهم» ام إلى خير ما يتمنونه وهو الوحي الأخير «القرآن» ماثلا فيه الحق كله ، ممثلا لكل أمنيات الرسالات ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ : القرآن ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ﴾ القرآن ـ او ـ منزّله «قلوبهم» ، ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قد يقوّم كون المرجع هو الصراط المستقيم ، فانه أمنية الرسل كلهم ، ف «انه الحق» نفس الصراط المستقيم ، ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالصراط ، ام ـ وباحرى ـ صاحب الصراط وهو الله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ او ان نسخ ما يلقي الشيطان او جعل ما يلقي الشيطان فتنة ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

اجل انه ليس للشيطان إلقاء الا بإذن الله تخييرا دون تسيير امتحانا للمكلفين ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ﴾.

كما وان نسخه بعد سماح الإلقاء ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلقاء ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ..﴾ وإلقاء ونسخ ﴿لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ..﴾.

ولان قرآن محمد ومحمد القرآن هما الصراط المستقيم القمة ، تعريفا بالله ومعرفة بالله وتجسيدا لشرعة الله ، فالحق من ربك هو القرآن

ورسوله ، وإخبات القلوب ليس إلا إلى الرب : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ (١١ : ٢٣) ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (٢٢ : ٣٤).

هذه قضية العلم والايمان في كتلة العلم الايمان ، ان ما يلقي الشيطان لا يزيدهم الا نورا :

﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ٥٥.

هؤلاء في مزيد الإيمان وإخبات القلوب ، وأولاء ﴿فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ : الحق . أيا كان ، فإنهم في شقاق بينهم وبين الحق أينما حلّ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ وهي ساعة الموت ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو ساعة القيامة الكبرى ، والآخرون هم الذين تقوم الساعة في حياتهم الدنيا ، والأولون في حياتهم البرزخية ، فهذه الكتلة الكافرة لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم قيامتهم الصغرى أو الكبرى ، وهم في هذه الساعات أحياء لم تفدهم حياة التكليف إيمانا إلا مرية.

ف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا هم عامة كفار التاريخ الذين ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ في حياة التكليف ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ بمباغتة الموت حيث لا ينفع الايمان ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو اليوم الآخر.

فتفسير الساعة بالقيامة تفسير عقيم ، إذ لا تبقى المرية حتى القيامة لمن مات قبلها ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾! حيث تكشف الحقائق فلا تبقى أية مرية الا زالت مهما لم ينفع الايمان لمن لم يؤمن من ذي قبل.

فانما الساعة هي ساعة انقضاء التكليف بقيامة صغرى هي الموت ، ام كبرى هي الكبرى ، وقد يعني «عقيم» انه لا ينفع فيه عمل ولا ايمان ، ولا

يوم بعده فانه اليوم الأخير خلاف اليومين الأولين ، وانه لا رجوع فيه عنه إلى حياة التكليف ، وقد كان بالإمكان من قبل وان بصورة خاصة كما يرجعون يوم الرجعة وقد رجع قبلهم افراد وجماعات.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ ٥٧.

«الملك» كله ، ظاهره وباطنه ، إذ كان لهم الملك قبل «يومئذ» استخلافا ظاهرا وعارية مضمونة ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ..﴾ (٥٧ : ٧).

ظاهر كأن يتظاهر لأهل الظاهر أنه لمن يملك ظاهرا وباطنا ، و «يومئذ» يعلمون انه كان لله ولم يكن لهم إلا ظاهر مستخلف فيه ابتلاء وامتحانا.

«يومئذ» حين انقضاء التكليف برزخا وقيامة ، إذا ف «جنات النعيم وعذاب مهين» تعم النشأتين مهما اختلفت جنات عن جنات وعذاب من عذاب.

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ

لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما

تَعْمَلُونَ (٦٨) اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٧٨)

في هذه الآيات تعقيبات لما سلفت من الاذن في القتال ، مهاجرة في سبيل الله مع وعد النصر في ختام بأمر الجهاد حق الجهاد واعتصام بالله ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

والمهاجرة في سبيل الله ـ وحياة المؤمن كلها مهاجرة ـ هي تجرّدة كاملة شاملة من كل ما تهفو له النفس في سبيل غير الله ، إيثارا لتلك السبيل على كل سبيل.

ولا تعني المهاجرة هنا ـ فقط ـ ترك الوطن السكن إلى سواه كما حصل

مرتين في مكة المكرمة ، تارة إلى الحبشة واخرى إلى المدينة ، حيث المهاجرة في الله لا تحمل معها صورة خاصة ، ولا سيما ان السورة مدنية وقد تمت تلك المهاجرات الخاصة ، وانما تعني التباعد عن كل ما يعرقل المسير في سبيل الله ، وأهمه المهاجرة الأنفسية ، ثم الافاقية هي من مظاهرها ، فقد تقتضي الهجرة عن ارض الوطن ، واخرى البقاء في ارض الوطن ، كما قد تنتهي إلى القتل واخرى إلى الموت.

ومن ميّزات هذه الآيات ان تسعا منها متتالية تحمل ثمانية عشر من اسماء الله تعالى ، تختم كل واحدة باسمين من اسماء الله الحسنى بعد الجلالة : وان الله لهو خير الرازقين . العليم الحليم . العفو الغفور . السميع البصير . العلي الكبير . اللطيف الخبير . الغني الحميد . الرؤوف الرحيم ، أحياكم ثم يميتكم».

وهذه ظاهرة منقطعة النظير في الذكر الحكيم ، مما يدل على عظم الموقف للمهاجرين في سبيل الله :

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ٥٩.

هنا ﴿هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ هو الأصل ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا﴾ دون تفاضل ، فقد يقتل في سبيل الله ، وقد يقتل ثم يموت ، ام لا يقتل ولا يقتل ثم يموت ، والمهاجر في سبيل الله هو في ايّ من هذه الحالات الثلاث على سواء في ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ بعد القتل او الموت ، وهو حياة طيبة عند الله ، ممتازة عن سائر الحياة لسائر القتلى او الأموات الذين لم يهاجروا في سبيل الله ، ثم لم يقتلوا او يموتوا في سبيل الله ، مهما كانوا مؤمنين ، فان المهاجرة في سبيل الله تصبّغ القتل او الموت بنفس الصبغة الإلهية

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عابِدُونَ﴾ (٢ : ١٣٨).

إذا فلا يفضّل القتيل في سبيل الله على الميت في هذه السبيل ويفضّل ذلك الميت على القتيل في غير هذه السبيل [١] وقد سمع سلمان الفارسي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : من مات مرابطا اجرى الله عليه مثل ذلك الأجر وامن الفتانين ، واقرؤا ان شئتم ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا﴾ ـ الى قوله ـ ﴿حَلِيمٌ﴾[٢] بل والآيتان نزلتا بشأن الميت في هذ السبيل [٣].

وهذه التسوية هي قضية ﴿إِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ حيث المفاضلة هنا خلاف الخير ، كما هي قضية انه «عليم» بأحوال المهاجرين في سبيل الله ، ولو كان بينهم تفضيل فهو على حدّ السبيل ، وانه «حليم» بعباده ، فلا يختص رزقه بخصوص القتل في سبيله ، حيث الأصل هو المهاجرة في هذه السبيل ، فمن يعيش حياته مهاجرة في سبيل الله ، فهو من اهل هذه الآية على قدر نصيبه من هذه السبيل : ﴿وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٤ : ١٠٠).

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٩ ـ اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الانصاري الصحابي انه كان برودس فمروا بجنازتين أحدهما قتيل والآخر متوفى فمال الناس على القتيل فقال فضالة : مالي ارى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله ، فقال : والله ما ابالي من اي حفرتيها بعثت اسمعوا كتاب الله : ﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا ..﴾.

(٢) المصدر اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمان الفارسي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ....

(٣) في جوامع الجامع وروى انهم قالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك ، فانزل الله هاتين الآيتين.

فهنا الموت وهو أعم من القتل ، وهناك القتل او الموت ، مما يدل على ألّا فارق بينهما ما هما مشتركان ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ اللهم إلا تفارقا في درجات السبيل ، فقد يفضل قتيل على ميت او قتيل ، او ميت على ميت او قتيل ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

ذلك ترغيب عام هام بالنسبة للمهاجرة في سبيل الله ، ولان طبيعة الحال في حياة المهاجرة ان يتربص بها دوائر السوء ، يتلوه وعد النصر :

﴿ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾(٦٠).

فهذه ضابطة عامة هي السماح في المعاقبة بالمثل في سبيل الله ، وأما المعاقب في غير سبيل الله فلا سماح له بالمثل إذا كان تأديبا ام ردّة فعل لما أخطأ ، اللهم إلا من ظلم.

فالمعاقب بالمثل إذا بغي عليه ، انه موعود بالنصر ، حيث عوقب في سبيل الله ، وعاقب بالمثل بإذن الله ، فاذن : ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أترى ما هي الصلة بين وعد النصر لمن بغي عليه وبين عفو الله وغفره؟ علّه بمناسبة شأن النزول حين دافع سرية الرسول في الشهر الحرام عن أنفسهم فتحرجوا [١].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٩ . اخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في الآية قال : ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث سرية في ليلتين بقيتا من المحرم فلقوا المشركين فقال المشركون بعضهم لبعض قاتلوا اصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنهم يحرمون القتل في الشهر الحرام وان اصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ناشدوهم وذكروهم بالله ان يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام الا من بدأهم وقاتلوهم فاستحل الصحابة قتالهم ونصرهم الله عليهم.

ثم المعاقبة بالمثل مسموحة كضابطة وليست واجبة الا أحيانا ، وهي مرجوحة اخرى على سماحها ، ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ (٤٢ : ٤٠) ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٦ : ١٢٦).

كيف لا ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥ : ٣) فالغفر شامل حتى موارد السماح بالاضطرار فضلا عن غير الاضطرار مهما كان مسموحا ، حيث الأصل المحلّق على كل الأصول هو التغامض عن المعاقبة بالمثل ، ما كان دفعا للسيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ ام دون دفع ما لم يخلّف تطاولا من الظالم عليه وعلى من سواه من المظلومين علّه ينتبه.

فقد يبتلى المؤمن بالمعاقبة بالمثل والظرف ظرف رجاحة العفو والإصلاح ، فالنصرة الإلهية تشمله كظروف الرجاحة والوجوب ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عن مثل ذلك اللمم.

ثم الغفر لا يختص برفع اثر العصيان بعد ما كان ، بل ودفع العصيان عن المعفو ، من نفسه ام سواه ، فحين يعاقب المؤمن بالمثل ثم يبغى عليه يعفو الله عما فعل ويغفر له دفعا عنه من نفسه ام سواه عن التطاول ، حيث المعاقبة تخلّف تطاولا طائلا من المعاقب عليه والله يغفره ويستره عن المظلوم ف ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تتبع في معناها موارده ، وهذه المعاني معنية حسب الموارد المختلفة.

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ٦١.

إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل سنة كونية تشبه هذه السنة الشرعية والكونية في المعاقبة بالمثل ، فكما ان الله يولج كلّا في الآخر كظاهرة طبيعية تمر بالبشر ليل نهار وصيف شتاء ، فلا تطاول لليل على نهار ام لنهار على ليل ، اللهم إلا تساويا لردح قصير في ليال وانهار ، مصلحة دائبة قد تخفى على الناس.

كذلك الأمر بين المتعاقبين ، سماحا تكوينيا لمن يظلم ، ثم سماحا شرعيا في معاقبته بالمثل ، ثم نصرة للمنتصر بعد ظلمه إذ بغي عليه ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ قيلات المعترضين ، ومقالات المظلومين «بصير» بحالات أولاء وهؤلاء ، فلا يعاملهم في احكامه التكوينية والتشريعية الا بالعدل ، كما يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، قصرا في كلّ ومزيدا في الآخر كمصلحة كونية وناموس مطّرد طبيعي ، كذلك الله يفعل بخلقه ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ ..﴾.

هنا الليل ـ علّه ـ كناية عن ليل الظلم على المظلوم ، والنهار هو الظالم ، حيث يصيب من حق المظلوم انتقاصا منه ، ثم يولج النهار في الليل ، معاقبة بالمثل المسموحة للمظلوم ، ايلاجا لكلّ في كلّ على سواء فكما الليل يزوي سلطان النهار ، كذلك ليل المظلومين يزوي بظلامه سلطان المتجبرين وينشر سلطان المؤمنين المظلومين.

وفيما نراه لا يعاقب الظالم بمثل ما ظلم واقعيا مهما كان الحكم هكذا شرعيا ، وهو الاكثرية الساحقة من الظلامات؟ فالنشأة الآخرة هي المجالة الاخرى الوافية الموفية لذلك الانتصار ، ف ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ ليست لتختص بالأولى ، والآخرة خير وأبقى ، وقد جمعت النصرة للحسين (عليه السلام) بين النشأتين ، فهنا النصرة لمرامه ومرماه حيث يقود مدرسة الشهادة والنضال في سبيل الله ، مستمرا به القتال ضد الفرعنة اليزيدية الاموية

طوال التاريخ.

ثم نصرة ثانية عالمية بولده القائم المهدي (عليه السلام) [١] ثم في الآخرة النصرة الأوفى ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾. فعلى المظلوم ام له ان ينتصر ، وهو منصور هنا ام في الاخرى ام فيهما كما وعد الله ، والآخرة أوفى فانها هي دار الجزاء.

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ٦٢.

«ذلك» العدل والتعديل في التكوين وفي التشريع ، دونما تخلّف هنا او هناك قيد شعرة ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فلا يأتي منه إلا الحق ، بحكم العلم

---

(١). نور الثقلين ٣ : ٥١٨ في تفسير القمي واما قوله عز وجل «ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ ..» فهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أخرجته قريش من مكة وهرب منهم إلى الغار وطلبوه ليقتلوه فعاقبهم الله تعالى يوم بدر وقتل عتبة وشيبة والوليد وابو جهل وحنظلة ابن أبي سفيان وغيرهم فلما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) طلب يزيد بدمائهم فقتل الحسين وآل محمد صلوات الله عليهم بغيا وعدوانا وظلما وهو قول يزيد حين تمثل بهذا الشعر :

ليت اشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلوا فرحا ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل

لست من خندف ان لم انتقم ... من بني احمد ما كان فعلى

قد قتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل

وكذاك الشيخ اوصاني به ... فاتبعت الشيخ فيما قد سال

فقال الله تبارك وتعالى «وَمَنْ عاقَبَ» يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) «بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ» يعني الحسين (عليه السلام) أرادوا ان يقتلوه «ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ» يعني بالقائم صلوات الله عليه من ولده.

والقدرة والحكمة البالغة ، العادلة الفاضلة ، ﴿وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من آلهة واحكام «هو الباطل» متأرجفا في الحكم ، ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ عليّ عن ان تناله الأوهام ، ومن تطاول في الأحكام ، وكل ما لا يناسب ساحة الرب الملك العلام ، ف «هو العلي» لا سواه ، وهو «الكبير» في علوه لا سواه ، فرب علي غير كبير ، علوا جعليا مؤقتا ، او استعلاء دون حق ، ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ لا يأتي منه إلا الحق العالي الكبير.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ٦٣.

وكما هنا الأرض الموطوءة بالأقدام ، اليابسة الواطئة تحت الأقدام ، تصبح مخضرة بماء السماء ، كذلك الله يفعل بالمظلومين المحطمين حيث ينزل ماء الحياة النصرة إليهم تكوينا وتشريعا في الاولى ، وانتصارا وافيا في الاخرى ، كما وينتصر لهم أحيانا في الدنيا ، وفي آخر احيانها يوم المهدي (عليه السلام) ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ حين تصبح ارض المستضعفين مخضرة بماء الرحمة والقوة والسلطة العالمية.

ولماذا «تصبح» مستقبلا استمراريا بعد «انزل» ماضيا؟ حيث ان اخضرارها نتيجة متاخرة عن إنزال ماء السماء ، هي في نفس الوقت مستمرة حيث الماء النازل إليها هو نصيبها الدائب ، مهما يتبخر صاعدا ويرجع نازلا على طول خط الحياة الارضية ، وهكذا الله يفعل بالمستضعفين المؤمنين ، ثم الانتصار الوفي في دولة المهدي (عليه السلام) ومن ثم الأوفى في الاخرى» ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى﴾(٥٣ : ٣٩ ـ ٤٠).

﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ٦٤.

«له» ملكا وملكا ، قدرة وعلما ، إيجادا واعداما ، خلقا وتدبيرا ﴿ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ صيغة رائجة عن الكون كله ، وهما يشملان ما بينهما وما عليهما ﴿وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ﴾ لا سواه «الغني» دون فقر «الحميد» بكل مدح ودون اي ذم وقدح ، فطبيعة الغنى لمن سوى الله هي الطغيان ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾ وهي في الحق أفقر من كل فقر ، فغناه تعالى كسائر صفاته رحمة كلها.

فالغني قد يكون ذميما حيث يطغى ، ام لا ذميم ولا حميد وهو الذي يتاجر بغناه ، فإذا أنفق يرجو منه عائدة مادية ام روحية ، ام هو حميد إذ لا ينتفع بما ينفق وهكذا الله دون من سواه ، فانه «الغني» المطلق «الحميد» المطلق ، دون حاجة في غناه ولا لؤم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ ٦٥.

«الم تر» يا رسول الهدى ، أم أي راء كان ، رؤية العلم والاحساس ﴿أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ﴾ من جماد ونبات وحيوان ، مما يرى وما لا يرى ، ما على ظاهر الأرض سطحا او جوا ، برا او بحرا ، ام في باطنها ، تسخيرا بعلم موحى ام مستفاد ، وبقدرة موحاة ام مستفادة ، لولا تسخيره لما تسخرت لنا الأرض بما فيها

فلولا التناسق بين طينة الإنسان وطينة الأرض لما استطاع الحياة عليها فضلا عن ان يستفيد منها ، ولو اختلفت كثافة الأرض بجوها عن كثافته وما يحتاجه من جو لما استقرت قدماه عليها كما لا تستقر في كرة اخرى مثل القمر.

فهناك آلافات الموافقات بين الأرض وإنسانها سخرت بها الأرض له ،

وكل ما هنا منه ان يسعى كيف يستفيد منها!

وسخر «الفلك» حال انها ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ حيث الماء الملتطم ، والريح المحتدم ، هما بأمر الله ، كما الفلك بموادها وشكلياتها مصنوعة بأمر الله ، فصانعها بما يعقل ويعلم هو من امر الله ، فلا حول ولا قوة الا بالله ، فالفلك مسخرة لنا بامره مهما كانت لنا محاولات في أمرها ، حيث النصيب الأوفر في أمرها هو امره تعالى ، بل الكل في امره لحد الاختيار دون الإجبار.

وليست الفلك هي ـ فقط ـ السفن الشراعية التي تجري بالأرياح والشراعات بل هي كل جار في البحر ، سواء أكانت تلك السابقة ، ام كل لاحقة تجري بقوات بترولية وكهربية اما هيه من طاقات مرئية وغير مرئية هي مما سخرها لنا ربنا.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ بانجمها ﴿أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ فانها بانجمها محيطة بالأرض مرفوعة عنها دون عمد ترونها : ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ (١٣ : ٢) إذا فثم عمد ولكن لا ترونها ، ف ﴿يُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ بتلك العمد مما نعلمه أولا نعلمه ، وهما مما لا يرى ، فلو لم تكن هناك عمد لتساقطت السماء بانجمها على ما في مركزها ، والأرض من مراكزها حيث هي محاطة بها ، فهي ممسكة بإمساكه تعالى ، لا تقع على الأرض «الا باذنه» فقد يأذن ان تقع اجزاء سماوية على الأرض كالاحجار السماوية التي تصيبها أحيانا كعذابات مؤقتة يسيرة ، ثم ويأذنها كلها ان تقع كما يأذن الأرض ، ان تقع عليها وتتساقط كلّ على كلّ حين ينفرط عقد الكون كله : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

إذا ففوقنا بليارات الأنجم بشهبها وأحجارها وسائر ما فيها ، هي كلها

تهدّدنا بالسقوط لولا رأفته تعالى بنا ورحمته ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.

فيا ويلاه لولا رأفة الله ورحمته بنا ، وهنالك بليارات من السواقط السماوية تهدفنا ، من نيازك نارية تهدف الشياطين ، ومن أحجار تهدف أرضنا ، ولكن الله لا يأذن لها ان تقع على الأرض ، إلا باذنه يوم الطامة الكبرى ، ام طرف ضئيل من ذوق العذاب قبلها!.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ ٦٦.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ﴾ في هذه الدنيا «ثم يميتكم» عنها فتظلون احياء بالحياة البرزخية «ثم يحييكم» للحياة الاخرى بعد النفخة الاولى المميتة عن الحياة البرزخية : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ وكل من هذه وما سخر لنا مما في الأرض ، والفلك تجري ويمسك السماء ، كلها نعم تتطلب الشكر ، و ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ علميا حين يتجاهل هذه النعم ، وعقيديا حين ينكرها ، وعمليا حين لا يصرفها في مرضات الله تعالى.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ ٦٧.

المنسك كما أسلفناه هو منسك الحج ومنه الذبح [١] ام هو كل عبادة

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٩ . اخرج احمد والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الايمان عن علي بن الحسين عليهما السلام : لكل امة جعلنا منسكا هم ناكسوه قال : ذبحا هم ذابحوه حدثني ابو رافع ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أملحين اقرنين فإذا خطب وصلى ذبح أحدهما ثم يقول : اللهم هذا عن امتي جميعا من شهد لك بالتوحيد ولي بالبلاغ ثم أتى بالآخر فذبحه وقال : .

حين إطلاقه كما هنا و «كل امة» تستغرق الأمم الخمس في الشرائع الخمس ، وكل الشرائع هي ناشئة من الأمر ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ..﴾ . ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ حيث الأمر كله لله ﴿وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ ... ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا [1] تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٥ : ١٧ ـ ١٨).

فبمجرد ان منسكا ـ في هذه الشرعة أم أية شرعة بعد اخرى ـ يختلف عما قبلها ، لا يحق لأهل الشرعة السابقة ان يعترضوا على هذه اللاحقة رميا لها بالفرية إذ لا يجدونها في شرعتهم ، كما ليس لأهل اللاحقة ان يعتبروا سابقتها ناقصة غير لائقة ، فان الشرائع بمناسكها هي سلسلة متواصلة ، موصولة بأصل الدين الطاعة ولا واضع لها الا الله ، فكيف يعترض متشرع على الله ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ امر الدين ـ امر الرسالة ـ امر الشرعة او اي امر تحمّله من الله صاحب الأمر ﴿وَادْعُ إِلى رَبِّكَ﴾ بدل الاشتغال بمنازعتهم ف ﴿إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ دون اي عوج ، فعليك يا حامل الرسالة الاخيرة بمواصلة الدعوة دون تلفت إلى من ينازعونك ، ولا تفلت عنها ﴿إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ ٦٨.

انهم ـ أيا كانوا ـ كتابيين او مشركين ، كانوا يمركزون ما يعملون ويقيسون عليه ـ كأصل ـ اعمال من سواهم ، فكانوا يجادلون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في منسكه إذ كان غير منسكهم ، فيؤمر الرسول ـ اذن ـ ان يحوّل امر الله إلى الله : ﴿فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾

ـ اللهم هذا عن محمد وآل محمد ثم يطعمها المساكين ويأكل هو واهله منهما فمكثنا سنتين قد كفانا الله الغرم والمؤنة ليس احد من بني هاشم يضحي.

من عمل ، جدالا في الأمر وسواه من امر ، وما انا الا رسول ف ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ﴾.

ومما كان يجادل فيه المشركون قولهم اعتراضا عليه «اما ما ذبح الله بيمينه فلا تأكلون واما ما ذبحتم بأيديكم فهو حلال» (١) وهم ليسوا من هذه الأمم المجعول لهم منسك هم ناسكوه!.

وكذلك سار الجدال معه بالنسبة لشرعته الخاصة الناسخة لما قبلها ، من المشركين ومن اهل الكتاب وكأنه بدع من الرسل ، حيث المنسك مهما يستعمل في الاضحية ، يعم مناسك الحج كلها ، ثم ومناسك الشرعة كلها فتتجاوب الآية آية الشرعة : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ... لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ ...﴾.

وقد تكون العبادة والمنسك كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، فآية المنسك السابقة تذكره ردف عبادات وقرن الذبح ، مما يدل على معنى خاص ، وهنا منسكا» وهو لكل امة دون قرين ، قد يشمل كافة الطقوس الشرعية.

﴿وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ ..﴾ وقل :

﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ٦٩.

وهكذا يأمره الله تعالى ألا يدع لهم فرصة لينازعوه او يجادلوه مضيا على

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٩ ـ اخرج ابن المنذر عن مجاهد ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ قول اهل الشرك ... وفي نور الثقلين ٣ : ٥١٩ عن جامع الجوامع في الآية روى ان بديل بن ورقاء وغيره من كفار خزاعة قالوا للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله؟ يعنون الميتة.

نهجه دون التفات ولا انشغال بنزاع المنازعين ولا جدل المجادلين ، فإنهم أغلقوا أبواب قلوبهم فهم عن الحق عمون فلا ترجع في جدالهم إلى هدى لهم الا إصرارا على ضلالهم واستكبارا وفرارا.

ان الجدال قد تعني ارشاد المجادل وهم لا يرشدون ، ام استرشادك ف ﴿إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ثم لا تعني . بعد . إلا ما يعنى فليس عليك يا رسول الهدى ولا لك الانشغال بذلك الجدال ، بعد أنك على هدى مستقيم وعلى بينات من الأمر لا مزيد عليها فانها كالشمس في رابعة النهار.

ونهاية المطاف معهم تحويلهم إلى الله : الله اعلم بما تعملون ، والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ، وذلك من مرور الكرام باللغو : ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾(٧٠).

«الم تعلم» يا رسول الهدى! وهو يعلم فاستفهام تقرير ، او «الم تعلم» ايها المجادل مع الرسول. فاستفهام تنكير ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ﴾ لا سواه ، ولا انا الرسول الا ما علمني . يعلم ﴿ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهما الكون كله ، فهو العالم بما نعمل وتعملون ، وهو الحاكم يوم القيامة بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

«ان ذلك» العلم المحيط «في كتاب» مكتوب ثابت في الذكر الحكيم لدى الله العزيز العليم ، «ان ذلك» العلم المكتوب ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ مهما كان على من سواه عسير.

ام «ان ذلك» البعيد المدى من العلم المحيط «في كتاب» ف «ان ذلك» القليل القليل مما تعملون ، علمه ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ فما هو الا قطرة

من يمّ وذرة من طمّ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ٧١.

العبادة وسواها من الأمور المشابهة لها بحاجة إلى برهان قاطع لا مرد له ، من سلطان الوحي القاطع ام سلطان العلم أيا كان ، فطريا او عقليا او علميا او حسيا.

«و» هؤلاء المجاهيل ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾ يثبت السماح فيها ﴿وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أيا كان حيث العلم حجة وقمتّه سلطان الوحي ، فنحن نعلم فطريا وعقليا وعلميا ان المعبود الحق هو الله لا سواه ، وقد نزل به سلطان الوحي تقويما وتبيينا وتفصيلا لما علمناه من سواه ، إذا فعبادة غير الله بحاجة إلى علم وسلطان يسامي ذلك العلم والسلطان ، وهما قائمان على بطلانها انحصارا في الله وانحسارا عما سوى الله ان ﴿لا إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾.

والباء في «به» لمجرد التعدية ، فان «ينزل» معدى إلى مفعول واحد هو «سلطانا» وذلك السلطان يعم الوحي ، والسلطة الربوبية لمن سواه ، فالمعبودون من دون الله يفقدون كل علم وسلطان تستصلحهم لان يعبدوا فعبادتهم . إذا . من دون الله ظلم ما أظلمه ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ . ﴿وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ في أية نشأة من النشآت وأي مسرح من المسارح إذ لا يملكون على ما يفتعلون اي برهان عاذر.

﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ٧٢.

لا فحسب انهم يعبدون من دون الله دون اي برهان ، بل ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا﴾ وهي سلطان الوحي حاملا كل برهان وسلطان ، لما تمر بأسماعهم يظهر في وجوههم من النكرة لسماعها والاعراض عن تأملها ما يعرفه الناظر إليهم ، و «المنكر» هو الحالة المنكرة التي ينكرها الناظرون ، وإنكارهم بسطوة منكرة حيث ﴿يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا﴾ سطوة الإخافة وسطوة البطشة وإذا اسطاعوا فسطوة الإسكات والإماتة.

اجل! انهم ليسوا ممن يناهضون الحجة بالحجة او يقرعون البرهان بالبرهان ، فهم يلجأون إلى البطش والعنف حين تعوزهم الحجة ويخذلهم البرهان ، وتلك هي سنة الطغاة لا يملكون أمام حجج الله وبيناته الا هياج البطشات والغوغائيات وألوان التهديدات.

انهم يزعمون آيات الله شرا يستنكرونه فتظهر على وجوههم حالة النكران لحد السطوة على المؤمنين ، فيناسبهم التهديد الشديد ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ﴾ الذي تحسبونه شرا ، وبشر من حالتكم الشريرة هذه والمنكر الظاهر في وجوهكم من قلوبهم المقلوبة كأنكم محترقون بلهيب الأفئدة؟ ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

فان كنتم تتقون الاستماع إلى آيات الله البينات هنا فهل أنتم تتقون هذه النار الناتجة عن تقواكم الطغوى هناك؟ وانها تسطو بكم اكثر مما كنتم تسطون ، وتحرقكم أشد مما كنتم تحرقون.

﴿أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ٧٣.

المثل هو النموذج من الشيء يمثّله ويبرزه أمام الممثل لهم ، وهذا أمثل مثل لتزييف ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ ضعفا في خلقهم لأضعف

الكائنات : «ذبابا» وأضعف منه أنهم لا يستطيعون استنقاذ سلبهم منه ، ضعفا في بعدية ما أضعفه وهم يدعونهم من دون الله القادر المتعال!

و ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ دون «التي» مما تدل على شمولها لكل معبود دون الله ، ملائكة وأنبياء ، ام طواغيت وأصناما ، وما خلق المسيح طيرا بإذن الله خلقا له حتى تنتقض به تلك الضابطة المستغرقة للمعبودين من دون الله ككل و ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾؟!

﴿أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٧ : ١٩١) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٦ : ٢٠) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٥ : ٣) ،

و «لن» المحيلة هنا في المستقبل تحيل في مثلث الزمان خلق كائن ذي حياة مهما كان ذبابا ام أضعف منه ، وانما يأتي الذباب مثلا لأنه معروف لدى الكل بسلبه ما يسلب.

﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ إحالة لاجتماعهم على إحالة خلقهم للذباب ﴿لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ فلو اجتمعت كافة القدرات الخلقية على خلق ذباب أو بعوضة فما فوقها في الصغر لن يخلقوه : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها ..﴾ (٢ : ٢٦).

لا فحسب بل ولا يستطيعون خلق ذباب او بعوضة اما هيه بلا روح لو خلقت فيها الروح لطارت او تحركت .. بل ولا خلق حبة من حنطة في كل المعامل الكيماوية إن أدخلت في تراب صالح نمت!.

إن خلق الحياة وما دونها ، ذلك مما يختص بخالق الحياة وما دونها ، لا يعدوه إلى سواه مهما كان مسيحا ام سواه ، وخلق البعوضة والذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل والإنسان حيث يشترك الكل في سر

الحياة ، وهنا اختيار الذباب كما هناك البعوضة مثلا لتلك الاستحالة يلقي ظل أضعف الضعف ضعف ما يلقيه غيره من مثل.

والواجهة الثانية منه ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ..﴾ سلبا لمتاع او لصحة وعافية ، ام لعيون وجوارح ، ام للحياة ، حيث الذباب على ضعفه يحمل اخطر الأمراض إذ يحمل ميكروب السل والتيفود والدسنتاريا والرمد.

ومن الطريف فيما يروى من شأن نزولها سلب الذباب من المسك والعنبر حيث لطخوا بهما الأصنام حول البيت الحرام فم يبق من ذلك شيئا الا اكله [1].

عجبا من هؤلاء الآلهة غير الله انهم على عجزهم ان يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، هم أضعف من الذباب حيث ﴿إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وان كانوا احياء فضلا عن أصنامهم الأموات ، فقد ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ طالبا لعبادتهم ومطلوبا ، وطالبا استنقاذ سلبهم ومطلوبا هو المستلب. والي اين يصل هذا الإنسان الظلوم الكفار ، إذ يترك خالقه ويعبد مخلوقا مثله نفسه ام أرذل وادنى! و :

﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ٧٤.

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥١٩ في الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : كانت قريش يلطخ الأصنام التي كانت حول الكعبة بالمسك والعنبر وكان يغوث قبال الباب ويعقوق عن يمين الكعبة وكان نسر عن يسارها وكانوا إذا دخلوا خروا سجدا ليغوث ولا ينحنون ثم يستدبرون بحيالهم إلى يعوق ثم يستدبرون عن يسارهم بحيالهم إلى نسر ثم يلبون فيقولون : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك قال : فبعث الله ذبابا اخضر له اربعة اجنحة فلم يبق من ذلك المسك والعنبر شيئا الا اكله وأنزل الله هذه الآية.

فمن انحس الباطل وأبطله تسوية الخلق برب العالمين ، بل وهم يقدمونهم عليه فيما يعبدون : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ (٣٩ : ٦٧) ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٦ : ٩١).

فحق قدره في ألوهيته ، هو توحيده لمكان قوته وعزته وضعف من دونه وذلته ، وحق قدره في عدالته إقامة قيامته ، وحق قدره في فضله ورحمته أن يوحي إلى بشر من خلقه ، إذا فنكران توحيده وقيامته ووحيه ثالوث من الكفر به ونكران لحق قدره ومنزلته في هذه الجهات الثلاث من ربوبيته ، فقد نزّلوه عن قدر الربوبية ومنزلتها توحيدا وعدلا ورحمة ، وهكذا يكون كل من لا يقدّر الله حق قدره قالا او حالا او فعالا ، مهما كان عدم قدره حق قدره دركات ، كما ان قدره حق قدره درجات.

فما أنحسه من سوى بينه وبين خلقه ثم رجحهم عليه حيث يعبدهم دونه ، ودونه من يخاف عبدا له كما يخافه ثم لا يخاف إلا عبده ، ثم ومن دونه من دونه ، ورأس الزاوية هو الذي يشرك به جاهرا ، ومن ثم الرئاء وهو شرك خفي داخل في نطاق الآية بصورة هامشية ، وكذلك كل قولة او فعلة او حالة تنافي منزلة الربوبية ، جهلا او تجاهلا ، قاصرا ام مقصرا.

﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ٧٥.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ..﴾ (٣٥ : ١).

آيتان تحملان رسالة للملائكة ، أولاهما وكثير مثلها تحمل رسالة من الناس ، ولكن ملائكة الفاطر مطلقة في جعلها رسلا كأنهم هم كلهم دونما استثناء ، وملائكة الحج ﴿يَصْطَفِي مِنَ﴾ تبعيضا لمكان الفعل والجار ،

تتجاوبان باختصاص آية الفاطر بخاصة آية الحج ﴿جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ دون فوضى ، بل كما في الحج اصطفاء منهم كما من الناس ، ام يعني اصطفاء الحج رسالة الوحي إلى رسل الناس ، و «جاعل» الفاطر يعني مطلق الرسالة حيث تعم امور التكوين والتشريع ، إذا فبين رسالة الملائكة والناس عموم مطلق ، فمن رسول ملائكي من لا يحمل وحي الشرعة ومنهم من يحمله ، ورسل الناس انما يحملون وحي الشرعة مهما كانوا يحملون آيات تكوينية حجة على رسالاتهم بإذن الله.

والتجاوب مع ذلك الاصطفاء الرباني سرا وإعلانا ، ذلك من قدر الله حق قدره في ربوبيته ، حيث الرسالة كونية وشرعية هي من قضايا رحمته تعالى وعلمه وقدرته وقوته وعزته ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ ما تسألون من حاجة بلسان قال او حال ، وما تقولون من نكران للرسالة «بصير» بحاجاتكم ومصلحياتكم ، فلولا علمه سمعا وبصرا بسؤلكم لما أرسل ، ولولا قدرته ورحمته على علمه لما أرسل ، ولكنه لقوي عزيز سميع بصير ، مما يفرض الرسالة المصطفاة هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ٧٦.

﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ هو ما يستقبلونه من تصرفات وحالات ومقالات صالحة لرسالة السماء ، ﴿وَما خَلْفَهُمْ﴾ هو ما يستدبرونه من ماضيهم المشرق المشرّف ، ظرفا صالحا ل ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ لذلك الاصطفاء الرسالي ، فليسوا ـ إذا ـ ليتخلفوا عن صالح الرسالة وامانتها ، وذلك قضية علمه المحيط وحكمته المحلّقة على كل ما دق وجل ، جل جلاله وعظم شأنه.

اجل ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ﴾ (٧٢ : ٢٨) ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (١٩ : ٦٤).

فلا احد من رسل الله ملائكية ام بشرية يتخلف عن امر الله ، فإنهم كلهم بعين الله ورعايته ، عالما بأحوالهم في مثلث الزمان ، وان مزعمة الخطأ في رسل الله هي بنفسها تخطئة لله في رسالته ، ومزرئة في علمه او قدرته وحكمته ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في كافة النشآت ، فليس لأحد سواه استقلال بجنبه ولا استغلال لربوبيته ، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ولان الرسالة الإلهية هي من أهم الأمور الربوبية ، فهو ـ لا سواه ـ المرجع له ، يصطفي لها من يشاء من عباده ، من الملائكة ومن الناس ، فانه رب الناس وملك الناس وآله الناس ، فلا بد وانه ينجيهم برسالاته وسائر تأييداته عن الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، اللهم إلا النسناس الذين هم يحاربون الناس وآله الناس.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٧٧.

أوامر اربعة توجّه إلى الذين آمنوا ، من خاص «اركعوا» وعام حين لا يقرن بركوع «واسجدوا» وأعم من السجدة : ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ثم وأعم من العبادة المصطلحة ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ حيث تتحول كل حالات المؤمن ومقالاته وفعالاته عبادة لله لو انه راقب كل ما دق وجل من تصرفاته لتكون بمرضات الله وتقربا وزلفى إلى الله.

أترى ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ هما ركوع الصلاة وسجودها ، والتعبير الخاص الحاصر عنهما هو الصلاة ، فإنهما ولا سيما «اسجدوا» أعم من الصلاة ،

حيث السجدة عبادة طليقة في صلاة وسواها ، بل والركوع حيث يذكر مفردا ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ﴾ (١٧ : ٤٨) ﴿وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ﴾ (٣٨ : ٢٤).

هذا ، مهما تعنى منهما الصلاة أحيانا في ردف دون عطف ، ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢٢ : ٢٦) ﴿.. وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢ : ١٢٥)ولأنهما اظهر مظاهرها وأهم مواقعها.

إذا فالركوع كما السجود عبادة مطلقة في الصلاة وسواها ، اللهم إلا بقرينة تخصها بها ، مثل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٢ : ٤٣) حيث المعية فيه دليل انه في الصلاة جماعة ، مهما قرن بالصلاة قبله ، فانها مطلق الصلاة ، وهذه هي في جماعة.

ولان ظاهر الأمر هو الوجوب ما لم تحوّله قرينة قاطعة ، إذا فالركوع والسجود واجبان عند هذه التلاوة المباركة ، قراءة وسماعا واستماعا ، وكما تجب السجدة في الآية (١٨) من نفس السورة وفي فصلت ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ (٣٧) والنجم ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (٦٢) والعلق ﴿كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١٩) والسجدة ﴿إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً ..﴾ (١٥) والنمل ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢٧ : ٢٥) آيات سبع تتطلب السجدة واجبة ، مهما ترك مجتهدون كثير سجدتي الحج ، خلاف الظاهر من آيتيها ، ونص المروي من روايتها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «فمن لم يسجدهما فلا يقرءهما» [1] وكذلك آية النمل ، واختصوا الوجوب

---

(١) نقلناها بسندين عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وثالث عن علي (عليه السلام) في بداية الحج فراجع وفي جوامع الجامع عن عقبة بن عامر مثلها قال قلت .

بالباقية المعروفة بالعزائم الأربع.

وقد يحمل الأمر في رواية بخصوص الأربع بحالة الصلاة ، وكما تؤيده اخرى [١] ومهما يكن من شيء فالظاهر هو وجوب السجدة في هذه السبع مهما تأكدت في العزائم الأربع او اختص وجوب السجدة في الصلاة بها فلا تجب فيها للثلاث الأخرى ، تأمل.

وقد تلحق بهذه الثلاث آية الرعد والنحل ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ : (١٥ . ٤٨) إلا ان الفرض في هذه التسع درجات حسب الدلالات ، والعزائم الأربع مجمع عليها ، والأحوط وجوبا الحاق ايات الحج والنمل بها ثم الأولى اكيدا آية الرعد والنحل.

والحكم في القراءة والسماع والاستماع على سواء ، والأوسط

. يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في سورة الحج سجدتان قال : نعم ان لم تسجدهما فلا تقرءهما.

واما ما في نور الثقلين ٣ : ٥٢٠ عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث : وفرض على الوجه السجود له بالليل والنهار في مواقيت الصلاة فقال : يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم .. فقد يعني أهم مصاديق واجب السجدة ، لمكان اطلاق الآية متأيدا بنص الرواية.

(١) ومثلها ما في البرهان ٣ : ١٠٤ . الشيخ بسند متصل عن سماعة قال سألته عن الركوع والسجود هل نزل في القرآن؟ فقال : نعم قول الله عز وجل : يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا .. فقلت : فكيف حد الركوع والسجود؟ فقال : اماما يجزيك من الركوع والسجود فثلاث تسبيحات تقول : سبحان الله سبحان الله ثلاثا ومن كان يقوى على ان يقول في الركوع والسجود. فليطول ما استطاع يكون ذلك في تسبيح الله وتحميده وتمجيده والدعاء والتضرع فان اقرب ما يكون العبد الى ربه وهو ساجد واما الامام فإذا أم بالناس فلا ينبغي ان يطول بهم فان في الناس الضعيف ومن له الحاجة فان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا صلى بالناس خفف عنهم.

أوسطها ، والآخر ان أولاها ، وتعاوض الروايات في السماع إيجابا ونفيا مردود إلى القرآن الظاهر في شموله للسماع.

والفقه الطليق عن أسر الشهرات والإجماعات ، حيث يتمحور القرآن والسنة الموافقة للقرآن ، ذلك هو الفقه الحري بالتصديق والتطبيق والله المستعان على ما يصفون.

﴿.. ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ في ركوع وسجود وسواهما من مظاهر العبادة ، وقد اختصا بالذكر من بينها لاختصاصهما القمة في ذلك المظهر ، ثم ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وهو أعم من العبادة المرسومة تحليقا لأفعال المؤمنين على كل خير ، ولتصبح كلها عبادة لله وركوعا وسجودا لله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتشقّون أمواج الفتن وأفواج العراقيل بسفن النجاة ، فان الخير الصامد يذيب الشر ويذبله مهما زمّز وعربد ، فان للحق دولة وللباطل جولة ، وقد يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) خير ما في فعل الخير من قوله : «رأس العقل بعد الايمان التودد إلى الناس واصطناع الخير الى كل بر وفاجر» [١] و «اصطنعوا الخير إلى من هو أهله وإلى من هو ليس من أهله فان لم تصب من هو اهله فأنت اهله» [٢].

و «الخير» علاقة عامة مع عباد الله ، بغير الركوع والسجود والعبادة لله ، فالمؤمن هو الذي يصلح علاقاته مع عباد الله كما أصلحها مع الله.

(١ ، ٢) نور الثقلين ٣ : ٥٢١ في عيون الأخبار باسناده قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه عن أبي جعفر (عليه السلام) من هم بشيء من الخير فليعجله فان كل شيء فيه تأخير فان للشيطان فيه نظرة ، وعن أبي عبد الله (عليه السلام) جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ٧٨.

ترى من هم المراجع للضمائر الجامعة الإحدى عشر؟ أهم كل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المأمورون في سابقة الآية؟ وليس حق الجهاد إلا لأحق المجاهدين! ولا يشمل الاجتباء كل المؤمنين! ولا أنهم كلهم من ولد ابراهيم! وما هم مسمّين ككلّ مسلمين من قبل مهما سمّوا في هذا مسلمين! ولا انهم شهداء على الناس ككل بمن فيهم من غير العدول!.

وعلّ هذه الخمس تكفي دليلا باهرا ان المخاطبين في هذه الإحدى عشر هم جماعة خصوص من المؤمنين ، تناسبهم هذه المواصفات وكما في آية البقرة : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ..﴾ (١٤٣).

١ ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾ الجهاد هو بذل المجهود واستفراغ الوسع في دفع العدو ، وهو في الله عبارة عن دفع ما سوى الله الذي يمانع عن سبيل الله ويصدّ عنها ، وهو كل شيطان مريد ، انفسي كالنفس الامارة بالسوء والهوى وآفاقي ككل شياطين الجن والانس فهكذا ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ (٢٩ : ٦٩) وذلك هو تقوى الله حقا : ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ (٣ : ١٢٤) الجهاد القمّة الطليقة والتقوى القمة المطلقة.

وعلى حد المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله» [1] وكما سماه الجهاد الأكبر حين سمى

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٧١ ـ اخرج ابن مردويه عن فضالة بن عبيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

القتال في سبيل الله الجهاد الأصغر ، فلا يخص القتال وهي أصغر الجهاد ، مهما كان اظهر مظاهر جهاد النفس ان يبذل نفسه في الله فان رأس النبعة هنا هو جهاد النفس لحدّ يفتدي المجاهد بها في سبيل الله» [١].

وكما المجاهدون في الله درجات كذلك الجهاد في الله درجات أعلاها حق الجهاد ، وهي للمؤمنين القمة كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة عليهم السلام ومن نحى منحاهم وحذى محذاهم.

٢ ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ﴾ والجباية هي الجمع فالاجتباء هو الجمع على طريق الاصطفاء ، وهو هنا جمع الطاقات اصطفاء في الله ، دون تبعثر فيها ولا تفرق ، فهو ـ إذا ـ تجنيد كل الطاقات في الله ، دون ان يكون لغير الله منها نصيب ، وتلك هي العصمة أمّا يقاربها ، كما ولم يأت في القرآن فيما أتى لغير المعصومين [٢] وكيف يعم الاجتباء كل الأمة وقليل منهم عدول

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢٣ عن الخصال عن فضيل بن عياض عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سألته عن الجهاد أسنة هو ام فريضة قال : الجهاد على اربعة أوجه ، فجهادان فرض وجهاد سنة لا يقام الا مع فرض وجهاد سنة فاما احد الفرضين فمجاهدة الرجل نفسه عن معاصي الله وهو من أعظم الجهاد ومجاهدة الذين يلونكم من الكفار فرض واما الجهاد الذي هو سنة لا يقام الا مع فرض فان مجاهدة العدو فرض على جميع الامة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب وهذا هو من عذاب الامة وهو سنة على الامام ان يأتي العدو مع الامة فيجاهدهم واما الجهاد الذي هو سنة فكل سنة أقامها الرجل وجاهد في إقامتها وبلوغها وإحيائها فالعمل والسعي فيها من أفضل الأعمال لأنه احياء سنة قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من سن سنة حسنة فله أجرها واجر من عمل بها من غير ان ينقص من أجورهم شيء.

(٢) «شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١٦ : ١٢١) «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى» (٢٠ : ١٢٢) «فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» (٦٨ : ٥٠) «وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ» (٣ : ١٧٩) «وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ.

فضلا عن العصمة الخاصة بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آل الرسول [١].

٣ ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ والحرج هو الذي ليس له مخرج من الحرجة الشجرة التي ليس لها مخرج فهو «أشد من الضيق» [٢] والعسر ، وقد وصف الضيق بالحرج ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ﴾ (٦ : ١٢٥) فليس . إذا . مطلق الضيق ، والرواية المفسرة [٣] له بالضيق تؤوّل ردا على الآية.

مستقيم» . (٦ : ٨٧) ﴿اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (٤٢ : ١٣) ﴿وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ (١٢ : ٦) ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا﴾ (١٩ : ٥٨).

فترى كل هؤلاء المجتبين هم من المرسلين دونما استثناء ، أفلا يكفي هذه شهود صدق على ان «اجتباكم» هنا لا تعم كل الامة.

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢١ في اصول الكافي عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر (عليه السلام) ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ﴾ قال : إيانا عنى ونحن المجتبون ..».

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٧١ . اخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق سعيد بن جبير ان ابن عباس سئل عن الحرج فقال : ادعو لي رجلا من هذيل فجاءه فقال ما الحرج فقال : الحرجة .. فقال ابن عباس هذا الحرج الذي ليس له مخرج ، وفي نور الثقلين ٣ : ٥٢١ في اصول الكافي عن الباقر (عليه السلام) في حديث حول الآية : فالحرج أشد من الضيق.

(٣) المصدر . اخرج ابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن عائشة انها سألت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذه الآية ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ قال : من ضيق وفي قرب الاسناد للحميري باسناده إلى أبي عبد الله (عليه السلام) عن أبيه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : مما أعطى الله امتي وفضلهم به على سائر الأمم ... ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يقول : من ضيق

﴿وَما جَعَلَ﴾ يعم الجعل البدوي ، جعلا لأحكام محرجة ، والاستمراري ، ان يتطلب تطبيق حكم غير محرج حرجا في خاصة الظروف ، فكل حرج أما يستلزم الحرج سواء أكان حكما ام سلبا لحكم ، كل ذلك منفي عن هذا الدين.

فلو ان زوجا يؤذي زوجته ناشزا عما يتوجب عليه. فلا يقيم صلبها ، ولا يقوم بواجب الزوجية معها ، فيذرها كالمعلقة لا ذات زوج ولا أيّم ، ثم ولا يطلقها مضارة إياها ، نظرة أخذ مال منها أمّا ذا ، جاعلا إياها في حياة محرجة ، فان بقيت هكذا كان حرجا عليها ، فليس ـ إذا ـ بقاءها كما هيه مفروضا عليها بحكم الشرعة ، فللحاكم الشرعي تطليقها دون اشتراط اذن من زوجها وهو على حالة المضارة دون تنازل عن احراجه إياها.

فضابطة اللّاحرج محلّقة على كافة الظروف ، نافية للحكم المحرج او العمل المحرج ، او الترك المحرج ، فلا إحراج في الدين إطلاقا من ناحيته ، اللهم الا من أحرج نفسه فانه ليس من الدين في شيء.

فالواجب المحرج ، والمحرم المحرج ، لا يبقى على وجوبه او حرمته ، فضلا عما يحرج ولا يعرف حكمه كطلاق المحرجة في زواجها ، ف ﴿ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥ : ٦).

فهذا الدين كله ، بأحكامه العبادية والسياسية والاقتصادية والحقوقية أما هيه ، ملحوظة فيه فطرة الإنسان وطاقته ، قد لوحظ فيه تلبية الفطرة الطليقة والاتجاه إلى البناء والاستعلاء فلا تبقى حبيسة كالبخار المحتبس ، ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشم.

لذلك ترى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آل الرسول يستندون في نفي الاحراج بهذه الآية ، ويرجعون الامة إليها

كضابطة عامة لا تستثنى [١].

وإذا كان العسر والضيق منفيين في شرعة الإسلام فبأحرى للحرج أن ينفى ، و «في الدين» دون «الشرع» مما يلمح كتصريحه ان الحرج منفي عن كافة الشرائع من الدين ، فلا حرج في دين الله إطلاقا ، في اية شرعة من الدين دونما استثناء ، مهما كان في بعض الشرائع عسر كشرعة التوراة ، كما ويعم الدين أصله إلى فرعه والأصل أحرى ، فلا حرج في اصول الدين كما في فروعه.

٤ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ ألزموا ملة أبيكم ابراهيم ، والجهاد في الله حق جهاده ، وعدم جعل الحرج في الدين ، هما يعنيان ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾.

أترى «كم» هنا تعم الامة الاسلامية؟ وليس هو أباهم ، اللهم الا قليلا منهم هم من ذرية ابراهيم وإسماعيل! وليست هذه الأبوة هي الروحية فانها تأويل دون دليل ، ثم وأحرى بهذا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يكون أبا للامة الاسلامية روحيا كما هو أب لكافة المرسلين ف ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ (٣٣ : ٦)!

فإنما الأبوة هنا هي النسبية مضافة إلى الروحية ، ف «كم» ليسوا هم

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢٤ عن تهذيب الأحكام في صحيحة عبد الأعلى مولى آل سام قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) عثرت فانقطع ظفري فجعلت على اصبعي مرارة كيف اصنع بالوضوء؟ قال : يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل قال الله : «ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». امسح عليه ، وفيه عن الكافي في الصحيح عن ابن مسكان قال حدثني ميسر قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الرجل الجنب ينتهي إلى الماء القليل في الطريق ويريد ان يغتسل منه وليس معه إناء يغرف به ويداه قذرتان؟ قال : يضع يده ثم يتوضأ ثم يغتسل هذا مما قال الله عز وجل ﴿ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

إلا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والائمة من آل الرسول عليهم السلام [١] دون الأمة ككل ، ولا ذرية ابراهيم المسلمين ككل إذ لا يصدق عليهم حق الجهاد ولا الاجتباء مهما شملتهم الابوة الابراهيمية نسبيا ، فها هي الابوة الروحية إلى جانب النسبية وكما في دعاءه (عليه السلام) لهم ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

٥ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا﴾ وترى من «هو» أهو ابراهيم إذ سماهم مسلمين في دعاءه من قبل عند ما دعى : ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ (٣ : ١٣٨) فكيف سماهم «في هذا» الدين؟ فهل هي تسميتهم من قبل؟ ف «في هذا» زائد ، ام سماهم بعد القبل وليس هو معهم في هذا!

فحقا إنه هو الله [٢] إذ سماهم المسلمين من قبل «في الكتب التي

---

(١) المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال في جمع من المهاجرين والأنصار بالمسجد ايام خلافة عثمان : أنشدكم الله أتعلمون ان الله عز وجل انزل في سورة الحج ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ الى آخر السورة فقام سلمان فقال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من هؤلاء الذين أنت عليهم شهيد وهم شهداء على الناس الذين اجتباهم الله ولم يجعل عليهم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم؟ فقال : عنى بذلك ثلاثة عشر رجلا خاصة دون هذه الامة قال سلمان : بينهم لنا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : انا واخي واحد عشر من ولدي ، قالوا اللهم نعم وفيه عن بريد العجلي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) قال الله عز وجل : ملة أبيكم ابراهيم؟ قال : إيانا عنى خاصة.

أقول : وفي تفسير البرهان ٣ : ١٠٦ في رواية قيس «أسباطا» بدل «رجلا» وهو أليق تناسبا لدعاء ابراهيم ، وبدل «من ولدي» من ولد علي.

(٢) نور الثقلين : ٣ : ٥٢٢ الكافي عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر (عليه السلام) قوله تعالى ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الله عز وجل سمانا المسلمين من قبل في الكتب .

مضت» [١] منذ صحف ابراهيم إلى توراة موسى وإلى الإنجيل ﴿وَفِي هذا﴾ الدين المتين حيث السمة البارزة المتميزة في القرآن لخاصة المسلمين وعامتهم هي «المسلمين».

ونموذجا مما في كتابات السماء من هذه التسمية المباركة من التورات حسب الأصل العبراني : «وليشمعيل شمعتيخا هينه برختي أوتو وهيفرتي أوتو وهيربتي أوتو بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ونتتيو لغوى غادل» (تكوين المخلوقات ١٧ : ٢٠)

«ولإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها انا أباركه كثيرا وأنميه كثيرا وأثمره كثيرا وارفع مقامه كثيرا بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واثني عشر إماما يلدهم إسماعيل وأجعله أمة كبيرة» [٢].

وطالما التورات لا يذكر في هذا النص دعاء ابراهيم الا اشارة ، فالقرآن ينص عليه قائلا : ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢ : ١٢٩).

ومن الإنجيل ما في لوقا ٣ : ١٤ : «وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين يسبحون الله ويقولون : الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض

. التي مضت وفي هذه القرآن.

(١) المصدر في اصول الكافي عن بريد العجلي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ قال : إيانا عنى خاصة ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الكتب التي مضت» ﴿وَفِي هذا﴾ القرآن ...

(٢) راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية ٤٠ ـ ٤٣.

إسلام ، وللناس «أحمد».

فالأصل المنقول عنه «إسلام» هو «إيريني» و «احمد» «أيودكيا» كلمتان يونانيتان ، وقد ترجموا «إيريني» ب «سلامة ـ مسالمة ـ سلام» وهي في السريانية «شلم» وفي العبرانية «شالوم» ومن المعلوم ان لفظة «إسلام» تفيد معاني واسعة كالسّلم والسلام والصلح والمسالمة والأمن والراحة ، فالإسلام الذي هتفت به الملائكة هو ذلك الإسلام حيث يضمن كل معاني السلم والسلام [١].

وقد يعني «هو» ـ ضمن المعني منها ـ ابراهيم الخليل حيث سماهم المسلمين من قبل ، وليس ذلك إلا بوحي من الله وكما أوحي إلى نبيين اخرين.

ترى ولماذا اجتباكم مجاهدين في الله حق جهاده دون حرج ، وسماكم المسلمين من قبل وفي هذا؟ :

٦ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .

﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (٢ : ١٤٣) فهؤلاء المسلمون الأكارم الخصوص المعصومون من ذرية ابراهيم وإسماعيل ، هم وسط بين الرسول وبين الناس ، وهم شهداء على الناس والرسول شهيد عليهم.

فما كل مسلم حتى العدول منهم شهيدا على الناس مهما كانوا كافرين ، حيث الشهادة هي على الأحوال والأقوال والأعمال ، وهي تتطلب حضورا لتلقيها ، واستحضارا لإلقائها ، حضورا دائبا عند ما دق وجل من

---

(١) المصدر ١٧٨ ـ ١٨٢.

اعمال الناس ، ما كان الشهداء احياء وأمواتا ، وذلك خارج عن قاصر العلم والحضور لكل عالم من المسلمين وحاضر ، اللهم الا بإشهاد الله ، وليس ليشهد إلا رجالات الوحي والعصمة كما هو مسرود في آيات الشهادة ومن أشملها ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (٤ : ٤١) فهو إذا شهيد الشهداء ، حيث الامة الوسط شهداء على الناس كافة والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) شهيد عليهم تحليقا على الشهداء والمشهود لهم وعليهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦ : ٨٩).

ف «الناس» ـ في تلكم الشهادة ـ هم كل الناس ، مسلمين وسواهم ، وهذه الأمة الوسط هم شهداء على كل الناس والرسول شهيد عليهم [١] وقد تحلّق شهادة الأمة الوسط : الأئمة الاثني عشر ، على شهداء كل امة حيث

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢١ عن الكافي بسند عن الباقر (عليه السلام) في الآية ، فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الشهيد علينا بما بلغنا عن الله تبارك وتعالى ونحن الشهداء على الناس يوم القيامة فمن صدق يوم القيامة صدقناه ومن كذب كذبناه وعن بريد العجلي مثله عن الصادق (عليه السلام). وفيه عن المناقب في خبر ان قوله تعالى : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ فدعوة ابراهيم وإسماعيل لآل محمد (عليهم السلام) فانه لمن لزم الحرم من قريش حتى جاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم اتبعه وآمن به واما قوله : ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ النبي يكون على آل محمد عليهم السلام شهيدا ويكونون شهداء على الناس وفيه عبد الله بن الحسن عن زين العابدين (عليه السلام) في قوله تعالى : لتكونوا شهداء على الناس قال : نحن هم وفيه عن كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى ابراهيم بن أبي محمود عن الرضا (عليه السلام) حديث طويل وفيه : نحن حجج الله في خلقه ونحن شهداء الله واعلامه في بريته.

هم داخلون هنا في نطاق الناس.

وهذه قضية ذلك الاجتباء القمة بالجهاد في الله القمة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة ، أن تحتصر الشهادة المحلقة على الناس كلهم فيهم ، فآية الحج والبقرة حاكمتان على ساير آيات الشهادة.

وهؤلاء الشهداء هم أفضل الشهداء على الأعمال من المرسلين والنبيين والملائكة ، ومن الجوارح والأجواء ومن الأرض وما عليها ، فانها عساكر مجنّدة تتحمل شهادات ثم تلقيها يوم القيامة ، وكما هي مسرودة مشروحة في آيات انعكاسات الأعمال في سجلاتها الأربع.

أترى بعد ان المخاطبين بهذه الخطابات هم كل الامة الإسلامية بمن فيهم فسقة ومنافقون ، فحتى العدول منهم وعلماءهم الربانيون غير المعصومين لا تشملهم هذه الخطابات ، اللهم إلا هامشيا ، أم في بعضها «وكان زيد والله ممن خوطب بهذه الآية» كما يروى [1].

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢٢ في عيون الاخبار باسناده إلى ابن أبي عبدون عن أبيه قال لما حمل زيد بن موسى بن جعفر إلى المأمون وقد كان خرج بالبصرة واحرق دور ولد العباس وهب المأمون جرمه لأخيه علي بن موسى الرضا (عليه السلام) وقال له يا أبا الحسن لئن خرج أخوك وفعل ما فعل لقد خرج زيد بن علي (عليه السلام) فقتل ولولا مكانك مني لقتلته فليس ما أتاه بصغير فقال الرضا (عليه السلام) يا امير المؤمنين لا تقس اخي زيدا إلى زيد بن علي (عليه السلام) فانه كان من علماء آل محمد ، غضب لله تعالى فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر (عليه السلام) انه سمع أباه جعفر بن محمد (عليه السلام) يقول : رحم الله عمي زيدا انه دعا إلى الرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولو ظفر لو فى بما دعا اليه ، ولقد استشارني في خروجه فقلت له : يا عمي ان رضيت ان تكون المصلوب بكناسة فشأنك فلما ولى قال جعفر بن محمد عليهما السلام ويل لمن سمع داعيته فلم يجبه ، فقال المأمون يا أبا الحسن أليس قد جاء فيمن ادعى الامامة بغير حقها.

٧ ﴿... فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ٧٨.

تلك الأمانة الكبرى تتطلب علاقة دائبة بالله : ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وصلة بعباد الله: ﴿وَآتُوا الزَّكاةَ﴾ واعتصاما بالله على أية حال : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ لكي يعصمكم عن الزلات في هذه السبيل الشائكة ، المليئة بالأشلاء والدماء والعرقلات «هو مولاكم» لا سواه ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ومن لطيف الأمر في هذه الآية الاخيرة من السورة ، ان واجهات الخطابات فيها تعم المسلمين في ظاهر الحال ، وهي خاصة بالقادة المعصومين عند التأمل والتعمل ، وذلك لكي يدرس المسلمون في مدارس العصمة والطهارة هذه الدروس القيمة القمة.

فالصلاة المقامة بشروطها الظاهرية والباطنية هي صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد ، والزكاة هي صلة الجماعة المؤمنة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد ، والاعتصام بالله هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها بين المعبود والعباد.

وبهذه العدّات وما سبقتها تملك الامة المسلمة بقياداتها الصالحة ـ معصومة وعادلة ـ ان تقود البشرية جمعاء ـ

ما جاء؟ فقال الرضا (عليه السلام) ان زيد بن علي (عليه السلام) لم يدع ما ليس له بحق وانه كان أتقى لله تعالى من ذلك إنه قال : أدعوكم إلى الرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وانما جاء ما جاء فيمن يدعي ان الله تعالى نص عليه ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم وكان زيد والله ممن خوطب بهذه الآية ﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ﴾.

(٢٣) سورة المؤمنون مكية

وآياتها ثمانى عشر ومائة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩) أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ (١١)

سورة «المؤمنون» وكل سور القرآن هي للمؤمنين ، الا ان الجو الشامل فيها هو جو الايمان ، صفات الايمان ، ودلائل الايمان في الآفاق والأنفس ، وحقيقة الايمان وحده وتفرق الناس عنها ، وما للمؤمنين من فضائل الأخلاق والأعمال ، ولمن سواهم من رذائل الأخلاق وسفاسفها. فهي تبدء بفلاح المؤمنين الحاملين شروطات الايمان في آيات عشر «من أقامهن دخل الجنة» [١] و ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ توضيحة للعاشرة دون ان تحمل مواصفة زائدة.

ثم عرضا لخلق الإنسان وخلق الطرائق السبع وإنزال نصيب الأرض من ماء السماء ، ثم قصصا من دعوات الرسل وعرقلات الناكرين منذ نوح ورسل بعده إلى موسى وهارون وعيسى بن مريم ، توحيدا لدعواتهم وأممهم ، وإلى خاتم النبيين ، بما يطمها ويتمها من دلائل التوحيد والوحي والمعاد ، وكلها تحول حول صالح الايمان وطالح الايمان.

وفي بعض الروايات اليتيمة ان عليا (عليه السلام) قرء هذه الإحدى عشر عند ولادته أمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) [٢] وفي لطيمة انه

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٢ . اخرج جماعة عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا انزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فانزل عليه يوما فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا ثم قال لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر واخرج آخرون عن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة كيف كان خلق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت : كان خلقه القرآن ثم قالت : تقرأ سورة المؤمنون فقرأ حتى بلغ العشر فقالت هكذا كان خلق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٢) بحار الأنوار ٣٥ : ١٧ في رواية شعبة عن قتادة عن انس عن العباس بن عبد .

قرء حينذاك كافة الكتب السماوية ومنها القرآن من أولها إلى آخرها [١].

. المطلب ورواية الحسن بن محبوب عن الصادق (عليه السلام) والحديث مختصر . انه انفتح البيت من ظهره ودخلت فاطمة فيه ثم عادت الفتحة والتصقت وبقيت فيه ثلاثة ايام فأكلت من ثمار الجنة فلما خرجت قال علي (عليه السلام) السلام عليك يا ابه ورحمة الله وبركاته ثم تنحنح وقال : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد افلحوا بك أنت والله أميرهم تميرهم من علمك فيمتارون وأنت والله دليلهم وبك والله يهتدون ووضع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لسانه في فيه فانفجرت اثنتا عشرة عينا قال فسمى ذلك اليوم يوم التروية فلما كان من غده وبصر علي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وضحك في وجهه وجعل يشير اليه فأخذه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت فاطمة : عرفه فسمي ذلك اليوم عرفة فلما كان اليوم الثالث وكان يوم العاشر من ذي الحجة اذن ابو طالب في الناس اذانا جامعا وقال : هلموا إلى وليمة ابني علي ونحر ثلاثمائة من الإبل والف رأس من البقر والغنم واتخذوا وليمة وقال هلموا طوفوا بالبيت سبعا وادخلوا وسلموا على علي ولدي ففعل الناس ذلك وجرت به السنة ووضعته امه بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ففتح فاه بلسانه وحنكه واذن في اذنه اليمنى واقام في اليسرى فعرّف الشهادتين وولد على الفطرة.

أقول وفي الحديث من الغرائب ما يعجز عنها التعبير ، وكأن مختلق الحديث نسي ان النبي بعد لم ينبأ فكيف اذن واقام ، وابو طالب كان فقيرا ذا عيال فكيف قدم هذه الوليمة التي كانت تكفي اهل مكة أياما عدة وسنة الطواف هي كانت منذ آدم إلى ابراهيم وإلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فكيف كانت منذ هذه الولادة ... ورواه مثله الشيخ الطوسي في اماليه.

(١) بحار الأنوار ٣٥ : ١٩ ح ١٥ خص ضه روي عن مجاهد عن أبي عمرو وأبي سعيد الخدري قالا كنا جلوسا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ دخل سلمان الفارسي وابو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وابو الهيثم بن التيهان وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وابو الطفيل عامر بن واثلة فجثوا بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والحزن ظاهر في وجوههم فقالوا : فديناك بالآباء والأمهات يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انا نسمع من قوم .

ذلك! مع العلم ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه لم ينبأ

. في أخيك وابن عمك ما يحزننا وانا نستأذنك في الرد عليهم فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) وما عساهم يقولون في اخي وابن عمي علي بن أبي طالب؟ فقالوا يقولون : اي فضل لعلي في سبقه إلى الإسلام ، وانما أدركه الإسلام طفلا ونحو هذا القول ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) فهذا يحزنكم؟ قال : اي والله فقال : بالله اسألكم. هل علمتم من الكتب السالفة ان ابراهيم هرب به أبوه من الملك الطاغي فوضعت به امه بين أثلال بشاطئ نهر يتدفق يقال له حزر ان من غروب الشمس إلى اقبال الليل فلما وضعته واستقر على وجه الأرض قام من تحتها يمسح وجهه ورأسه ويكثر من شهادة ان لا اله الا الله ثم أخذ ثوبا واتشح به وامه تراه فذعرت منه ذعرا شديدا ثم هرول بين يديها مادا عينيه إلى السماء فكان منه ما قال الله عز وجل : وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض . ثم نقل قصة موسى وعيسى فقال . : وقد علمتم جميعا ان الله عز وجل خلقني وعليا من نور واحد . الى قوله . ولقد هبط حبيبي جبرئيل في وقت ولادة علي ويقول : هذا أوان ظهور نبوتك وإعلان وحيك وكشف رسالتك إذ أيدتك بأخيك ووزيرك وصنوك وخليفتك ومن شددت به ازرك وأعلنت به ذكرك فقم اليه واستقبله بيدك اليمنى فانه من اصحاب اليمين وشيعته الغر المحجلون فقمت مبادرا فوجدت فاطمة بنت اسد ام علي وقد جاء لها المخاض وهي بين النساء والقوابل حولها فقال حبيبي جبرئيل يا محمد نسجف بينها وبينك سجفا فإذا وضعت بعلي تتلقاه ففعلت ما أمرت به ثم قال لي امدد يدك يا محمد فمددت يدي اليمنى نحو أمه فإذا انا بعلي على يدي واضعا يده اليمنى في اذنه اليمنى وهو يؤذن ويقيم بالخفية ويشهد بوحدانية الله عز وجل وبرسالاتي ثم انثنى الي وقال : السلام عليك يا رسول الله ، ثم قال لي يا رسول الله أقرء؟ قلت : اقرأ ، فوالذي نفس محمد بيده لقد ابتدأ بالصحف التي أنزلها الله عز وجل على آدم فقام بها ابنه شيث فتلاها من أول حرف فيها إلى آخر حرف فيها حتى لو حضرت شيث لأقر انه احفظ له منه ثم تلا صحف نوح ثم صحف ابراهيم ثم قرأ توراة موسى حتى لو حضر موسى أقر له بانه احفظ لها منه ثم قرأ زبور داود حتى لو حضر داود لأقر بانه احفظ لها منه ثم قرأ إنجيل عيسى حتى لو حضر عيسى لأقر بانه احفظ لها منه ثم قرء القرآن الذي أنزله الله علي من اوله إلى آخره فوجدته يحفظ كحفظي له الساعة من غير ان اسمع منه آية ثم خاطبني وخاطبته بما يخاطب الأنبياء .

بعد ولما ينزل عليه القرآن الا بعد اثنتي عشر سنة ، فما كان يعلم من القرآن شيئا : ﴿ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ﴾ (١١ : ٤٩) ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٩ : ٤٨) ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ (٤٢ : ٥٢)!

فهل نزلت على علي (عليه السلام) هذه الآيات ، أم القرآن كله بسائر كتابات السماء ، قبل ان ينزل القرآن على رسول القرآن ، فأصبح ـ إذا ـ رسولا قبل الرسول ، ام علمها دون وحي حيادا عن رسالته ، ولم يكن الرسول يعلمها دون وحي ، إذا فهو اعلم من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)!

ومما لا ريب فيه أن عليا علم ما علم بتعليم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فكيف علم ما قرأه قبل تعليمه بوحي أم دون وحي! إذا فهذه الروايات اليتيمات لطيمات من إسرائيليات وكنسيات ووثنيات ، والهدف من اختلاقها القضاء على سيادة القرآن وكرامته ، والجهلة البسطاء من الشيعة المتطرفين يتقبلونها زعما انها ترفع من كرامة الإمام ، غفلة او تغافلا عن انها من واجهة اخرى تمس من كرامة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

لا نقول ان الصبا تمنع عن نزول الوحي فان يحيى ﴿وَآتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ والمسيح قال في مهده : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ ..﴾ فليس من المستحيل ذاتيا ان يقرء الامام علي حين ولادته هذه الآيات ام القرآن كله ، ام كتب السماء كلها.

. والأوصياء ثم عاد إلى حال طفوليته ، وهكذا احد عشر اماما من نسله فلم تحزنون وماذا عليكم من قول اهل الشك والشرك بالله ...

ولكنه من المستحيل ان يوحى وحي الرسالة إلى من ليس برسول ، وقبل ان يوحى إلى الرسول!

والنظر الصائب المجرد ، المتحلل عن العصبيات العمياء الجهلاء يطمئن الناظر إليها انها من المختلقات الزور ، وساحة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واهل بيته الطاهرين براء من هذه التقولات التي تمس من كرامة الرسالة والشرعة القرآنية.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١

الفلح هو الشق ، والفلّاح : الأكّار الذي يشق الأرض للزراعة ، والفلاح الظفر وإدراك بغية دنيوية او أخروية او الطليقة الشاملة لهما ، والآخرة خير وأبقى.

فالإفلاح هو بالغ الفلاح دخولا فيه [١] تشقيقا لأرض الحياة ، وسحقا لكافة الشهوات والحيونات ، وإزالة لكل العرقلات ، فوصولا إلى بغية الإيمان في الدارين وكما وعد الله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ (٤٠ : ٥١).

ثم «المؤمنون» هنا وفي سواها لا يخص الذكور ، بل هم كل من حمل الإيمان ذكرانا وإناثا ، اللهم إلا في البعض من هذه المواصفات التالية التي لا تناسب الأناث ك ﴿ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾.

وترى «المؤمنون» هنا تشمل كل من آمن أيا كان ، مهما حمل في قلبه . فقط . صورة الإيمان ، دون ان يأتي بسيرته؟ كلّا! بل هم المؤمنون الموصوفون بهذه الثمان عدد أبواب الفردوس :

---

(١) كأبشر دخل في البشارة ويقال افلحه صيّره إلى الفلاح.

١ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾ ٢.

فالصلاة فيها هي البداية بعد الايمان خشوعا فيها ، وهي النهاية حفاظا عليها ، وبينهما متوسطات ، وهكذا تكون الصلاة قاعدة الايمان وعموده ، وزائدة لسائر شروط الايمان.

وهنا عنصر الخشوع هو القلب لقالب الصلاة ، كما هو قلب لسائر العبادات والطاعات : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ﴾ (٢ : ٤٥) ﴿وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾ (٢١ : ٩٠) ﴿خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ (٣ : ١٩٩).

والخاشع في صلاته وهي قلب العبادات ، هو بطبيعة الحال خاشع لله في سائر الحالات ، فحياته إذا حياة الخشوع لله في كافة التصرفات ، فلا يخشع لما سواه ، ولا يترك الخشوع لله.

والخشوع هو ضراعة القلب كما الخضوع هو ضراعة القالب ، وإذا ضرع القلب ضرع سائر جوانح الإنسان وجوارحه فان «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» فخشوع إمام الأئمة خشوع وخضوع لسائر الائمة والمأمومين ، وقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال : «اما انه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» [1].

ثم وخشوع المؤمن هو خشوع الايمان تسوية فيه بين القلب والجسد

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣ وفي نور الثقلين ٣ : ٥٢٨ في المجمع روي ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى رجلا .. وفيه عن الخصال عن امير المؤمنين (عليه السلام) ليخشع الرجل في صلاته فانه من خشع قلبه لله عز وجل خشعت جوارحه فلا يعبث بشيء.

دون نفاق ، ف «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق» [١] واما إذا زاد خشوع القلب على الجسد فما هو بنفاق مهما كانت التسوية اولى ، اللهم الا في مظان الرئاء او مرجح سواه هو قضية خشوع القلب.

ف «إذا قام أحدكم في الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تميل اليهود فان سكون الأطراف من تمام الصلاة» [٢] والالتفات في الصلاة «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» [٣] ف «لا يلتفت أحدكم في صلاته فان كان لا بد فاعلا ففي غير ما افترض الله عليه» [٤].

فالى من تلتفت في صلاتك وأنت أمام ربك وهو خير لك ممن تلتفت اليه وما يلفتك اليه! اللهم إلا لفتة غير قاصدة فيما تضطر اليه.

ولان الخشوع هو في الأصل فعل القلب ، فله النصيب الأوفر بالنسبة

---

(١) المصدر في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... وفي الدر المنثور ٥ : ٣ اخرج الحكيم الترمذي والبيهقي في شعب الايمان عن أبي بكر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تعوذوا بالله من خشوع النفاق قالوا يا رسول الله وما خشوع النفاق قال خشوع البدن ونفاق القلب.

(٢) الدر المنثور ٥ : ٣ . اخرج الحكيم الترمذي من طريق القاسم بن محمد عن اسماء بنت أبي بكر عن ام رومان والدة عائشة ، قالت رآني ابو بكر أتميل في صلاتي فزجرني زجرة كدت انصرف من صلاتي قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : إذا قام ..

(٣) المصدر اخرج ابن أبي شيبة والبخاري وأبو داود والنسائي عن عائشة قالت سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الالتفات في الصلاة فقال : هو اختلاس ...

(٤) المصدر . اخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة انه قال في مرضه اقعدوني اقعدوني فان عندي وديعة او أودعنيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لا يلتفت ..

للقالب ، والصلاة تنقسم حسب درجات الخشوع وكما يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) [١] ف «انما الخشوع لمن تمكن وتواضع» [٢] فالصلاة الخاشعة لله هي قطع كافة الصلات عما سوى الله ، فيصبح المصلي موصول القلب وبكليته الى الله ، بإعظام المقام وجمع الاهتمام ، عارفا ذلّه أمام العز المطلق الذي لا يرام ، ﴿وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾.

فخشوعك في صلاتك هو على قدر معرفتك بالله وعقلك عن الله [٣] وحضورك بمحضره ، فمن المصلين من هن غيّب في صلاتهم فما صلاتهم هذه ـ إذا ـ بصلاة ، ولولا امر الله لكانت مزرئة ومسخطة ، وعليهم ان يستغفروا من هذه الصلاة الغائبة غير الخاشعة.

والمصلون هم الذين تستشعر قلوبهم رهبة الموقف بين يدي الله بلقاء الله ، فتسكن وتخشع لله ، فيسري خشوعهم إلى الجوارح والملامح ، ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته ، ويتوارى عن مشاعرهم وحواسهم كل ما سوى الله ، فلا يشهدون الا الله ، ولا يتذوقون الا حظوة لقاء الله ، وعندئذ تتصل هذه الذرة التائهة بمصدرها ، وتجد الروح الحائرة طريقها ، ويعرف القلب المتقلب مثواه ومأواه ، وتتضاءل كل القيم والأقدار الا قدر الله ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾! والصلاة معراج المؤمن ، والمصلي يناجي ربه [٤] فكيف تكون نجوى ومعراجا الصلاة الفاضية عن الخشوع ، الخاوية عن الخنوع لله؟ وافحش الفحشاء وأنكر المنكر لمن لا تنهاه صلاته

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٤ ـ اخرج احمد عن أبي اليسر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : منكم من يصلي الصلاة كاملة ومنكم من يصلي النصف والثلث والربع حتى بلغ العشر.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٧٧ قوله (عليه السلام) : ....

(٣ ، ٤) المصدر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس للعبد من صلاته الا ما عقل»

عن التفكك ، والتلفّت إلى من سوى الله. [١]

ف ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ﴾ (٢٩ : ٤٥) ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (٢٠ : ١٤) و «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا» [٢].

ف «كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب» [٣].

فما ذا تفيدك صلاتك في ألفاظ وافعال خاوية والقلب لاه ، وليس هذه المظاهر إلا بيانات عما في القلب ، إذاعة صوتية وصورية عن خشوع القلب وبخوعه.

ولان الخشوع في الصلاة معدود في عداد مواصفات الايمان فتركه ـ إذا ـ خلاف الايمان حيث الايمان المستكن في القلب يتطلّب خشوع القلب في معراجه.

فهو واجب من واجبات الصلاة قدر الإمكان ، والمتهاون عنه متهاون بالصلاة ، فمهما صحت صلاته قالبيا لم تكن لتصح قلبيا ، وأركن أركان الصلاة هي صلاة القلب ، البارز في صلاة القالب ، و «ان العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها» [٤].

٢ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٣).

إعراضا عن لغوهم واللغو من غيرهم [٥] فإعراضا شاملا عن اللغو

(١ ، ٢ ، ٣). المصدر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٤) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٧٩ وروى ايضا مسندا قال عليه السلام : ...

(٥) نور الثقلين ٣ : ٥٢٩ عن المجمع روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال .

كله أيا كان ومن أيّ كان قالة او فعالة ام حالة ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ (٢٥ : ٧٢) ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ (٢٨ : ٥٥).

واللغو ـ ككل ـ هو ما لا يعتد به ولا يعنى حيث يورد لا عن رويّة ولا فكرة فيجري مجرى اللّغا وهو صوت العصافير حيث لا نفهم منه شيئا وإن تفهم هي وتعني ما تعنيه ، ولكنه لا يخص الصوت ، بل يعم كل حركة وسكون في مثلث الأحوال والأقوال والأفعال ، منك وممن سواك ، فتعيش حياة تعني الحيويّة الإنسانية الإيمانية ، دون الحيوانية اللاغية اللاهية مما لا يعنيه الايمان.

والإعراض هو حالة نفسانية ، فهو يعم الترك ، والمؤمن أيا كان يعترضه أحيانا اللمم وما فوقه فضلا عن اللغو ، فلم يقل هنا «تاركون» كيلا يخرج هكذا مؤمنين عن ﴿أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وانما «معرضون» مهما يعتريهم بطبيعة الحال لغو وما فوقه.

ومن حق الإيمان أن يتطلب الإعراض عن اللغو الذي يرفضه الإيمان ، ترفّعا لنفس المؤمن النفيسة عن خسيسة الأعمال وخسة الأحوال والأقوال ، واعتلاء عن الإشتغال بما يمس من كرامته وشرافته ، وتعلقا بجلائل الأمور وعظائم المقاصد.

لست اعني ان المؤمن لا يتفرج ولا يمزح إذا كانا في سبيل التفريج عن التضايق ، والتخريج عن المضايق ، وانما اللغو هو ما لا يعنى لا في نفسه وفي لا غايته ، وأما ما يفيده تفريجا عن كربته وتفريحا عن كآبته ، مزاحا او لعبا اما إذا في هذه السبيل فهي سبيل الايمان وقضيته.

. في الآية ـ ان يتقول الرجل عليك بالباطل او يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله.

فالاستماع إلى القصّاص لغو [١] كما الغناء واللهو ـ ككل ـ من ألغى اللغو [٢] وكضابطة عامة «كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو» [٣] والذكر أعم من ذكر القال والحال والفعال : ألّا يخلو المؤمن على اية حال عن ذكر الله ، اعراضا عما يلهيه ويغفله عن الله ، سواء أكان لغو القول او لغو الفعل او لغو الاهتمام.

٣ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾ ٤.

هنا ﴿لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾ وفي سواها من آيات الزكاة ﴿يُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ أتراهما على سواء؟ كلا! حيث العبارة الصحيحة والأخصر عنها «والمزكون» وليس القرآن مما يفدي المعنى رعاية اللفظ ، فلا تعني ﴿لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾ سجعا ووزنا اللهم على ميزان خاص للمعنى.

وحقا ان ﴿لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾ تحلّق على كافة الاهتمامات في سبيل الزكاة ، من سعي ينتج مال الزكاة ثم إيتاءها ، ودعاية للآخرين سعيا ينتج الزكاة ودعاية لإيتاء الزكاة ، ودعوة لجبايتها بنفسه ومن سواه.

ثم «الزكاة» لا تنحصر في زكاة المال ، انحسارا عن زكاة الحال من عقل وعلم وأية طاقة بالإمكان إنفاقها في سبيل الله ، فالمؤمن حركة دائبة لتحصيل الزائد عما يلزمه في حياته ، لكي يزكيه لمن ينقصه مالا وحالا ،

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢٩ في اعتقادات الامامية للصدوق وسئل عليه السلام عن القصاص ايحل الاستماع لهم؟ فقال : لا.

(٢) المصدر في عيون الاخبار باسناده إلى محمد بن أبي عباد وكان مشتهرا بالسماع وشرب النبيذ قال : سألت الرضا (عليه السلام) عن السماع؟ فقال : لأهل الحجاز رأي فيه وهو في حيز الباطل واللهو اما سمعت الله عز وجل يقول : وإذا مروا باللغو مروا كراما ، وفي المجمع في رواية انه الغناء والملاهي.

(٣) المصدر في ارشاد المفيد كلام طويل لأمير المؤمنين (عليه السلام) : ...

عقلا وفكرا وعلما وقوة ، وكما في الحديث زكاة العلم تعليمه ...

ذلك ، ومن الزكاة هنا تزكية النفس فقد تكون مصدرا تشملها وسائر الزكاة ، فهي ـ إذا ـ زكاة ذات بعدين نفسي وغيري والأخير يعم كل إنفاق حالي ومالي.

اجل انهم فاعلون للزكاتين ، تطهيرا للقلب من كل شح واستعلاء على حب الذات ، وانتصارا على وساوس الشيطان ، ثم وتطهيرا للمال وسائر الحال إنفاقا لهما في سبيل الله ، صيانة جماعية بعد الفردية عن التفكك والخلل الذي ينشئه العوز في ناحية ، والترف في أخرى.

والزكاة كما الصلاة هي مما شرعت منذ العهد المكي كما تدل على ذلك آيات منها [1] مهما كانت الاكثرية الساحقة من آياتها مدنيات ، وعلّ تلك القلة هي قضية جو الضيق في العهد المكي ، وهذه الثلّة قضية السعة في الجو المدني ، فليس ـ إذا ـ «فاعلون» لأن الزكاة ما كانت مشرّعة بعد في مكة المكرمة.

بل و «فاعلون» في مكة تتبنى مختلف ألوان الزكاة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي الاسلامي ، فحتى لو لم تكن مشرّعة في مكة فلا بد من ذكرها فيها لأنها بداية العهد من هذه الشرعة ، وكما تشير بعض آياتها إلى القتال ولم يؤذن فيه بعد حتى الهجرة إلى المدينة المنورة.

٤ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ﴾ ٥

كل من الذكور والإناث يحفظ فرجه عن النظر واللمس وعمل الجنس أم إفراغ النطفة ، وكل ما يخص الفرج من المشتهيات الجنسية ، كل

---

(١) كالاية ٧ : ١٥٦ ـ ٢١ : ٧٣ ـ ٢٧ : ٣ ـ ٣٠ : ٣٩ ـ ٣١ : ٤ ـ ٤١ : ٧.

بالنسبة لجنسه وسواه ، فهذه ضابطة عامة ان الفرج محفوظ بعامة الحفظ وخاصته في ذلك المربع وأضرابه من مرتقبات الجنس.

إذا فلا تحل أية محاولة شهوانية جنسية بالفروج ، ذكرانا مع ذكران وأنحسه اللواط ، ام إناثا مع إناث وأنحسه المساحقة ، ام كل مع الآخر على أية حال ، اللهم :

﴿إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ٦.

«أزواجهم» تعم الزوجين دائما ومنقطعا ، كما البيع يعم القاطع الدائم والمشروط المؤقت ، اللهم الا بقرينة قاطعة كالأزواج في أحكام الميراث والنفقات وأضرابها من اختصاصات النكاح الدائم.

وقولة القائل ان الزواج المنقطع ليس بزواج ، قولة قاحلة جاهلة ، حيث الوطيء إما نكاح أو سفاح ولا ثالث بينهما ، فهل الزواج المنقطع سفاح إذ ليس نكاحا ، والضرورة القاطعة الإسلامية حاكمة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سمح في النكاح المنقطع ، مهما اختلف المسلمون في نسخه واستمراره ، فهل انه سمح في السفاح ردحا من زمن رسالته ثم نسخ السفاح ، وهو محرم على أية حال وإنه كان فاحشة وساء سبيلا!.

هذا ولا ينافيه اشتراط العفاف في النكاح والزواج فان «أزواجهم» لا تعني إلا الزواج الصحيح بشروطه المسرودة في الكتاب والسنة [1].

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٣١ في الكافي عن احمد بن محمد عن العباس بن موسى عن إسحاق بن أبي أبي سارة قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عنها يعني المتعة فقال لي حلال فلا تتزوج الا عفيفة ان الله عز وجل يقول ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ﴾ فلا تضع فرجك حيث لا تأمن على درهمك.

ولا حرمة الوقاع في حالات خاصة فانها مستثناة عن قاعدة الحل.

وعلى الجملة فكل آيات الزواج والنكاح باطلاقاتها او عموماتها تشمل القسمين القسيمين ، الا بقرينة تخصها بأحد الزواجين ، ولولا آية النساء ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (٣٤) ولا سماح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنكاح المنقطع ، لكانت الآيات بعموماتها وإطلاقاتها حجة السماح فيه ، والروايات المنقولة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في نسخه واستمراره متناقضة من جهات عدة ، فترد إلى كتاب الله ، حيث يسمح له بخصوصه وعمومه ، ونهي عمر عنه مردود اليه لأنه خلاف الكتاب والسنة ، فتحريمه بدعة كما ان تحليل السفاح بدعة.

ومن أسخف الهراء قولة القائل إنه سفاح سمح فيه لضرورة وقتية اقتضته ، فإذا كانت الضرورة تبيحه وهو سفاح ، فلما ذا سمي في ذلك الوقت نكاحا ، وقرر فيه ما قرر من شروطات النكاح ، ثم وتلك الضرورة دائبة على طول الخط للذين لا يجدون نكاحا دائما فلما ذا التحريم إذا منذ الخلافة الثانية إلى يوم القيامة ، والضرورة فيه ـ أحيانا ـ هي أقوى مما هيه.

وكذلك القول بنسخ آيات السفاح بآية النساء والروايات ، وتلك الآيات لا تتحمل نسخا ولا تخصيصا على أية حال ، فانه فيها فاحشة وسبيل سوء ، وان فاعله يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا.

إذا ف «أزواجهم» تعم الزواجين دون ريب ، اللهم الا وطئا في حالات خاصة ، ومع ما دونه في أخرى كالإحرام.

ومن حفظ الفرج ـ الا على أزواجهم او .... حفظه عن إفراغ نطفة دون جماع ، فلا يحل الا في هذين الموردين. فإقرار نطفة غير الزوج في

رحم امرأة ، قريبة او غريبة ، لا سيما المحارم ، ذلك محظور بعموم الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ﴾ حيث الإطلاق يعم مربع الأعمال المترقبة جنسيا من الفروج ، بل وأهمها الاستيلاد وكما في آية التحريم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ ...﴾.

والمورد الثاني ، وهو على هامش الأول ﴿أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ وهنا مربع من الصور لا يحل الا في بعضها :

فقد يملك رجل امرأة غير مزوجة ولا ممنوعة من ناحية أخرى ، او تملك امرأة رجلا أيا كان ، او يملك رجل رجلا او امرأة امرأة ، قد تشمل كلها ﴿إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ في بادئ الأمر.

ولكنما المتجانسين ذكرا أو أنثى خارجان قطعا ، حيث الأول لواط والثاني مساحقة وهما محرّمان ضرورة بالكتاب والسنة ، وان طبيعة الحال اسلاميا هي الأمور الجنسية بين المتخالفين في الجنس في المستثنى ، مهما شمل المستثنى منه غيرهما تحريما ، ثم «هم» في الأصل لا يعني إلا الرجال وليس لحوق النساء بهم في ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا بقرينة ، وهنا القرينة ضدها.

وبنفس الحجة تخرج الصورة الثانية فلا يحل مملوك لمالكته ، وتبقى الصورة الاولى هي المستثناة من تلك الضابطة المحرّمة ، اللهم إلا في حل نظره إليها ونظرها إليه كما فصلناها في آية النور : ﴿أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ﴾ لولاها نصا لما كان داخلا في نطاق الاستثناء.

فما ملكت أيمان الرجال من النساء حلّ لهم كزوجة ، وما ملكت أيمانهن من الرجال هم حل لهن كمحرم من المحارم إلا الزوج ، على شروط مسرودة في محلّها.

ثم الأصل المفهوم من ﴿ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ بديل «أزواجهم» هن

النساء للرجال وكما في آياتها [١].

إلا ﴿ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ﴾ كما في النور (٣١) والأحزاب (٥٥) فهم الرجال للنساء او الأعم منهم.

فهنا ﴿أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ بديل «أزواجهم» ليست لتعني الا النساء المملوكات للرجال ، اللهم الا المحرمات نسبيا او سببيا ام في حالات خاصة كالحيض والنفاس والإحرام والصوم ، فالقصد من الاستثناء هو الخروج عن أصل الحرمة ولا ينافيه الموارد المستثناة كما في أزواجهم.

ولماذا ﴿إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ..﴾ دون «لأزواجهم»؟ عله اعتبار بالعلو في ذلك الحق للأزواج على زوجاتهم ، فانه ليس مجرد حق مسموح ، بل هو حق مستعل ، مفروض عليهن التمكين في موارد الطلب حيث هي حلّ خارج عن مستثنيات التحريم.

فقد تحرم «أزواجهم» حالة الإحرام والصيام والحيض والنفاس ، وحين نكحت امرأة ولما تدخل عليها ثم تنكح ربيبتك منها فتحرم أمها دون طلاق ، وان لم تصدق عليها زوجة بعد ، فهي ـ اذن ـ خارجة عن نطاق الأزواج.

كما تحرم من ﴿ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ﴾ المحرمات النسبية والسببية والرضاعية وأمتك وهي حامل من غيرك حتى تضع ، والمزوجة من غيرك حتى تسرح ، والتي لك فيها شريك ، والمحرمة والصائمة والحائض والنفساء.

---

(١) فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ٤ : ٣ والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم ٤ : ٢٤ فمن ما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات ٤ : ٢٥ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ٣٣ : ٥٠ ولا ان تبدل بهن من ازواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك (٣٣ : ٥٢).

فكما في حل أصل الزواج وملك اليمن شروط ، كذلك في الحل بعد الزواج وملك اليمين شروط ، والآية انما هي في مقام البيان لأصل الضابطة تحريما وتحليلا ، ان الحل في الفروج يختص بالأزواج والمملوكات ولا ثالث لهما [١].

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ في هذين الحقلين ، مهما اختلفت الحالات والظروف معهن وجوبا واستحبابا وإباحة وكراهة ، ثم هم ملومون في موارد الحرمة مثل ما في المستثنى منه.

وترى كيف يستبيح الإسلام ملك اليمن دون نكاح ، أليس في ذلك هتكا لحرمة الإنسان مهما كان كافرا أن يستباح عرضه وبضعه بصورة طليقة خارجة عن شروطات النكاح المشروع عند كل قوم ، مهما اختلفت صوره؟.

نقول : النكاح بحاجة إلى سبب ، فقد يكون لفظة تقال مع رعاية الأحوال ، صيغة دائمة او مؤقتة ، وأخرى معاطاة كما في سائر المعاملات ، ونفس الاسترقاق بحرب وأشباهها هو من اسباب النكاح قائما مقام صيغة النكاح.

ثم وذلك الاستمتاع ، الملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن ، يمنعهن عن التبعثر ، كيلا يشبعنها من طريق الفوضى في المخالطة الجنسية.

وفيما إذا لا ترضى أمة تلبية الجنس مع مالكها قد لا تجبر على أسر

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢١ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) تحل الفروج بثلاثة وجوه نكاح بميراث ونكاح بلا ميراث ونكاح بملك يمين.

الجنس هكذا ، فتتزوج بمن تراه ويراه المالك صالحا ، وعلى أية حال فهذه الاستباحة بشروطها سياج على تخلف الجنس وتحرير عن حبسه.

﴿فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾ ٧.

وذلك وراء الأزواج بالنسبة للشهوات الجنسية بأضلاعها الأربعة نظرا ولمسا ووقاعا ، واستيلادا بإفراغ المني في الأرحام دون وقاع ، فان ذلك تجاوز عن الحق المرام وخروج عن حدود الله الملك العلام.

كما ووطيء البهائم أمّا ذا من غير الأزواج وما ملكت ايمانهم داخل في «وراء ذلك» اللهم إلا نظرا ولمسا دون شهوة ، بل وهما عن شهوة خارجان عن المستثنى منه ، حيث الناظر إلى فرج حيوان او اللامس له بغير فرجه نفسه لم يترك الحفاظ على فرجه ، فليدل على حرمتها عن شهوة دليل آخر.

فقد حصرت حرية الشهوة في هاتين بحدودها وإياهما ، فمن ابتغى وراءهما أية بغية شهوانية فقد عدا الدائرة المباحة ووقع في المحظور واعتدى على الأعراض المحترمة المحرمة غير المستحلة بنكاح ولا جهاد ، وحينئذ تفسد النفس الراعية في غير مرعاها ، وتتفسخ حرمة العائلة المشروعة المحددة ، وتفسد الجماعة المؤمنة.

٥ و ٦ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ﴾ ٨.

والأمانات تعم أمانات الله تكوينا وتشريعا ، وأمانات الخلق حالا ومالا وعرضا أمّا هي ، وكذلك العهد الذي عاهد الله عليهم في فطرهم وعقولهم وشرعتهم او الذي عاهدوا له ، او المعاهدات بينهم أنفسهم ، فالعهد كما الأمانة لزام المتعهد والمؤتمن أيا كان ، اللهم الا أمانة أو عهد في غير مرضات الله ، كسارق يأتمنك على ما سرق ، او متعهد يتعهد لك ان يقترف

إثما ، فالأمانات والعهود الواجبة الرعاية محدودة بحدودها دون فوضى جزاف.

وهنا النص يجمل التعبير دون تفصيل عن كل امانة ب «أماناتهم» وعن كل عهد ب «بعهدهم» وعلّ الإفراد في «عهدهم» يتبنى عهد الفطرة الذي يتبناه كل عهد.

٧ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ ٩.

الخشوع في الصلاة أمر ، والحفاظ عليها امر آخر بهما تكمل الصلاة ظاهرا وباطنا ، قلبا وقالبا ، فهنا صلاة بأصلها ، وهناك خشوع فيها ، وهنا لك شروطها من «أوقاتها وحدودها» [1] ومقدماتها ومقارناتها بقبلتها والطهارة عن حدث ، او خبث في الأبدان والألبسة ، وكل هذه ونظائرها داخلة في نطاق ﴿عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ ، ف «في» ناظرة إلى نفس الصلاة ، و «على» تنظر إلى ما يحلّق على الصلاة من أوقات ومكانات ومقدمات ومقارنات.

هذا ولكن المحافظة في آية البقرة : ﴿حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى﴾ (٢٣٨) وكذا الانعام (٩٢) والمعارج (٣٤) هي أعم مما هنا حيث لم تقرن بسابقتها ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ﴾

ولماذا الإفراد للصلاة في «خاشعون» والجمع في «يحافظون»؟ علّه حيث الخشوع هو لزام جنس الصلاة ، والمحافظة هي على الجمع ، سواء جمع الشروط والأجزاء ، ام جمع الركعات او الصلوات عدا لها ، ام جمع

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٣١ عن تفسير القمي في الآية قال : على أوقاتها وحدودها وعن الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هي الفريضة و ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ قال هي النافلة.

الأوقات ، فالمحافظة هي عن التبعثر والتفرق في الصلاة ، والخشوع هو قلبها على جمعها ، ثم و «في صلاتهم» هي حالة المصلي فيها و «على صلواتهم» أعم مما فيها وما قبلها وبعدها.

ولقد بدأت شروطات الايمان بخضوع الصلاة وختمت بالحفاظ عليها تدليلا على عظيم مكانتها في بناء الإيمان ، والذي لا يحافظ على صلاته كصلة دائبة بربه لا ينتظر منه ان يحافظ على سائر صلاته ، وصلاته الصالحة تضمن صالح كل صلاته ، حياة ادبية منضبطة على أية حال.

﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ﴾ ١٠.

﴿هُمُ الْوارِثُونَ﴾ شرعة الله حيث يحملونها تطبيقا لها ودعوة ودعاية إليها بعد نبيها ، أئمة وعلماء ربانيين : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ (٣٥ : ٣٢).

و ﴿هُمُ الْوارِثُونَ﴾ السلطة الزمنية إضافة إلى الروحية يوم الدولة الإسلامية العالمية : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢١ : ١٠٥).

و ﴿هُمُ الْوارِثُونَ﴾ بين هؤلاء وأولاء : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ (٧ : ١٣٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ﴾ (٤٠ : ٥٣).

وعلى اية حال ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ (٧ : ١٢٨) وطبعا الأتقى منهم فالأتقى ولكي يحافظوا على وراثة الله.

ومهما كانت الوراثة الارضية غير تامة ولا طامة لهم اللهم إلا في الدولة الأخيرة ، لكنها خالصة لهم يوم القيامة ، فإنهم هم :

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ ١١.

و «الفردوس» هي «أعلى الجنان» [١] و «هي مقصورة الرحمن» [٢] وهي «ربوة في الجنة وأوسطها وأفضلها [٣] هذه! وفي أخرى أضيفت إليها الجنات مما يدل على اختصاصها من بينها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً. خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً﴾ (١٨ : ١٠٨) ويا لها من جنة «سورها نور والغرف التي فيها هي من نور رب العالمين» [٤] وكما ان النار دركات أسفلها لمن يصلونها إيقادا لها ، كذلك الجنة درجات أعلاها للمؤمنين القمة حسب الدرجات.

وتراهم عمن يرثون الفردوس؟ عن الله؟ وهو الوارث للسماوات والأرض ولا يتحلل عن ملكه حتى يورث المؤمنين به! أم عن سائر خلقه؟ واهل الجنة منهم يدخلونها دون توريث ، واهل النار ليس لهم منها نصيب حتى يورثوه!

اهل الفردوس يرثونه عمن دونهم من المؤمنين إذ كان لهم منها نصيب

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٨٢ روى ابو امامة عنه عليه السلام انه قال : سلوا الله الفردوس فانها أعلى الجنان وان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش.

(٢) المصدر روى ابو موسى الاشعري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : الفردوس مقصورة الرحمن فيها الأنهار والأشجار.

(٣) الدر المنثور ٥ : ٦ . اخرج عبد بن حميد عن انس ان الربيع بنت النضر أتت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان ابنها الحارث بن سراقة أصيب يوم بدر واصابه سهم غرب فقالت اخبرني عن حارثة فان كان أصاب الجنة احتسبت وصبرت وان كان لم يصب الجنة اجتهدت في الدعاء فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يا ام حارثة انها جنان في جنة وان ابنك أصاب الفردوس الأعلى والفردوس ربوة ..

(٤) نور الثقلين ٣ : ٥٣٢ في من لا يحضره الفقيه في خبر بلال عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يذكر فيه صفة الجنة قال الراوي فقلت لبلال : هل فيها غيرها؟ قال : نعم جنة الفردوس ، قلت وكيف سورها؟ قال : سورها نور قلت الغرف التي هي فيها؟ قال : هي من نور رب العالمين».

إن كانوا كما هم ، ويرثونه عن اهل النار إذ كان لكلّ منها نصيب حرموا أنفسهم منه.

فكما وراثة الأرض للمؤمنين في الدولة الحقة لم تكن الا احتلالهم في السلطة عليها عنهم وهو حقهم بما عملوا ، كذلك الجنة وأحرى : ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣ : ٧٢) وهذا لأهل الجنة كلهم ، ولأهل الفردوس ميراثان ، عمن دونهم من المؤمنين ، وعن الكافرين ، حيث قدّر لكلّ نصيب لو عملوا كما عمل هؤلاء ، وكذلك منازل النار «فيورث هؤلاء منازل هؤلاء ويورث هؤلاء منازل هؤلاء» [١].

هذا وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما منكم من احد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ﴾[٢].

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٦ ـ اخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... أقول وقد مضى حديث حارثة انه أصاب الفردوس.

(٢) وفي نور الثقلين ٣ : ٥٢١ عن تفسير القمي حدثني أبي عن عثمان بن عيسى عن سماعة عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ما خلق الله خلقا الا جعل له في الجنة منزلا وفي النار منزلا فإذا اسكن اهل الجنة الجنة واهل النار النار نادى مناد : يا اهل الجنة أشرفوا فيشرفون على اهل النار وترفع لهم منازلهم فيها ثم يقال لهم : هذه منازلكم التي في النار لو عصيتم الله لدخلتموها ، قال : فلو ان أحدا مات فرحا لمات اهل الجنة في ذلك اليوم فرحا لما صرف عنهم العذاب ثم ينادي مناد : يا اهل النار ارفعوا رؤسكم فيرفعون رؤسهم فينظرون الى منازلهم في الجنة وما فيها من النعيم فيقال لهم هذه منازلكم التي لو أطعتم ربكم لدخلتموها قال : فلو ان أحدا مات حزنا لمات أهل النار حزنا فيورث هؤلاء منازل هؤلاء ويورث هؤلاء منازل هؤلاء وذلك قول الله ﴿أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(٢٢)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ١٢.

هذه واللتان بعدها هي اشمل الآيات واجمعها تفصيلا لخلق الإنسان تناسليا.

أترى هذا «الإنسان» يعم الإنسان الاول وذريته؟ وليس خلق الأول مرحليا كذريته! ام هو ـ فقط ـ ذريته؟ فما هو دور الطين في مراحله الجنينية!

الإنسان هو الإنسان ككل ، وخلقه من سلالة من طين يعم كل انسان ، ومفرق الطريق بينه وبين ذريته هو المرحلية الجنينية في نشوءه وارتقاءه.

فالإنسان الاول مخلوق ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قفزة دون ان تخطو هذه المراحل ، ونسله مخلوق من سلالة من طين بهذه الخطى بعد البداية حيث المني ينتهى إلى طين.

ومهما اختلف طين الإنسان الاول عن طين ذريته في التخلق كيانا فقد يشتركان في ﴿سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ وان كان هنالك اختلاف بين سلالة وسلالة.

واما آية السجدة ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ﴾ (٨) فقد تعني ذلك البدء الخاص قفزة دون كل بدء ، فهنالك بدء قريب يختص بالإنسان الاول ، وهنا بدء بعيد يعم أنسا له.

ف ﴿سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ بدء للأول هي الطين الخاص الخالص المنسلّ من سائر الطين ، المقتفز إلى خلق آدم (عليه السلام) دون مراحل ، حيث

السلالة هي المنسلّة المنفصلة خفية كصفوة مختارة

وقد انسل الإنسان ـ ككل ـ من الطين واستخرج من صفوه وسره ، من خلاصته وكلاسته ، حيث السلالة هي محض الشيء ومصاصه وصفوته ولبابه.

والبشرية لم تعرف حتى الآن كيف يتسلل المني من الطين ، والنطفة كيف تتسلل من المني ، اللهم الا إشرافا على أشراف بعيدة من ذلك المنظر المبين.

و ﴿سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ نسله ، هي الخلاصة السرية المنوية المنسلة المختارة عن صفوة المواد الطينية ـ أغذية واشربة ـ وكلها سلالات من طين ، وهنا ﴿سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ تعني منيا يمنى ، وهناك تعني طينة آدم المنسلة عن سائر الطين.

ف ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ الأول ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثم هو الإنسان دون ان يخطو مراحل.

و ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ﴾ الذرية ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ هو المني ﴿ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً ...﴾ حيث النطفة مجعولة من المني ، فانها جزء من البحر المنوي.

فالطين إذا هو المصدر الاول المتكرر ذكره في الذكر الحكيم : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً﴾ (٦ : ٢) ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (٣٧ : ١١) ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٣٢ : ٧).

وقد يعبر عنه بالتراب وهو اصل الطين : ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (١٨ : ٣٧) ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ (٢٢ : ٥) ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ (٣٥ : ١١)

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ (٤٠ : ٦٧).

ولان النطفة مخلوقة في المني كجزء منه ، فالمني مخلوق من طين سلالة عنه ، ولكن النطفة ليست مخلوقة ثانية مع المني ، وكل ما يحصل لها بعد لمرحلة ثانية ان تجعل في قرار مكين من الرحم دون خلق لها ثان ، ولذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ ١٣.

دون ثم خلقنا نطفة ، فانه مخلوق عند خلق المني السلالة عن الطين ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى﴾ (٧٥ : ٣٧) ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى. مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى﴾ (٥٣ : ٦) فالنطفة تمنى مع مني يمنى ، إذا فليست مخلوقة منه ، بل هي كائنة فيه منذ يمنى ، ثم يجعلها الله في قرار مكين.

وهكذا يقرر القرآن هذه الحقيقة الطينية للإنسان ككل ليتخذها مجالا للتدبر في صنع الله ، تاملا في تلك النقلة البعيدة العجيبة بين الطين وذلك الإنسان دون تفصيل الا انه على أية حال ﴿سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾

والنطفة هي نقطة منوية ، وهي خلية واحدة من ملايين الخليات السابحات في البحر اللجي المنوي يجعلها الله ﴿فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ من الرحم ، محميّة عن كافة الاختلاطات والاهتزازات والانصدامات وما يصيب الظهر والبطن من كدمات ورجّات وتاثرات ﴿فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾.

وذلك ﴿قَرارٍ مَكِينٍ﴾ مكانا في هندسته وحرارته الخاصة ، ومكانة في حراسته وحفاظته ، فلا مكين أمكن منه وأمتن واحسن تمكينا وضيافة من ذلك المضيف المكين الأمين الرزين الرصين ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ

﴿الْخالِقِينَ﴾[١].

هذه النطفة التي لا تحسب بشيء في ظاهر الحساب ، الغريقة في ذلك البحر الملتطم ، انها تجعل في قرار مكين «بما مكنها الله ، وأمكن لها كل شروطات النمو والارتقاء ، فخالق كل شيء يجعل هذه اللاشيء في صيانة كاملة لكي يخلق منه إنسانا خلق له كل شيء ، فيا لهذا الإنسان النسيان من كفران بآلاء الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

هذا الإنسان العظيم العظيم ، بكل اجزاءه الجسمية ، وبكلّ خصائصه الروحية ، كان مختصرا محتصرا في تلك النطفة النقطة الهندسية ، كأنها لا وجود لها فلا تبصر إلا بالمكبرات القوية ، سبحان الخلاق العظيم!

وفي التعبير عن مقر النطفة ب «قرار» مصدرا ، إشارة إلى دور الرحم بالنسبة لها ، كأنه لا شأن له إلا إيوائها ، فهو إذا قرار لا شأن له إلّا ذلك الإقرار.

ثم «مكين» تأكيدة ثانية لاستقرارها في ذلك القرار ، ذي مكنة ومكانة راقية فائقة ، لا تتطرق إليها أية هجمة داخلية ام خارجية ، حيث أعمق أعماق كيان الام ، مستقر قارّ ، ذو مكان مكين لا يضرها فيه ضار.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ....﴾

وهي كالدودة العالقة بجدار الرحم ، مرحلة ثانية جنينية لها التقدير الثاني من الدية إذا أسقطت ، فللنطفة عشرون وللعلقة أربعون ،

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٣٤ في الكافي ابن محبوب عن رفاعة قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) في حديث تطور الجنين : وان النطفة إذا وقعت في غير الحم؟؟؟ لم يخلق منه شيء.

وللمضغة ستون ، وللعظام ثمانون ، وبعد كسوها لحما مائة ، وبعد إنشاءه خلقا آخر ـ هو الروح ـ الدية كاملة ، إذا كان ذكرا فألف وان أنثى فخمسمائة [١].

ثم بين كل مرحلتين ـ الدية ـ بحساب الرحلة ، مقدرة بقدرها [٢]﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ وهكذا يكون دور الإنسان جسدانيا ، ثم دوره روحيا

---

(١) قد استفاضت الرواية على هذه التقادير في دية الجنين بمراحله.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٥٨ عن تفسير القمي في الآية إلى «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» فهي ستة اجزاء وستة استحالات وفي كل جزء واستحالة دية محدودة ففي النطفة عشرون دينارا وفي العقلة أربعون دينارا وفي المضغة ستون دينارا وفي العظم ثمانون دينارا وإذا كسي لحما فمائة دينار حتى يستهل فإذا استهل فالدية كاملة فحدثني أبي بذلك عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قلت يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فان خرج في النطفة قطرة دم؟ قال : في القطرة عشر النطفة ففيها اثنان وعشرون دينارا قلت فقطرتان؟ قال : اربعة وعشرون دينارا قلت فثلاث قال : ستة وعشرون دينارا قلت فأربعة قال ثمانية وعشرون دينارا قلت فخمس قال : ثلاثون دينارا وما زاد على النصف فهو على هذا الحساب حتى تصير علقة فيكون فيها أربعون دينارا قلت فان خرجت متخضخضة بالدم؟ قال قد علقت ان كان ماء صافيا فيها أربعون دينارا وان كان دما اسود فذلك من الجوف فلا شيء عليه الا التعزيز لأنه ما كان من دم صاف فذلك للولد وما كان من دم اسود فهو من الجوف قال فقال ابو شبل : فان العلقة صارت فيها شبه العروق واللحم؟ قال : اثنان وأربعون دينارا العشر قلت ان عشر الأربعين دينارا اربعة دنانير؟ قال : لا انما هو عشر المضغة لأنه انما ذهب عشرها فكلما ازدادت زيد حتى تبلغ الستين ، قلت فان رأيت في المضغة مثل العقدة عظم يابس؟ قال : ان ذلك عظم أول ما يبتدى ففيه اربعة دنانير فان زاد فزاد اربعة دنانير حتى يبلغ الثمانين ، قلت : فان كسي العظم لحما؟ قال : كذلك إلى مائة قلت : فان وكزها فقط الصبي لا يدري حيا كان او ميتا؟ قال : هيهات يا أبا شبل إذا بلغ اربعة أشهر فقد صارت فيه الحياة وقد استوجب الدية.

واين دور من دور ، ثم لا قيمة لهذا الجسد إلا لاستعداده حلول الروح بعيدا او قريبا ، وكذلك الدية طبقا عن طبق دون فوضى جزاف.

﴿... فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ..﴾ هي اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ ، وكأنها ممضوقة مهشّمة ، فلا هي لحمة كسائر اللحم ، ولا هي مهضومة كسائر الهضم.

﴿... فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً ...﴾

ناعمة كأنعمها كما تناسب الجنين لأولى النشأة العظامية ، عظاما فيها الأسس الاولية لكل عظام الإنسان الأصلية مهما خفّت وقلّت ورخت.

﴿.. فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ..﴾ وهنا لك تتم الصورة الجنينية دون إبقاء ، وكيف هنا «كسونا» دون «خلقنا» خلاف التطورات السابقة ، لان اللحم غير نابت من العظام ، وغير متحول عنها ، فخلايا العظام هي خلايا المضغة والعلقة والنطفة وليست هكذا خلايا اللحم.

وهكذا كشف العلم اليوم النقاب عن وجه هذه الحقيقة الخفية ، على ضوء تقدم علم الأجنّة ، ان خلايا اللحم لا تشاهد ولا واحدة منها إلا بعد ظهور خلايا العظام واستكمال الهيكل العظمى ، وهكذا ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً﴾ عارضا عليها من غيرها ، من المواد المساعدة لنشوء الجنين في الرحم.

﴿.. ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾

عبارة ثالثة عن ذلك التطور الجنيني ، أم رابعة بجعل الجعل أولا في «ثم جعلناه» تعابير قاصدة دقيق المعنى المرام ، دون فوضى التعبير.

هناك جعل وليس خلقا إذ لم يكن خلقا إلا قبل حيث ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسانَ ..﴾ ومن ثم خلق في زوايا ثلاث ، كل لاحق يتبنى سابقه ، وكل تطور عن أسبقه مزيدا عليه.

ثم كسوة العظام لحما ليس في هذه التطورات له نصيب ، وأخيرا ـ وبعد تكملة الجنين جسميا ـ ﴿أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ـ دون خلقناه او جعلناه ـ مما يدل على ان المنشأ غير مجعول ولا مخلوق كمثلث الخلق او مربعة.

«انشأناه» الجنين ، دون «انشأنا له» فليس الخلق الآخر الروح من غير جنس الجنين ، مجرد ام سواه ، بل هو هو إنشاء ، فلم تتحول العظام المكسوة باللحم روحا ، كما تحول كل من النطفة والعلقة والمضغة تاليتها ككل ، وإنما ﴿أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ ليس آخر كما كانت هذه الثلاث ، وانما آخر في الحالة والخاصة الحاضرة رغم كونه من المادة الجنينية.

فكما يقال انشأت الوردة جلابا وعطرا ، وانشأت التراب الذهبي ذهبا ، فالمنشأ سلالة وصفوة من المنشأ منه وليس كلّه ، كذلك الروح منشأ من نفس المادة الجنينية وليس كلها ، ولا بعضا منها كسائر أبعاضها ، بل هو سلالة منها مصطفاة ، لها خاصتها الخاصة التي ليست لسائر اجزاء الجنين مهما اشتركا في اصل المادة ، كما الذهب والتراب! وكما الئيدروجين وهي أخف وأصفى الذرات بالنسبة لأثقلها وأكدرها.

وقد تعني «ثم» المراخية هنا ـ كما في ﴿ثُمَّ جَعَلْناهُ﴾ ـ انفصال الروح عن البدن بعيدا من حيث الكيان ، مهما كانا متحدين في الكون المادي ، كما ان جعل النطفة متراخ عن خلقه من سلالة من طين ، والفاء في الثلاثة المتوسطة دليل التقارب والتماثل.

«ثم» بعيدا عن الكثافة الجسمية الجنينية وبعيدا عن كدرتها والأكثرية الساحقة من آثارها «انشأناه» : الإنسان الميت لحد الآن «خلقا آخر» يختلف عن الاول في شاكلة المادة وخاصتها بحيوية شاعرة مريدة لم تكن له من ذي قبل ، الا حركات تكاملية ـ ان صح التعبير ـ هي أتوماتيكية.

ثم الإنشاء هو إيجاد الشيء وتربيته ناشئا عن الآخر ، إذا ف «خلقا آخر» وهو الروح [١] ناشئ عن البدن نفسه ، مهما كان منفوخا فيه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ (٣٢ : ٩) فتربية البدن تخليصا منه . صفوة مختارة وسلالة صافية غير كدرة . هي إنشاءه خلقا آخر.

فالإنسان قبل نفخ الروح خلق وهو بعد نفخة خلق آخر ، مهما كان منشأ عن الاول ، كما أن الحطب قبل حرقه خلق ، وبعده . حيث يتحول نارا ودخانا . هو خلق آخر ، والمادة نفس المادة إلا في الصورة المتحولة.

إذا فليس الروح مجردا عن المادة ، فلا هو روحانية النشأة ولا روحانية البقاء ، بل هو جسمانية نشأة وبقاء مهما اختلفت حالاته وتصرفاته وخاصياته عن البدن الميت.

إذا فشعوره دون البدن ، وبقاءه دون البدن ، وسائر ميزاته دون البدن لا يدل على شيء إلا انه ليس هو البدن أو جزء عاديا من البدن ، بل هو صفوة مختارة وسلالة منسلّة عن البدن ، وعلّ عقله سلالة عن مخّه وصدره عن صدره وقلبه عن قلبه ، وسائر أبعاضه عن سائر أعضاءه حسب المناسبات والتجاوبات [٢].

﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾ ١٤.

وكيف هو احسن الخالقين و ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ حتى يكون هو أحسنهم؟

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٤١ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ فهو نفخ الروح فيه.

(٢) لتفصيل البحث حول الآية وآية الروح راجع تفسير سورة الأسرى عند «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ».

علّه يعني فيما يعني : لو ان هناك خالقين فهو احسن الخالقين ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ﴾ (٣٧ : ١٢٥) فلو ان بعلا خالق فالله هو احسن الخالقين!

او يعني من جمع الخالقين خالقياته المختلفة حسب اختلاف الكائنات فقد جعل أحسنها في الإنسان ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٩٥ : ٤) ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ (١٧ : ٧).

أم ان الخلق في هذا الجمع أعم من حق الخلق ، ومن مجازه ككل صنع ، فهو إذا احسن الخالقين ، وقد نسب الخلق بهذا المعنى الطليق إلى الخلق ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ (٢٩ : ١٧) كما نسبه إلى المسيح مقيدا له باذنه ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ (٥ : ١١٠)[١].

هذا ولكن الخلق الربوبي وهو حق الخلق ، يختص برب العالمين : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٦ : ١٠٢) ﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٣ : ٦) ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ (٣٥ : ٣).

ومن الأقاويل المختلقة الزور هنا ان ذلك التعقيب مما جرى على لسان عمر قبل ان يسمع وحيه [٢].

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٤١ في كتاب التوحيد باسناده إلى الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) حديث طويل وفيه : قلت جعلت فداك وغير الخالق الجليل خالق؟ قال : ان الله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾ «منهم عيسى بن مريم (عليه السلام) خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله فنفخ فيه فصار طائرا بإذن الله والسامري اخرج لهم عجلا جسدا له خوار.

(٢) الدر المنثور ٥ : ٦ . اخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبي الخليل قال : نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الى قوله : ثم انشأناه خلقا آخر قال عمر : فتبارك الله احسن الخالقين فقال والذي نفسي بيده انها .

تفضيلا للخليفة على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وما أكثره في أمثال هذه المختلقات الزور من روات كاذبين مبتدعين!.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ١٦.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بعد تلكم الحياة الدنيا ، بانقضاء أجلها المحتوم او المعلق ﴿بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ انتقالا إلى حياة برزخية «ثم» بعد انقضاء البرزخ ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ العامة «تبعثون» من اجداثكم في أرواحكم باجسادكم الاصلية التي كنتم فيها تعيشون.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ﴾ ١٧.

هذه طرائق سبع تعني السماوات السبع واخرى في الجن تعني طرائقهم القدد المفصولة عن بعض في سبلهم الحيوية العقيدية والعملية : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً﴾ (٧٢ : ١١).

. ختمت بالذي تكلمت يا عمر.

أقول وفي تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ٨٦ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هكذا نزلت يا عمر وكان عمر يقول : وافقني ربي في اربع في الصلاة خلف المقام وفي ضرب الحجاب على النسوة وقولي لهن لتنتهن او ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى : عسى ربه ان طلقكن ان يبدله أزواجا خيرا منكن. والرابع قلت : فتبارك الله احسن الخالقين فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) هكذا أنزلت وفيه روى الكلبي عن ابن عباس ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما انتهى إلى قوله تعالى : خلقا آخر عجب من ذلك فقال : فتبارك الله احسن الخالقين ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): اكتب فهكذا أنزلت فشك عبد الله وقال : ان كان محمد صادقا فيما يقول فانه يوحى إلي كما يوحى اليه وان كان كاذبا فلا خير في دينه فهرب إلى مكة فقيل انه مات على الكفر وقيل انه اسلم يوم الفتح!!!.

ولان «طرائق» هي جمع طريقة دون طريق ، فكلّ سماء فوقنا ـ إذا ـ طريقة بالإمكان التطرق بها إلى ما فوقها وإلى السابعة إلى السدرة المنتهى ، وكما تطرّقها كلها رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكما يتطرق من فوقها إلى تحتها وإلينا ، فهي السبل المطروقة لبعض المقربين السابقين كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وللملائكة ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (١٩ : ٦٤) ولأمره المدّبر ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ (٦٥ : ١٢) ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ (٣٢ : ٥) ولنزول الأمطار ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ ..﴾ (١٨) ﴿وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ﴾ عن هذه الرحمات الروحية وسواها المتنزلة بين الأرضين والسماوات ، فالكون كله بسماوته وأرضيه وحدة مدبرة من عليم حكيم ، سبحان الخلاق العظيم.!

نحن وحتى الآن ـ على ركب العلم السريع السير ـ لم نتطرق إلا بعض الأبواب من طريقة السماء الأولى ، فأنى لنا السير في سائر طرقها والطرائق الست الأخرى سبحان الخلاق العظيم!

﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾ ١٨.

من هذه الطرائق السبع طريقة الماء من السماء إلى الأرض ، فقد كانت أرضنا هذه محروقة عطشانة قبل حياتها والحياة عليها ، فانزل الله عليها من ماء السماء بقدر مقدر فأسكنه في الأرض نصيبا لها خاصا ، فالأبخرة المائية الأرضية الصاعدة إلى السماء ترجع كما هيه ماء دون زيادة ولا نقيصة ، اللهم إلا زيادة في حالات استثنائية كطوفان نوح : ﴿وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي﴾ ف «ماءك» هو الماء النازل إليها بقدر الساكن فيها على حذر : ﴿وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾ ذهابا عن بكرته كما في يوم قيامتها ، ام ذهابا مؤقتا عن قدره تجديبا كما يفعله أحيانا في ارض دون اخرى ، ولكي يعلموا ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

إذا فكل مياه الأرض هي من نازل السماء دون إبقاء ، كما ويؤيده التهديد في ﴿وَإِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾ وذلك خلافا لما كان يزعمه الإنسان إلى وقت قريب ألّا علاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية ، والقرآن يقرر العلاقة الوثيقة بينهما وأن الكل من نازل السماء.

فلا تعني ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ سكناه فيها دون صعود مؤقت ، وانما تعني ان النازل منها بقدر إليها هو نصيبها الخاص ، دون ان يصعد بأسره إلى غيرها ويبقى.

ومما يلمح له «فأسكناه» ملحّقا «بذهاب به» انه لولا إسكانه فيها لما رجعت امطارا عن الابخرة الصاعدة عنها ، فان طبيعة الحال في الماء المحكوم بحرارة الشمس وسواها الصعود إلى السماء ، وقضية إسكان ماء الأرض فيها رجعه مطرا إليها بعد تبخّره : ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾ أمانات الأرض من ماء وسواه.

اجل «ماء بقدر» دون افراط ولا تفريط ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ. عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ (١٣ : ٩) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥ : ٢١).

فهناك في النطفة ﴿فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ﴾ بغية تحوله إلى جنين ، وهنا ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ كذلك الأمر ، حيث الماء كنطفة والأرض قرار مكين بغية حياتها بإنشاء مختلف النبات :

﴿فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ ١٩.

فكما هناك في نهاية المطاف للأطوار الجنينية ﴿ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ حياتا بعد ممات ، كذلك هنا ﴿فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ ..﴾ حياة بعد ممات واين حياة من حياة هي في احسن تقويم!

وعلّ تخصيص ﴿نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ بالذكر بين ﴿فَواكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ لأنهما طعام وإدام وفاكهة رطبا ويابسا دون سائر الفاكهة ، وان منافعها تحلّق على سائر المنافع كما :

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ ٢٠.

وهي الزيتونة وعلّها في أصلها خارجة من طور سيناء ثم انتشرت في غيره ، ام هي فيه أطيب من غيره ، ام اكثر وأوفر ، والقصد ﴿مِنْ طُورِ سَيْناءَ﴾ المحيط الشرق الأوسطي الأقرب الى الطور فالأقرب ، ومن ميزاتها بين سائر الشجر انها ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ وعلّ الباء هنا سببية فهي تنبت بسبب الدهن ، حيث الأصل النابت عليه هو الحصى التي تحمل الدهن ، وكذلك هي تعدية تنبت دهنا ، ام ومعية ، وبالدهن حال ل «تنبت» فهي تنبت مع الدهن ، وهذه هي الشجرة الوحيدة بين الشجر حيث تنبت بالدهن ، وكذلك ﴿صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ يصبغون به خبزهم وطعامهم فتصبح سابغة طيبة الطعام ، سريعة الهضم ، كما وتصبغ أمعاءهم.

فالزيتونة هي ضوء وإدام وطعام وشفاء من داء ، فهي منقطعة النظير بين سائر الشجر ولقد جاءت الرواية عن خير البشر : «الزيت شجرة مباركة فائتدموا منه وادهنوا»[1].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْها تَأْكُلُونَ ٢١ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ٢٢.

هنا ﴿مِمَّا فِي بُطُونِها﴾ وفي النحل ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦) ولقد فصلنا القول فيه فيها فلا نعيد.

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٤٣ ، في المجمع في الآية وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

«وعليها» : الأنعام الرّكوب والفرش أمّا بالإمكان ان يركب ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ أيا كان «تحملون» وذلك جمع بين حمل البر والبحر بنعمة الله.

وان لكم فيها لعبرة لمن القى السمع وهو شهيد ، لمن ينظر بعين عقله ويبصر ببصيرته ، عبرة يعبر بها الى خالقها الكبير المتعال ، سبحان الخلاق العظيم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧)

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٣٩) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (٤٢) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ (٤٦) فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦)

هنا انتقالة بارعة من دلائل الايمان إلى واقع الايمان الذي جاء بها رسل الايمان ، وما واجههم الطغاة المستكبرون على مدار الزمان طول خط الرسالات منذ نوح إلى خاتم النبيين ، وهم يحملون رسالة واحدة إلى امم هم في الحق امة واحدة ، حيث الدعوات الرسالية صيغة واحدة في الجذور مهما اختلفت في بعض الصور والقشور ، قضية مختلف الظروف والابتلاءات في مختلف العصور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ ٢٣.

«نوح» هو أول نبي من اولى العزم الذين دارت عليهم الرحى ولقد اختصت باسمه سورة تحدثنا عندها عن مدى رسالته ودعوته الصعبة الصارمة ، وتصدّيات وعرقلات قومه العارمة ، وهذه الدعوة التوحيدية هي إجمال عن كل تفاصيل دعوته المفصلة في آياتها.

هنا ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ وفي هود ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾(٢) والاولى لا يستلزم الثانية ، فانها نص في توحيد العبودية وتلك مطلقة ، وليست مقالة نوح لقومه الا التوحيد ، فما هو التوفيق؟

المشركون كانوا ولا يزالون يعبدون غير الله ولا يعبدون الله لا توحيدا ولا اشراكا ، واطلاق الإشراك على عبادتهم لا يعني الجمع بين العبوديتين ، وانما لأنهم يعبدون من لا يستحق ، كأنه الله الذي يعبد ، فهي إذا إشراك في اصل استحقاق العبادة لا من حيث واقع الشركة ، فالله ـ في زعمهم ـ شريك في الاستحقاق ، وليس له نصيب العبادة في الواقع حسب الزعم انه أعظم من ان يعبد بنفسه ، فليعبد شركاءه : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ فلو كان يصح عبادته لم تصح عبادة غيره.

ثم ﴿ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ قائم مقام ذلك الحصر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ وحتى بالنسبة لمن يجمعون بين العبادتين ، كما هو واقع في آخرين من المشركين ومن مقالهم ﴿تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٢٦ : ٩٨) والشرك الاول ليس ـ في زعمهم ـ تسوية ، ثم ومن مصاديق الإشراك الواقع في العبادة رئاء الناس ، حيث المعبود الأصل فيها هو الله ، اضافة إلى رعاية الناظر رئاء له «أفلا تتقون» الشرك بالله ، و «لا تتقون» عذاب الله؟.

وهنا ﴿ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ برهان لا مرد له لحصر العبودية في الله إذ لا يعبد الا الإله ولا اله الا الله ، فلا يعبد الا إياه.

ولكن الملأ المستكبرين من قومه الذين لم يناقشوا أمثال هذه الحجج الباهضة الناهضة للهدى ، انهم تغافلوا عنها بصورتها العامة واخلدوا إلى شخصياتهم الوهمية قياسا إلى شخص نوح كالسا فالسا في حقول البرهان :

﴿فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٤.

«من» هنا تبعّض قومه الكافرين إلى الملأ المستكبرين الأشراف وسواهم ، وهذه الأقاويل ليست الا منهم الأصول دون الهوامش الأتباع

اللهم الا تبعا لهم ولفظ قول ، ولم يؤمن احد من ذلك الملإ وكما يحكي عنهم القرآن دون تكذيب ﴿وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ﴾ (١١ : ٢٧).

نقول لهؤلاء الأنكاد وحماقي الطغيان إذا كان بشر ـ لأنه مثل سائر البشر ـ لا فضل له على أضرابه فكيف أنتم تفضلون أنفسكم ـ بزيادة المال والمنال والقوة والأولاد وسائر زخرفات الحياة ـ على من يفقدها ، وهذه كلها من حيونات الحياة ، ثم لا ترضون ان يتفضل ذووا الفضل في الروحية الانسانية ـ وهي أصلها وجمالها ـ على من يفقدها ، وليهديهم إلى صراط مستقيم.

فيا له من برهان قاحل جاهل هو عليهم أنفسهم قبل أن يكون على رسل الله لأنهم بشر.

ثم هم يهتكون ساحة البشرية حيث لا يستأهلونها لابتعاث نبي لهم من أنفسهم لحد الإحالة : ﴿وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ إحالة لإرسال اي رسول ، ثم على فرض إمكانيته فليكن من الملائكة.

ثم تلحيقا لذلك النكران النكير يستندون إلى ﴿ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وطبعا المشركين ، وهم شرع سواء في استحالة او استبعاد ابتعاث بشر إلى بشر.

يستندون في نفي التوحيد إلى حقل الشرك القديم ، وهو جديده وقديمه على سواء في كونه خواء وعراء عن اي برهان ، الا دعايات زور وغوغائيات غرور ، يرأسهم في كل ذلك الغرور!.

ولا فحسب انهم نزّلوه إلى منزلة البشرية المماثلة لسواه ، غير المفضّلة على من سواه ، بل ونزلوه عنها ايضا إلى حقل المجانين اسقاطا لرأيه عن

بكرته حتى لا يسمع كبشر مثل سائر البشر :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ ٢٥.

به جنة لأنه يخالف آراءنا وآباءنا الأقدمين في أصالة الشرك ، وانه يدعي ضرورة المستحيل في بعدين : ان ينزل الله شيئا ، وان يرسل بشرا رسولا ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ نظرة علاجه عجالة ام أجالة «حتى حين» يعافى عن جنته ، فسوف ترون انه لا يقول قوله الآن ، ام «حتى حين» يموت على جنته فنستريح من دعايته الجنونية ، ام «حتى حين» يظهر تصلبه في دعوته فتقضوا عليه في ذلك الحين ، ام «حتى حين» تظهر جنّته ويظهر حقنا عليه ، حينات اربع قد تعنيها كلها «حتى حين» إذ لا برهان لواحدة منها دون أخرى حتى حين.

وهذه الدعاية النحسة هي بطبيعة الحال مؤثرة في المستضعفين العائشين تحت نير الذل ، المحتاجين إلى رحمة المستكبرين ، حيث العقل هو خير ما يرام ، فمن به جنّة لا يرجى منه أي خير حتى إذا كان ممكنا وهو منه متمكن فضلا عن الدعاوي الشاردة المستحيلة غير الواردة في ﴿آبائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

إذا فاتّباعه خروج عن العقلية الانسانية ، وسنة الآباء القدامى! تحذير خطير يتحذر منه كل مسامح عن عقله ، متاجر بانسانيته الحرة البالغة.

هنا ـ ولما لا يجد نوح منفذا إلى هذه القلوب المتحجرة ـ يستنصر ربّه لكي يهديه سواء السبيل :

﴿قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ﴾ ٢٦.

وهذه آخر المطاف من تصبّره على أذاهم ، وتحمّله لظاهم طول الف سنة الا خمسين عاما ، وقد تكون اجمالا عن تفاصيل دعواته لربه طول هذه المدة كما في آيات عدة :

﴿قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦ : ١١٨) ﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً﴾ (٧١ : ٢٧) وذلك بعد ما أخبره ربه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١١ : ٣٤).

﴿فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ٢٧.

﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا﴾ : رقاباتنا ، كما تناسب صناعة فلك النجاة عن البحر اللجي «ووحينا» فقد كانت هندسة الفلك تماما وصناعته بوحي الله ، إذ لم يكن نوح صانع الفلك ، ولا ان مصنوع الإنسان دون وحي يتمكن من الإنجاء في هذه الهلكة الشاملة ، فليكن إذا صنع الفلك ﴿بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ﴾ (١١ : ٤٢) ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ (٥٤ : ١٤).

أترى فلكا تصنع بأعين الله ووحيه ، وهي تجري بأعين الله ، أتراها تغرق او تتكسر في موج كالجبال والله ربّانه!

﴿فَإِذا جاءَ أَمْرُنا﴾ بغرقهم ودلالة عليه بإمارة عجيبة خارقة العادة كنفس الغرق الجماعي ، ﴿وَفارَ التَّنُّورُ﴾ فوران ماء الغرق من تنور النار دون سائر التنور المؤوّل ، ثم وما ندري اين هو [1]؟

---

(١) قيل انه تنور آدم وكان من حجارة فصار إلى نوح واختلف في مكانه فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كنده وكان نوح (عليه السلام) عمل السفينة في وسط المسجد ، وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند. .

﴿فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ﴾ اسلك ﴿أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ : امرأته وابنه ﴿وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ رسالة الله وعباد الله ، سواء أكانوا من أهلك ام سواهم ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ كلمة واحدة لا رجعة فيها.

ولان السلوك هو النفاذ في الطريق ، وهذه الفلك كانت طريق النجاة ، إذا «فاسلك» لا تعني ـ فقط ـ الإدخال ، وانما التمكين والإنفاذ لكامل الإنقاذ.

ثم «من كلّ» تعني من كلّ الخليقة الا الناس ، ام كلهم لمكان الاستثناء : ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ الا ان «أهلك» قبلهم يؤيد الأول ، إذ كان يكفي الاستثناء دون ذكر اهله ، ان كانوا معنيين في ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾.

وترى ﴿أَهْلَكَ إِلَّا ..﴾ هم فقط كانوا ناجين ، فلم يؤمن طيلة الف سنة إلا خمسين عاما الا اهله الثمانون ، الا امرأته وابنه كانا من الغابرين؟

عله نعم حيث ﴿وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ (٣٧ : ٧٦) ﴿وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢١ : ٧٧).

وقد يعني «اهله» اهله نسبيا وسببيا إلا من سبق ، واهله ايمانيا كما تدل عليه ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

. ثم قيل ان التنور هو وجه الأرض عن ابن عباس ام هو تنور الشمس ونورها طلوعها عن علي (عليه السلام) ، ام هو الموضع المنخفض من السفينة الذي يسيل الماء اليه عن الحسن ولكن هذه التنانير خارجة عن التنور المعروف لغويا ، ولو كان كل يراد لاتي بلفظه الخاص.

(١١ : ٤٠) فالقلة الثمانون طول هذه المدة بين الملايين ، هم اهله الا من سبق ومن آمن من غير اهله ، إذا ﴿فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هم ليسوا كل قومه ، بل هم ـ فقط ـ ﴿الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾.

وذلك آخر المطاف لقوم صلد صلب هم حجر عثرة في حياة الإنسان وعقبة كئودة كائدة في طريق الايمان ، ولأنهم كانوا في فجر البشرية في بدايات الطريق ، فشاءت ارادة الله الإطاحة بهم من الطريق المرسوم للانسانية جمعاء ، تحطما لهذه المتحجرات المتفجرات في وجهها ، فتحتّما من سلوك سبيلها إلى النجاة ، ولتسري ركب الانسانية قدما إلى الحياة المرماة.

فقد غسل الطوفان هذه التربة لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد : ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾.

ذلك! وقد كان بالإمكان ان ينزل الله عليه فلكا من السماء ، او يصنعه هو دونه ، ولكنه شاء ان يصنع نوح فلك النجاة بيده ، لأنه لا بد للإنسان من الأخذ بالأسباب ، وبذل ما في طوقه ، ثم يمده الله في الخارج عن طوقه ، والنجاة القاطعة بالفلك كانت بان يصنعها ﴿بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ وكما هي ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾!

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٨ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ٢٩.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ﴾ يا نوح ﴿وَمَنْ مَعَكَ﴾ المؤمنين والحيوان ، والاستواء هو الاستقرار : ان يأخذ كلّ مستقرّه وقراره كقرار البيت ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كواجب الحمد لله ﴿الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من بأسهم البائس ومن الغرق معهم ، وهذه مرحلة اولى من النجاة حالة الطوفان ، ثم ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً﴾ نفس النزول ومكانه وزمانه ، مباركا في زواياها الثلاث ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ . «اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت

خير المنزلين» [١].

هنا ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ﴾ فلما ذا «فقل ـ وقل» وهم عدة؟ عله لأنه إمامهم ، فقوله قولهم وكلما يقوله بأمر الله فهم قائلوه وقائلون به قضية الإمامة المحلّقة على كل قال وحال وفعال ، ولا سيما في هذه الحالة الخطرة والرحمة العطرة المستوجبة لقالة الحمد والدعاء والاستدعاء.

فقطع دابر الظالمين يتطلب الحمد له من المظلومين ، بل والله يقولها تعليما لهم وتأديبا ﴿فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٦ : ٤٥).

وترى كيف أصبح الإستواء على الفلك نجاة لما تنزل منزلا مباركا؟ لأنها صنعت بعين الله ووحي الله ، وهم ركبوها باسم الله : ﴿وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها وَمُرْساها﴾ (١١ : ٤١) وهي ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ (٥٤ : ١٤) أفيبقى بعد هذا من شك في النجاة؟!

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ٣٠

«إن» مخففة عن مثقلة تعني تأكيد مدخولها وكذلك اللام ، تأكيدان اثنان انه تعالى يبتلي عباده بألوان البلاء ، ابتلاء لنوح ومن آمن معه بالصبر والشكر ، تمحيصا للشكر والتوجه والتأديب والأجر والتقويم ، وابتلاء للذين كفروا بازدياد الكفر والكفران والنكران وإلى مصير النيران.

ف ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ العظيم العظيم في تاريخ الرسالات ولفجرها وبزوغها «لآيات» تدل المستدلين على علمه وحلمه وحكمته وقدرته ،

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٤٤ في الفقيه قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) يا علي إذا نزلت منزلا فقل : ....

وواقع وعده للمؤمنين وعلى الكافرين «يا ايها الناس ان الله قد أعاذكم من ان يجور عليكم ولم يعذكم من ان يبتليكم وقد قال : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[1]. و «كنا» هنا تضرب إلى اعماق الماضي الضارب إلى مثلث الزمن كسنة إلهية يوم الدنيا.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ ٣١.

وهم ذرية نوح حيث ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ وتراهم ذرية النسب؟ فما شأن المؤمنين الآخرين! علهم اهله الناجون حيث تعم ذرية النسب وذرية الإيمان بغير النسب ، بل هم ذرية الايمان ككل في نسب او سبب ام غير سبب ولا نسب ، وقد تلمح له سابقتها : ﴿وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ مع العلم ان اهله أعم من اهله الخصوص كما دلت عليه آية هود ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ (٤٠).

واما ان نوحا هو الأب الثاني للبشر ، فهو ان كان ثابتا فليس يستغرق كل البشر ، وانما ـ على اكثر تقدير ـ الاكثرية الساحقة اللاحقة من البشر حيث انتسلوا من ذريته في النسب وهم ثلة ثم الآخرون هم قلة

وترى ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ هم كل المنتسلين من الناجين في الفلك؟ وما كان كلهم كافرين! ام انهم خصوص الكافرين منهم المكذبين؟ ولا يختصهم ذلك الإنشاء الجديد!

﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ﴾ هي عبارة أخرى عن ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ ولكنه يقصد منهم في حقل الدعوة الرسالية من هم أضراب قوم نوح.

ومهما اختلفت الآراء في : من هم هؤلاء المكذبون؟ الا ان في

---

(١). نور الثقلين ٣ : ٥٤٤ وفي نهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام) : ...

انشاءهم بعد قوم نوح ، وإرسال رسول فيهم بعد نوح ، برهان قاطع لا مرد له انهم عاد قوم هود فإنهم كانوا بعد قوم نوح وكما خوطبوا ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (٧ : ٦٩) كما وجاءت قصة عاد تلو قصة نوح في سورة الأعراف وهود والشعراء وهم يذكرون قبل ثمود فيما تجمعهما من آيات ، إذا فهم ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ مهما كان منهم مؤمنون :

﴿فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ ٣٢.

وصيغة الدعوة نفس الصيغة السابقة السابغة ، حيث الرسالة واحدة وامم الرسل هم امة واحدة في هذه الدعوة التوحيدية ، وكما المعارضة ضد الدعوة نفس المعارضة ، سلسلة موصولة طول تاريخ الرسالات رسلا ومرسلا إليهم :

﴿وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ٣٣.

﴿وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم في ثالوثهم المنحوس ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا . وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ . وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ قالوا قيلتهم في نكران الأصل الثالث : الوحي والرسالة : ﴿ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فانه ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ آخذين المماثلة في حيونة البشرية وحاجياتها المادية دليل المماثلة المطلقة بين بشر وبشر ، متغافلين متجاهلين عن رحمات روحية وان الله يمن على من يشاء من عباده ، فمقياسهم الاول والأخير هو المادة والمادة فقط ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ (٤٧ : ١٢)

والإتراف . وهو التوسيع في النعم فوق الحاجة . انه يحجب الفطرة ،

ويغلّظ المشاعر ، ويغلّط الشعور ، ويسد المنافذ وتفقد القلوب حساسيتها المرهفة ، فالمترفون كالعفن يفسدون الجو الذي فيه يعيشون ، ولا سيما إذا كانوا كافرين بالله ويوم لقاء الله.

ثم هم يمحورون المماثلة في البشرية لإبطال الطاعة وهم يطيع بعضهم بعضا والمماثلة نفس المماثلة ، لأنهم يمحورون فضل المادة والترف أصلا أصيلا وحيدا في التفضيل :

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ﴾ ٣٤.

حيث المماثل يجعل من طاعته لمماثله ترجيحا بلا مرجح ، لأن الرجحان عندهم هو فقط في ميزات الحيوان ، متغافلين عن انسانية الإنسان.

وترى إذا كانت طاعة المماثل في البشرية خسارا ، فلما ذا هم أنفسهم يحمّلون طاعتهم على من دونهم؟ ألأنهم ـ فقط ـ بشر وسواهم حيوان؟ أم هم مناقضون في قيلاتهم الويلات ، وذلك هو الملاحظ فيها عند كل حماقى الطغيان ، ثم وهم بأتباعهم يعبدون أحجارا واخشابا واين الجماد من الإنسان؟

ومنهم من هم يحتجون على نكران رسالة البشر انهم وإياهم في اصل البشرية سواء وفي فضلها المادي لا سواء ﴿وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٤٣ : ٣١) وهؤلاء اقل من أولاء خطأ مهما هم كلهم مخطئون.

ذلك! ومن ثم يحاولون إحالة رسالة هذا الرسول البشر لدعواه البعيدة عندهم كحجة اخرى على دحضه بمحضه :

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ٣٥ هَيْهاتَ

﴿هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ﴾ ٣٦.

﴿إِذا مِتُّمْ﴾ زوالا للحياة ﴿وَكُنْتُمْ تُراباً ...﴾ زوالا للأجساد ﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ من اجداثكم بأرواحكم وأجسادكم ، فيا له مراما ما أبعده ﴿هَيْهاتَ هَيْهاتَ﴾ بعيدا بعيدا لحد الاستحالة ﴿لِما تُوعَدُونَ﴾ : ﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ وهم بهذه الحجب الثلاث عن واقع المرام وعن الحق المرام ، هم مرتكسون ركسة الحيونة الرذيلة ، منتكسون إليها عن كل فضيلة ، وقد هدرت ميزات الانسانية فيهم ف ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾!

ثم هم بعد هذه الدعاية والدعوى يحصرون الحياة في حياتهم الدنيا ليست الا :

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ٣٧.

ذلك وكما قال نظرائهم : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٦ : ٢٩) ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٤٥ : ٢٤)

وعلّ الآخرين ـ فقط ـ هم دهريون كما قد تشهد ما قبلها : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ..﴾.

وتراهم حين يحصرون حياتهم في الحياة الدنيا ، كيف يقدّمون «نموت» على «نحيى» والحياة بعد الموت هي الحياة الأخرى ، تناقضا صارحا صارخا ينقض دعواهم الاولى؟.

قد تعني «نموت» جماعة مثلنا نحن الأحياء ثم لا نبعث «ونحيا» جماعة اخرى لما يحيوا ، وهم ـ كما نحن ـ يموتون ثم لا يبعثون ، ويجمع عدم بعثهم احياء وأمواتا ﴿وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ سواء الأحياء الحاضرون الذين

يموتون ، او الذين سوف يحيون ثم يموتون.

ام ان «نموت» تعني ما تعنيه «نحيى» مقالة التناسخية ، فكل من يموت عن جسده يحيى في آخر حتى تنتهي الحياة الدنيا ثم لا حياة بعدها.

ام انه بيان واقع حياتهم بعد موتهم خلاف زعمهم ، اضافة إلى الأوّلين ، فأصبحت الآية تجمع بين هذه الثلاث ، والمجموعة صالحة دلاليا ومعنويا لتعنيها ، وما أجملها عبارة وألطفها جمعا بين الواجهات المعنية حقا وزعما.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٣٨.

وهنا أصبحوا وكلاء عن الله يذودون عن ساحته فرية الرسالة التي هي قضية ربوبيته العادلة الرحيمية.

فهم ـ إذا ـ لا يؤمنون بمدعي الرسالة قضية إيمانهم بالله ، معاكسة هارعة رأسا على عقب ، وكأنهم هم الصادقون في ايمانهم إذ لا يؤمنون بمن يفتري على الله كذبا ، فليشكرهم الله على ذلك ويشكرهم الشاكرون!

ولما وصلت حالتهم البئيسة التعيسة الآية هذه الهارفة النحيسة ، حيث صمت آذان قلوبهم وعميت ابصارها.

﴿قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ﴾ ٣٩.

نصرة كما نصر نوح على قومه الظالمين مهما اختلفت صورتها ، فطمأنه ربه بالاجابة:

﴿قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ﴾ ٤٠.

وماذا تفيدهم الندامة والإيمان ـ لو آمنوا ـ عند رؤية بأسهم؟!

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٤١.

«بالحق» هنا قد تعني بسبب الوعد الحق ، او مصاحبة الحق الذي رفضوه ، او الحق الذي وعدوه ، والصيحة هي التي جعلتهم كالرميم ، حيث خلّفت الريح العقيم ﴿وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (٥١ : ٤٢).

والغثاء هي هشيم الأوراق : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (٥٤ : ٣١) فقد عاجلهم الله بهلاك الاستئصال فطاحوا كما يطيح الغثاء إذا سال به السيل الجارف ، حيث الغثاء ما حملت السيول في ممرها من أضغاث النبات وهشيمها ، فكأنهم هلكوا ولم يحس لهم اثر كما لا يحس اثر ما طاح به السيل من غثاء ، فجعلناهم كالغثاء الطافح في سرعة انجفاله وهوان فقدانه واضمحلاله ﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾؟

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ﴾ ٤٢.

كثمود قوم صالح وسائر الفراعنة والنماردة المعرقلة لمسير الرسالات.

﴿ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ ٤٣.

فان اجل العذاب المهدّد محدّد بما يراه الله ، ف ﴿ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها﴾ المقدر لها ان يعجلها ﴿وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ تأجيلا لها ، فانها من الآجال المحتومة الأممية حين تستحق العذاب ولات حين مآب.

وهذه سنة الله الجارية في تاريخ الدعوات الرسالية ، كل قرن يستوفي اجله ويمضي غثاء:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ٤٤.

«ثم» بعد نوح إلى موسى ﴿أَرْسَلْنا رُسُلَنا﴾ من ولي عزم كإبراهيم ام سواه كسواه ﴿تَتْرا﴾ تلو بعض البعض ولصق بعض ، متواترين في

سلسلة الرسالة والدعوة دونما انقطاع ﴿كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ﴾ دونما انقطاع ، وكأنهم تواصوا بينهم ﴿فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ في عذاب الاستئصال مهما اختلفت ألوانه وأطواره ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ﴾ إذ لم نبق منهم على اثر فلم تكن منهم من باقية الا «أحاديث» عنهم في صفحات التاريخ وألسنة الناس وبقيت العبرة ماثلة امام الناس في مصارعهم ، حيث محيت العيون وعفيت الآثار فلم تبق منهم الا الآثار ﴿فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾ . ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾!

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ ٤٥ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ﴾٤٦ .

وهنا إرسال كسائر الرسالات بآيات كسائر الآيات وسلطة البرهان كسائر السلطات الرسالية ، مهما اختلفت في بنودها وقيودها ومظاهرها ، وانما يذكر هنا موسى بعد رسل تترى لأنه كان يحمل ولاية العزم في أعظم رسالة إلهية وأبعدها غورا ، وأعمقها طورا ، وأكثرها عراقيل ، وأشدها في مواجهة الأباطيل ، فكانت ـ إذا ـ قمة رسالية مرموقة ، كما ان آياتها بعد القرآن قمة منقطعة النظير.

«الى فرعون» رأس الزاوية الطاغية «وملائه» هوامش الضلالة «فاستكبروا» عن هذه الرسالة بصيغة مطردة بين المستكبرين المكذبين ﴿وَكانُوا قَوْماً عالِينَ﴾ في كافة القدرات الزمنية والمقدرات المادية ، وبطبيعة الحال كانوا مستعلين.

﴿فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ ٤٧ فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ٤٨ .

فصيغة التكذيب نفس الصيغة وهم كانوا مؤمنين لبشر مثلهم وهم له

عابدون! كما وهلاك التكذيب نفس الهلاك مهما اختلفا امهالا واملالا ، وصورة ومثالا.

وقد يعنون ب ﴿وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ﴾ ان لنا الفضل عليهما كما عليهم فليعبدانا كما هم إيانا يعبدون ، وقد تعني العبادة الخضوع الطليق. وهذه معاكسة مرتكسة امام الدعوة الموسوية.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ٤٩.

«لعلهم» فرعون وملؤه وبني إسرائيل وسواهم من المكلفين «يهتدون» على هديه وهو اوّل كتاب رسالي يحمل شرعة مفصلة رئيسية ومن ثم القرآن العظيم إلى يوم الدين.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠).

ولماذا ﴿ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وهما اثنان ، وكل ـ إذا ـ آية؟ حيث القصد من «آية» هنا هي الآية الخارقة الرسالية ، وهما معا يشكّلان آية الولادة دون أب.

«وآويناهما» إسكانا مطمئنا في مأوى مريح «الى ربوة» مكان مرتفع راب من الأرض ، هي ﴿ذاتِ قَرارٍ﴾ لعيشة راضية دون اضطراب «ومعين» ماء جار.

وقد عبر عن هذه الربوة في «مريم» ب «سريا» : ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ .. فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ..﴾(٣٦)

وقد تعني ربوة القدس الشريف ، وهو ربوة بعد ربوة ، قد تعنيهما معا

﴿رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ﴾ حين الولادة ، وذات قرار بعدها ، ويروى انها دمشق الشام [١] وعلها توسعة للقدس حيث الشام كان يشمل تلك الدويلات الحاضرة من فلسطين ككل ولبنان وسوريا والأردن.

﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١ وَإِنَّ [٢] هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ٥٣.

﴿إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ﴾ (٢١ : ٩٣) : نداء عام للرسل أولا في بعد البشرية ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ﴾ فليست محرمة عليهم مهما حرمها عليهم حارمون حراميون ، فلا اصل الاكل ينافي الرسالة ولا أكل الطيبات : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ (٧ : ٣٢) «فان الله طيب لا يقبل الا طيبا وانه امر المؤمنين بما امر به المرسلين» [٢].

ثم في بعد الايمان ﴿وَاعْمَلُوا صالِحاً﴾ فلا تضمن لكم رسالتكم صالحا دون ان تعملوا صالحا ، وليست الرسالة سياجا عن عقوبات التخلفات ،

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٠ . اخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أبي امامة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه تلا هذه الآية قال : أتدرون اين هي؟ قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدن الشام.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٥٤٥ في المجمع. روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله .. فقال : ﴿يا أَيُّهَا الرُّسُلُ. كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ..﴾ وقال : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾.

بل والمسؤولية الرسالية تملي صالحا اكثر.

ثم البعد الثالث «ان هذه» الأمم بأسرها ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ في مسيرها ومصيرها لوحدة الرسالة فوحدة الائتمام ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا سواي «فاعبدون» لا سواي.

فالحكم الحاكم عليهم في كل دور رسالي هو شريعة من الأمر تصدر عنه وتتجه اليه دون تقطّع ، وليس عديد الشرائع من ذلك الأمر الدين تقطيعا لأصل الأمر فانه مصدرها بأمر الله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ ، ولكنهم :

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾ حيث جعلوا عديد الزبر للشرائع وسيلة للتقطع تحريفا لها وتهريفا بها ، وتحزبوا أحزابا كتابية متناحرين بحربة شرعة ضد شرعة وكتاب ضد كتاب «كل حزب» من هؤلاء المتقطعين ﴿بِما لَدَيْهِمْ﴾ كأنه الحق وسواه باطل «فرحون» والله لا يرضى من عباده تقطعا في أمره ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٦ : ١٥٩) ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (١١ : ١١٨) خلقهم لرحمة الوحدة ووحدة الرحمة على ضوء توحيد الكلمة على كلمة التوحيد في كل زمن كما يريد الله ، فلا امية في امر الله ودينه ولا رايات مختلف الكتابات السماوية ، كلّ ضد الأخرى ، محاربة شرعة إلهية لأخرى!.

ففي كل دور من الأدوار الخمسة الرسالية الاصيلة يجب على العالمين ككل اتباع رسولها ، ثم إذا جاء دور التالي ، فعلى الكل النقلة إلى التالي وللتالي إلى الشرعة القرآنية التي تحلّق منذ بزوغها على الطول التاريخي

والعرض الجغرافي وإلى يوم الدين [١].

ومن مصائب التحجر في ذلك التقطع ان كل قطاعة متحزبة ضد الاخرى ترى الحق معها كله والباطل مع من سواها كله ، فتمضي فرحا مرحا لا تفكر في شيء ولا يلتفت إلى شيء إلا إلى شيئه المتقطع ، مغلقة على أنفسها جميع المنافذ التي تأتيه منها أية نسمة طليقة ، او يدخل إليها منها اي شعاع مضيء ، تعيش كلّ في تلك الغمرة الهامرة «فذرهم ..» :

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ ٥٤.

لقد غمرتهم واغرقتهم حيونة الجهالة وجهالة الحيونة ، والغمرة هي إزالة اثر الشيء ، وهي معظم الماء الساتر لمقرها ، وهم أزالوا آثار الانسانية كلها ، واختصوا أنفسهم بآثار الحيوانية كلها بل هم أضل سبيلا ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ يغمرهم العذاب في لجة او يأتيهم الموت قبلا ، او حتى حين يؤذن لك في حربهم حيث تغمرهم ، او حين ينجو منهم من ينحوا منحى النجاة.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾٥٦.

ذلك الحسبان هو ظن الذين كفروا حيث يستمدون بمدّ الله لهم من اموال وبنين لتثبيت قاعدتهم وانهم . فقط . على خير ، رغم ان ذلك المدّ مزلة ومضلة لكثير من المؤمنين فضلا عن الكافرين ﴿بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ شعورا في الأمور ، ودقة تميزّ لهم المحبور عن المحظور.

---

(١) راجع كتابنا «المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية» وراجع تفسير الآية الثانية في سورة الأنبياء تجد فيها تفصيلا اكثر مما هنا.

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الله تعالى يقول : يحزن عبدي المؤمن إذا قترت عليه شيئا من الدنيا وذلك اقرب له مني ، ويفرح إذا بسطت له الدنيا وذلك أبعد له مني ... ان ذلك فتنة لهم» [١].

وقال علي (عليه السلام): «فلو رخص الله في الكبر لأحد لرخص لأنبيائه ورسله ولكنه سبحانه كره التكابر ورضي لهم التواضع ، فألصقوا بالأرض خدودهم ، وعفروا في التراب وجوههم ، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين ، فكونوا قوما مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة ، وابتلاهم بالمجهدة وامتحنهم بالمخاوف ومحصهم بالمكاره ، فلا تعتبروا الرضا والسخط بالمال والولد جهلا بمواقع الفتنة والاختبار في موضع الغنا والإقتار فقد قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فان الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم» [٢].

اجلّ هؤلاء الحماقى لا يشعرون أن مدّ الأموال والبنين ليس مسارعة في الخيرات ، فهم يسارعون في ذلك البلاء المبين تلوما يمد الله لهم فيه زعما انه مسارعة في الخيرات ، وانما المسارع في الخيرات هم :

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٤٥ عن المجمع وروى السكوني عن أبي عبد الله عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... ثم تلى هذه الآية إلى قوله : بل لا يشعرون ثم قال : ان ذلك فتنة لهم.

(٢) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام).

هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (٦٠) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (٦١) وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ

وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)

بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾(٩٠)

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ٥٧.

الخشية هي للقلب ، والإشفاق عناية مختلطة بخوف زائد عليها حين يعدّى بمن كما هنا ، فالمؤمنون لأنهم يخشون ربهم ، فهم مشفقون على أية حال ، ولا سيما حال النعمة الموفّرة عليهم ، فخشيتهم من ربهم تجعلهم خائفين في الرخاء والبلاء ، ولا سيما الرخاء ان قصروا وغمروا فيها غافلين ، فتبدّل نعمة الله نقمة ونعمة ، محاسبين أنفسهم في صرفها دون

تهدّر ، بكل حائطة ومراقبة وتحذر ، فالمؤمن الخاشي إذا يجمع يجمع إحسانا وإشفاقا ، وغيره يجمع دائبا إساءة وغمرة وإغراقا ، يقول : انما أوتيته على علم عندي ولا يحسب الله حسابه ، ولا يرجو ثوابه ولا يخاف عقابه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٨.

سواء فيها الآيات الآفاقية والانفسية ، بل هم يعيشون كل الآيات ايمانا بها ، والكون كله آيات الرب دون إبقاء ولا استثناء فيعتبرون بضمنها كلا من الرخاء والبلاء من آيات البلاء فيشفقون خشية من ربهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٩.

وكيف يأتي نفي الإشراك بربهم بعد الايمان والإشفاق من خشية ربهم ، وهذا السلب يتقدم كل إيجابات الايمان؟

علّه لأنه يعني الإشراك في شؤون الربوبية ، لا ـ فقط ـ الالوهية ، ومن الإشراك بالرب رئاء الناس ، والانعطاف إلى غير الرب في أية زاوية من زوايا الحياة طويلة وقصيرة.

فذلك ـ إذا ـ سلب يجرف عن ايجابيات الايمان كدرتها ، وتبلور الإيمان عما يشوبه من شرك خفي قد لا يحسب بشيء.

فمثله مثل الإسلام بعد الإيمان الذي هو بعد إسلام ، فهنا سلب بعد إيجاب كان بعد سلب ، واين سلب من سلب واين إيجاب من إيجاب ك ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ..﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ ٦٠.

﴿يُؤْتُونَ ما آتَوْا﴾ عن طاعة الله ، من مال وعلم ومعرفة ، ومن نفس

واي نفيس يمكن ايتاءه في سبيل الله و «ما آتوا» ماضيا بعد «يؤتون» دليل استمرارهم في ذلك الإيتاء ، فهم يعيشون حياة الإعطاء والإيتاء في سبيل الله «و» الحال في إيتاءهم ان ﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ علهم مقصرون ام هم قاصرون ل ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

والوجل هو استشعار الخوف ، فهم تستشعر قلوبهم خوفا من الهول المطّلع حين يرجعون إلى ربهم ، استعظاما لقدر الله حق قدره ، واستصغارا لأقدارهم أنفسهم بما آتوا من صالحات.

أتراهم وجلة قلوبهم لمعاصيهم ومآسيهم؟ كلا! حيث ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ هو إتيان ما فرض عليهم وندب فيه إليهم : «يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله ان لا يتقبل منه» [1].

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١١ اخرج جماعة عن عائشة قال قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ اهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال : لا ولكن الرجل يصوم ... وأخرجه مثله جماعة عن أبي هريرة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) الا «وهو مع ذلك» وفي نور الثقلين ٣ : ٥٤٥ عن الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال : سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : ان قدرت ان لا تعرف فافعل وما عليك ان لا يثني عليك الناس وما عليك ان تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله ثم قال قال علي بن أبي طالب لا خير في العيش الا لرجلين رجل يزداد كل يوم خيرا ورجل يتدارك منيّته بالتوبة وأنى له بالتوبة والله لو سجد حتى ينقطع عنقه ما قبل الله تبارك وتعالى منه الا بولايتنا اهل البيت ألا ومن عرف حقنا ورجا الثواب فينا ورضي بقوته نصف مد في كل يوم وما ستر عورته وما أكن رأسه وهم في الله في ذلك خائفون وجلون ودوا انه حظهم من الدنيا وكذلك وصفهم الله عز وجل فقال : والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم إلى ربهم راجعون ثم قال : ما الذي آتوا والله مع الطاعة والمحبة والولاية وهم في ذلك خائفون ليس خوفهم خوف شك ولكنهم خافوا ان يكونوا مقصرين في محبتنا وطاعتنا.

وهكذا يكون المؤمن الصالح ، وجل القلب انه راجع إلى ربه ، وافدا اليه من غير زاد مهما زاد فيما أتى من طاعة ربه ، وليس يعني وجلهم انهم في شك من الثواب على ما آتوا ، بل هم بين خوف من تقصيرهم ورجاء لرحمة ربهم دون ان يروا استقلالا لاعمالهم في الثواب ، بل يستقلونها لاستحقاق الثواب.

و «لو ان العباد وصفوا الحق وعملوا به ولم تعقد قلوبهم على انه الحق ما انتفعوا به» [١] ولا ينافيه وجل قلوبهم استصغارا لاعمالهم وعدم بلوغ تقواهم حق التقاة ، ف «ان المؤمن يعمل بين مخافتين بين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين اجل قد بقي لا يدري ما الله عز وجل قاض فيه» [٢].

اجل وان قلبا يستشعر يد الله عليه وعين الله ترعاه ، ويحس آلاءه التي لا تحصى في كل نبضة فيستصغر ويستقل كل ما آتاه تعبدا لربه وأعطاه لخلقه في سبيله ، شاعرا بالهيبة المحلّقة على كيانه ككل ، مشفقا ان يلقى الله وهو مقصر ـ وقطعا هو قاصر ـ في حقه :

﴿أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ ٦١.

يصارعون الشرور والأشرار ويسارعون في الخيرات مع الأخيار ، قضية تلك اليقظة والتطلّع الدائب ، وعجلة سيرهم إلى ذلك المصير هي عدم اشراكهم بالله وايمانهم بآيات الله ، وخشيتهم وإشفاقهم من الله وإيتائهم ما آتوا وجلة قلوبهم في سبيل الله ، فبطبيعة الحال ﴿أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٤٦ في محاسن البرقي عن زرارة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ...

(٢) المصدر في الكافي عن حمزة بن حمران قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول : ان مما حفظ من خطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : ...

﴿الْخَيْراتِ﴾ دنيا وعقبى ، دون مسارعة في اموال وبنين إلا ما يقدمونه في سبيل الله ، ﴿وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ دون «إليها» فقط ، بل «لها» حيث ان ذلك السباق لزام حياتهم فهم غامرون فيها ليل نهار ما عاشوا ، لا يهمهم إلا ان يسبقوا الرفاق في ذلك السباق.

ام هم لأجل الخيرات سابقون في كل ميادين السباق ، دون ما يسارع لها غيرهم وهم فيها متصارعون غامرون.

﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ ٦٢.

لا نكلفهم في سباقهم هذه الا وسعهم دون عسر ولا حرج ، فكلّ يعتقد حسب وسعه دون عسر ولا حرج ، وكلّ يعمل حسب وسعه دون عسر ولا حرج.

وكما «لا نكلف» يعم اصل التكليف الخارج عن الوسع ، كذلك الحالات الاستثنائية للاحكام الميسورة حيث تنقلب فيها التكاليف معسرة او محرجة ، كما وان «نفسا» تؤيد ذلك الشمول.

«ولدينا» علما لدنّيا نعلم عسرهم ويسرهم ، وسائر الشهود الرسالية والملائكية والعضوية والأرضية «كتاب» استنسخناه : ﴿هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٥ : ٢٩)﴿كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ بسبب الحق الثابت الذي حصل ، وبسبب الحق عند الله ، وبمصاحبة الحق الذي يحمله الكتاب ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك النطق الشهادة ، نطق القالة ونطق الصورة ونطق السيرة المستنسخة المسجّلة في سجلّات الأعمال والأحوال والأقوال.

ولقد كان يحمل علي بن الحسين (عليه السلام) غلمانه قائلا «ارفعوا

أصواتكم وقولوا : يا علي بن الحسين (عليه السلام) ربك قد أحصى عليك ما عملت كما أحصيت علينا ولديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فاذكر ذل مقامك بين يدي ربك الذي لا يظلم مثقال ذرة وكفى بالله شهيدا ، فاعف واصفح يعف عنك المليك ..» [١].

فليس نكرانهم لأنهم كلّفوا فوق السعة معرفيا .. وعمليا فهم معذرون :

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ﴾ ٦٣.

هذه صفات المؤمنين وحالاتهم ، وأما المسارعون في خلافها فهم معاكسون لهم تماما ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا﴾ الذي ذكرناه لهؤلاء ، وفي «هذا» القرآن الذي يذكرهم عن غفلتهم فهم غامرون في لجج الجهالة ، خامرون عقولهم بخمر الغفلة «و» الحال ان ﴿لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ﴾ الذي يعمله المؤمنون ، ومن دون ذلك الذي وصفناه لهم ، غمرة هامرة خامرة ليس لهم من دونها شاعرة الا شاغرة ، أولئك هم في غمرة المسارعة في الخيرات ، وأولاء في غمرة الشهوات ، في حيرة تغمرها وغمة تسترها ، حيث الغمرة هي ما وقع الإنسان فيه من امر مذهل ، وخطب موغل ، مشبه بغمرات المياه التي تغمر الواقع فيها وتأخذ بكظم المغمور بها.

هذا ، وقد تعني ضمائر الجمع الثلاث المؤمنين أنفسهم و «بل» إضراب عما ذكرت لهم من صفات تحدد مواقفهم الايمانية ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٤٧ في المناقب لابن شهر آشوب في مناقب زين العابدين (عليه السلام) وكان إذا دخل شهر رمضان يكتب على غلمانه ذنوبهم حتى إذا كان آخر ليلة دعاهم ثم اظهر الكتاب وقال : يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أؤدبك؟ فيقرون اجمع فيقوم وسطهم ويقول لهم : ارفعوا أصواتكم ...

﴿غَمْرَةٍ مِنْ هذا﴾ المذكور لهم فلا تحدّ خيراتهم حدود ﴿وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ﴾ الذي ذكرناه ﴿هُمْ لَها عامِلُونَ﴾ دون «هم عاملوها» فاللام تجعل اعمالهم الصالحة لزاما لغمرتهم.

ام تعني الآية كلتا الضفتين كلا بغمرته ، واين غمرة من غمرة واين مسارعة من مسارعة.

﴿حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ ٦٤.

ولأن الضفّة الشريرة المسارعة في الشهوات موصوفة من قبل ب ﴿أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ ف «مترفيهم» هنا يقتسم الغامرين إلى مترفين وسواهم ، و «حتى إذا» تنهي الغمرتين إلى حين العذاب موتا وسواه ، فالغامرة المترفة تجئر ، والغامرة المؤمنة لا تجئر ، والجؤار هو صوت الوحش عند الفزع ، فهم الوحش مستوحشين من عذاب الله المفاجأ رجاء النصر ولكن :

﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ﴾ ٦٥.

ولأنه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ فسلب النصر من عنده سلب لمطلق النصر ، وهكذا يخاطبون بعد غياب من ذكراهم ليكون أوقع في استيحاشهم تقريعا لهم وقطعا لآمالهم فانه :

﴿قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ ٦٦.

«قد كانت» مؤكّدة متواترة بينة «آياتي» المذكرة لكم عن غمرتكم ﴿تُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ ليل نهار «فكنتم» على طول خطها «على أعقابكم» آباءكم الأولين ، وأعقابكم أنفسكم مدبرين «تنكصون» ، رجوع القهقري ، مرتجفين إلى جهّال وجهالات ، مسامحين عما عندهم من عقول وذكريات :

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ﴾ ٦٧.

«مستكبرين» عن سماع الآيات ، ام إذا سمعتهم فعن تدبرها

والاعتبار بها «سامرا» : متحدثا بالليل ، ليلة الجهالة والشهوة ، ليلة الحيونة والاستكبار ، ليلة التقاليد العمياء ، دون ضوء من الاضواء آفاقية وانفسية ، حال انكم «تهجرون» هذيانا هاجرا للحق ، حاجزا عما يحق ان يسمع ويطبق ، مطلقون ألسنتكم بهجر القول وفحشه وأنتم محلّقون ـ حول أصنامكم في سامركم ـ بالكعبة

فلقد كان هؤلاء يرمون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في ظلام ، ويطلقون ألسنتهم بهجر القول وفحشه في نواديهم ، وهنا القرآن لما يجأرون يذكرهم بسمرهم الفاحش وهجرهم الطائش في الليل الأليل الدجى ، بهراء هم الهجى.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٦٨.

«أ» سمعوا ﴿فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ حتى يعرفوا حقه الرسالي «ام» اعرضوا عنه لأنه أتى ﴿ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾؟ وقد أتاهم نفس ما أتاهم وزيادة ، فما هو بدعا من الرسل ولا قوله الرسالي بدع من القول!

وهم محجوجون ان لم يدّبّروا حيث أنكروا رمية في ظلام ، ومحجوجون ان تدبروا وأنكروا بحجة انه أتى ما لم يأت آباءهم الأولين وقد أتى!

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ ٦٩.

«لم يعرفوه» منذ دعوته إذ لم يدّبّروا قوله ام هو بدع من القول ، «ام لم يعرفوه» رغم كافة الحجج الرسالية المحلقة عليه ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ رغم هذه الحجج الدامغة البارقة ، ام لم يعرفوه قبل رسالته فقد لبث فيهم عمرا من قبله أفلا يعقلون ، فقد عرفوه قبل بالامانة والصدق ، فهل الأمين الصادق مع الناس يتحول إلى خائن كاذب مع الله ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى﴾ فقد عرفوه سابقا وفي الحال بأحواله المصدّقة لكل حاله وقاله دون

اي كذب وإدغال ، ثم لما جاءهم بما ينجيهم من غمرة الجهالة أنكروه.

ذلك وكما عرفه اهل الكتاب بما بشر به بمواصفاته في كتاباتهم ، ولما جاءهم كذبوه وجنّنوه : ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ﴾ (٢ : ١٤٦) و ٦ : ٢٠).

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ ٧٠.

وهذه طنطنة وغوغائية دعائية هي آخر المطاف لهم في تزييف موقف الرسالة ، ان «به جنة» إذ يقول ما لا نقول به ، ويعد ما لا نعرفه ، فبيننا وبينه حجاب المعرفة ، «بل» كل ذلك دعوى بلا حقيقة ولا برهان ﴿بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بكلّ آياته وبيناته ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ وأقلهم لا يعرفونه قصورا أو تقصيرا فهم له منكرون ، قصورا كالمستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فهم بله لا يميزون ، وتقصيرا كمن لا يفتشون عن الحق ، بغية أريحية الحياة ، أم عرفوه ولكنهم تركوه دون كراهية له نفسه ، وانما كراهية التوبيخ من قومهم وان يقولوا ترك دين آباءه.

هؤلاء هم منجرفون مع الهوى ، منحرفون إلى كل ردى ، يهوون ان يتّبع الحق أهوائهم ، كأنهم آلهة بأهوائهم الطائشة وعلى الحق ان يتبعهم حيث جعلوا آلهتهم أهواءهم فألهتهم عما يعنيهم :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ٧١.

«لو» تحيل ذلك الاتباع المفروض المرفوض في كل الحقول عند ارباب العقول ، فلو كان الحق ـ المطلق ، المعصوم عن كل زلل وخطل ـ موافقا لاهوائهم القاحلة الجاهلة ، لعاد كلّ إلى ضلاله وأوقع كلّ في بطله

وكلاله ، حيث الحق يدعو إلى المحاسن والمصالح ، والأهواء تدعو إلى المساوئ والمقابح ، فلو اتبع الحق قائد الهوى لشمل الفساد وعم الاختلاط وخفضت أعلام الهدى ، ورفعت أعلام الردى.

ولا تعني «أهوائهم» فقط الشريرة منها التائهة ، بل والخيرة ايضا والعاقلة ، حيث المتّبع الصالح لادارة شؤون التكوين والتشريع هو الحق المطلق ، لا الحق الخاطئ كالعقول غير المعصومة ، فضلا عن الباطل المطلق ، ف «الحق» هنا هو الله ، والأهواء هي من غير الله عقولا ام أهواء سواها ، ف ﴿ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾.

اجل وفي اتباع الحق لسواه ـ ايّا كان ـ اختلال كافة الموازين والمقاييس في السماوات والأرض ومن فيهن ، وكما في تعدد الآلهة المدّبرة والمشرّعة.

فالحق المطلق واحد ثابت لا يتقلب في تغلّبه ، والأهواء عاقلة وسواها كثيرة متقلبة ، وبالحق الواحد يدبّر الكون كله تكوينا وتشريعا فلا ينحرف ناموسه لهوى تعترض ، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة ﴿بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ الذي يذكّرهم عن قصورهم وتقصيرهم ، عن غفلتهم وغفوتهم ، ويذكرهم لما يتوجب عليهم في صالح حياتهم «فهم» أولاء الحماقى ﴿عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾!

فالقرآن ذكر جملة وتفصيلا ، ذكر للفطر والعقول والقلوب ، ذكر عما نسيه أصحابها ام تناسوه ، وذكر لما ستر عنهم من فصائل المعارف وفضائلها وهم يطلبون ان يتّبع الذكر الحق وحقّ الذكر أهوائهم الخاملة غير الكاملة ، فحتى لو اتفقت أهوائهم العاقلة على شيء لم تكن لتأتي بالحق المطلق ، فضلا عن أهوائهم الجاهلة ، ام المختلقة في هذه او تلك كما هي الواقع فيها على أية حال ، فالفساد ـ إذا ـ آت من بعدين اثنين : قصور الأهواء ، وتضادها ، فليكن الحاكم المطلق هو الحق المطلق لا سواه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ٧٢.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ رزقا على أتعاب الدعوة ، وليس يسأل ، وذلك تذكار لهم أنه يدعوهم إلى الله دون ان يسأل خرجا ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فكل الموانع في تقبّل الدعوة ـ مادية ومعنوية أما هيه ـ زائلة ، وكلّ الدوافع لتقبلها حاصلة ماثلة:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٧٣.

«ان واللام» تأكيدان اثنان لانحصار هذه الدعوة إلى صراط مستقيم ، وانحسارها عما يبعده او يميل عنه ، وقد ذكر لنا ان نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقي رجلا فقال له اسلم فتصعّب له ذلك وكبر عليه فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه؟ قال : نعم ـ قال : فوالذي نفس محمد بيده انك لفي أوعر من ذلك الطريق لو كنت فيه واني لادعوك إلى أسهل من ذلك الطريق لو دعيت اليه ..» [1].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ﴾ ٧٤.

فالصراط المستقيم هو صراط المبدء والمعاد وما بين المبدء والمعاد ،

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٣ ـ اخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : ما فيه عوج ذكر لنا ... وذكر لنا ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لقى رجلا فقال له اسلم فصعده ذلك فقال له نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أرأيت فتييك أحدهما ان حدث صدقك وان أمنته ادى إليك والآخر ان حدث كذبك وان ائتمنته خانك قال : بلى فتاي الذي إذا حدثني صدقني وإذا أمنته ادى الي قال نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كذاكم أنتم عند ربكم.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم ناكبون عن ذلك الصراط حيث المعاد هو مصير المبدء والرسالة ، وهما مسير المعاد ، وكما المعاد مصيرهما.

ولان الصراط صراطان : في الدنيا والأخرى ، فهم ناكبون مائلون عنهما ، فساقطون فيهما إلى شفا جرف هار ﴿وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ٧٥.

«لو» هنا تحيل رحمة الله لهم إذ صدوا على أنفسهم كل منافذها ، ثم لا يرجى منهم الهدى بكشف الضر عنهم ، بل لجوا في طغيانهم المتعرق في حياتهم يعمهون ، فلما ذا نرحمهم وهي عذاب على عباد الله الذين يظلون ويضلون تحت رحمة طغيانهم العمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾ ٧٦.

هؤلاء الصلتون الصلبون الصامدون في كفرهم لا يزحزحهم عن ضلالهم لا رحمة بكشف الضر عنهم ولا عذاب ﴿وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ تخضعا [1] له عن كبرهم ﴿وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾ استغفارا

---

(١) في الكافي باسناده عن محمد بن مسلم قال سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن هذه الآية فقال : الاستكانة هي الخضوع والتضرع رفع اليدين والتضرع بهما وفي المجمع وروي عن مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نابتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رفع الايدي في الاستكانة قلت وما الاستكانة؟ قال : اما تقرء هذه الآية ﴿فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ﴾ أورده الثعلبي والواحدي في تفسيريهما وفيه قال ابو عبد الله (عليه السلام) الاستكانة الدعاء وفي الدر المنثور ٥ : ١٤ اخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في الآية اي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا ولو خضعوا لله لاستجاب لهم.

عما كانوا يعملون ، والإنسان أيا كان يتحول حال الرحمة والعذاب إلى غير حاله ، ففريق يشكرون حال الرحمة ، وآخرون يستغفرون حال العذاب والرحمة ، واما هؤلاء المناكيد فكأنهم ليسوا من الناس ، بل هم نسناس وسواس خناس دائبون في كفرهم بآله الناس :!

﴿حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ٧٧.

ان أبواب العذاب اربع ، اثنان في الاولى وآخران في الاخرى ، فعذاب الاستئصال وما دونه يوم الدنيا ، وأشد منه يوم الرجعة ثم أشد منهما يوم البرزخ ، ثم الأشد في الاخرى ، و ﴿باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ قد لا يعني الاولى في الاولى ، لمكان ﴿أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ﴾ من ذي قبل ومواصفته ب «شديد» والاولى أيا كان هي بجنب سائر العذاب غير شديد ، و ﴿حَتَّى إِذا فَتَحْنا﴾ تضرب إلى المستقبل ، ولان ضمير الجمع في «عليهم» يعم كافة الطغاة في تاريخ الرسالات فليكن العذاب الشديد يوم الرجعة [1] ﴿إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ حزنا معترضا من شديد البأس.

واما يوم القيامة فكل أبواب العذاب مفتوحة عليهم وعلى سواهم من اهل الجحيم ، ويوم البرزخ لكلّ باب تناسبه ، وليس هناك باب جماهيرية تفتح على ذلك الجمع الطاغي.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ ٧٨.

«الافئدة» هي القلوب المتفئدة ، ذاتية بأنوار الفطرة ، وعارضية بما

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٥٠ عن المجمع قال ابو جعفر (عليه السلام): هو في الرجعة.

تستوردها بالسمع والأبصار ظاهرية وباطنية من الآيات الآفاقية ، والشكر على هذه النعم الثلاث هو استعمالها فيما انشأت له من مزيد المعرفة ولكن ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ عدّة بين الجموع ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ وعدة في هذه القلة حيث لا يشكرونه كلهم كما يحق ويستطيعون ، فالشاكرون تماما هم أقل قليل ، والشاكرون بعضا هم القليل ، والكافرون هم الكثير.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ٧٩.

الذرء هو الإظهار ف ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أظهركم أحياء ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ثم يخفيكم إذ يميتكم ثم ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ ٨٠.

فكما له اختلاف الليل والنهار أن يأتي كلّ خلف الآخر وخلفته وفي كل حكمة بالغة ، كذلك له اختلاف الإحياء والإماتة كلّ يأتي خلف الآخر حسب الحكمة البالغة وهي أحرى واعقل ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ وما هو الفارق بين الاختلافين الا موادهما؟ فحين نعيش اختلاف الليل والنهار لحكمة معيشية دنيوية فانية ، فهلا نعيش اختلاف الموت والحياة لحكمة معيشية اخروية باقية ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾!؟

﴿بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ ٨١ قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٨٢ لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٨٣.

انهم لم يؤمنوا بعد هذه الدلائل الباهرة والحجج الظاهرة ولم يقولوا آمنا «بل» قالوا كلمة الكفر ، ولم تكن قولتهم من عند أنفسهم ﴿بَلْ قالُوا مِثْلَ

ما قالَ الْأَوَّلُونَ﴾ . ﴿يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ قالوا قيلة الاستبعاد لبعثهم بعد إذ كانوا ترابا وعظاما ، وهو الذي خلقهم أول مرة ، ثم هو يخلقهم وهو أهون عليه ﴿لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا﴾ الوعد «من قبل» طول تاريخ الرسالات ﴿إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وخرافات ملفقة من «الأولين»

لقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة ومتناقضيها ، فهم حين لا ينكرون الله خالق الكون يشركون خلقه به ، وحين لا ينكرون انه خالق الحياة ينكرونها بعد الموت ، ولذلك هنا يستجوبهم فيما هم معترفون ، ثم يتبناه لتثبيت ما هم منكرون :

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤.

لمن هي ومن فيها ، ملكا وملكا وتدبيرا أصيلا.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ ٨٥.

أفبعد ذلك الاعتراف الجاهر لا تذكّرون؟.

ان مالك الكون هو ـ فقط ـ مدبّره حسب الحكمة البالغة ، دون شريك ولا معين ولا مشير ، وقضية الملكية والمالكية الصالحة إصلاح المماليك وفصل القضاء بينهم فلا بد إذا من يوم لفصل القضاء.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ ٨٧

و ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ هو هنا عرش العلم والقدرة والتدبير والتقدير ، وبصيغة اخرى هو عرش الربوبية المحلّقة على كافة شؤون السماوات السبع ومن فيهن ومن بينهن ، وأرضنا منها.

«سيقولون» ان هذه الربوبية «لله» مهما اعتقدوا في ربوبيات هامشية لأربابهم فانها ايضا لله حيث هي أنفسها مخلوقة لله ﴿قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ الله حيث تشركون به وتنكرون وحيه ويوم حسابه.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ٨٩.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ﴾ علما وقدرة وأية سلطة «ملكوت» حقيقة الملك والملك ل «كل شيء» فهو املك لكل شيء منها لأنفسها ، فناصية كل شيء . وما به الشيء شيء بأسره . ليس إلا بيده لا سواه ، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ وينقذ كل شيء مستجيرا وسواه ، حيث الفقر هو ذات كل شيء ، والأخطار محلّقة على كل شيء فهي بحاجة ذاتية إلى إجارة من الأخطار والأضرار ﴿وَلا يُجارُ عَلَيْهِ﴾ حيث لا مجير عليه كما لا مجير له إذ لا أخطار عليه ولا يد فوق يديه.

﴿بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ ٩٠.

فليس هنا لك قصور منا ولا تقصير في بيان الحق ﴿بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ﴾ المطلق دون غبار عليه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ في دعاويهم ، وحتى في اعترافاتهم بهذه الحقائق فانها تضاد واتخاذهم آلهة سواه ، وعبادتهم لما سواه ، بل وتركهم إياه كأن لا إله الا ما تهواه أنفسهم مما اتخذوه آلهة سواه :

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى

عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً

ضالِّينَ (١٠٦) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (١٠٧) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (١١١) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (١١٣) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾(١١٨)

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٩٢.

كون إله من دون الله لا يخلو من اتخاذه إلها من قبل الله ولدا وسواه ، ام انه إله كما الله على سواء ، ولكن ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ اتخاذا بالولادة إذ لم يلد ، ولا اتخاذا تشريفيا إذ لا شرف لعباد الله المقربين اشرف من العبودية ، والمجاز مجاز إذا أمكنت الحقيقة ، فلأن حقيقة الولادة الذاتية مستحيلة في الله فكذلك مجازها تبنيا لبعض خلقه.

فالولد الحقيقي جزء من حقيقة الوالد ، فألوهية الوالد تقتضي الوهية لولده ، ثم للولد التشريفي ألوهية مخوّلة مهما لم تكن له ذاتية ولادية ، وهما منفيان لأي احد تجاه الله.

وهنا تبقى الوهية ثالثة هي ذاتية غير ولادية وكما لله ، تنفيها عن غير الله : ﴿وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ﴾ وبرهان النقض ﴿إِذاً لَذَهَبَ ...﴾ يتمحور الالوهية الذاتية ، وعلى هامشها الولادية ام والتشريفية.

إذا لو ﴿كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ﴾ واستقل هو بنفسه بما خلق ، وانفصل النظام وانفصم ، فإن لكلّ شأنا غير شأن الآخر ، ولكلّ خلق يريده سوى ما يريده الآخر ، فان انقسم الخلق بينهما ولكلّ نصيب ، انقسم النظام ، وان تعارضا في كل خلق لتناقض الخلق واستحال النظام ، ف «إذا شاء واحد ان يخلق إنسانا شاء الآخر ان يخالفه فيخلق بهيمة ، فيكون الخلق منهما على مشيتهما واختلاف ارادتهما إنسانا وبهيمة في حالة واحدة ، فهذا من أعظم المحال غير موجود ، وإذا أبطل هذا ولم يكن بينهما اختلاف بطل الاثنان وكان واحدا ، فهذا التدبير واتصاله قوام بعضه ببعض

يدل على صانع واحد ..» [١].

فهذه الآية تضم حججا ثلاثا ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ . ﴿وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ﴾ . ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾.

فالثاني لزوم ذهاب كل آله بما خلق مستقلا بما خلقه ، يعرفه حسب ناموس خاص ، فيصبح لكلّ جزء من هذا الكون ، او لكلّ فريق من الخلق ، ناموس خاص لا يلتقي فيه بناموس عام يصرف الجميع ، وبذلك تنفصم عرى الوحدة في التدبير ويختل النظام رغم وحدة التدبير واتصاله.

والثالث لزوم علو كلّ على زميله استقلالا بعرش الألوهية وقضاء على نقص الشركة ، علوا على ألوهيته ذاتا ام صفات او افعالا ، استقلالا بما هو قادر عليه.

والقول اننا نفرض وحدتهما في الارادة فلا يتنازعان ، يرده ان الوحدة المطلقة قضيتها الوحدة من جميع الجهات فأين الاثنان ، فحتى لو صحت وحدة الارادة لوحدة العلم والقدرة والحكمة ، نتساءل أليس بينهما اي فارق ذاتي ام صفاتي؟ ففي فرض وجود الفارق . وهو لزام التعدد . نقول ان كان الفارق لكلّ نقصا فهما ناقصان ، وان كان لكلّ كمالا فكلّ يفقد كمالا يجده الآخر ، فهما . إذا . ناقصان من وجه ثان ، فليسا إلهين اثنين.

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ١١٨ عن تفسير القمي في الآية ثم رد الله عز وجل على الثنوية الذين قالوا بالهين فقال : ما اتخذ الله ... قال قال : لو كان الهين كما زعمتم فكانا يختلفان فيخلق هذا ولا يخلق هذا يريد هذا ولا يريد هذا وليطلب كل واحد منهما الغلبة لنفسه ولا يستبدل كل واحد بخلقه وإذا أراد ... لطلب كل واحد فيهما العلو وإذا شاء .. وهو قول الله عز وجل ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ ...﴾ وقوله ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾.

وفي فرض عدم الفارق أيا كان فلا تعدد أيا كان ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ الآلهة الا الله كما «لفسدتا» السماوات والأرض ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اي شريك بثالوثه المنحوس.

﴿عالِمِ الْغَيْبِ﴾ وهو كل ما يغيب عن سواه حاضرا ام سوف يخلق «والشهادة» وهي خلافه ، ام «الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان» [1] وهما له شهادة على سواء ، فلو كان معه إله لعلمه قبل خلقه ، ولو كان اتخذ ولدا ام آلها سواه لكان يعلمه فيعلمه خلقه حتى يتخذوه معه آلها ﴿فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٩٤.

دعاء يعلمها الله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يريه ما يوعدون ألّا يجعله في القوم الظالمين ، لا ظالما كما هم ولا معينا لهم كما الأعوان ، ولا مشمولا لما يوعدون كفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، فهي دعاء لمفاصلة تامة بينه وبينهم في دافع الظلم وواقعه وواقعته الموعودة للظالمين.

﴿وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ﴾ ٩٥.

تعجيلا لما نعدهم حتى ترى ، ام تأجيلا لأجلك حتى تبقى فترى آجل وعدهم ، وقد يكفيك وعدنا عن رؤيته وانما عليك دفع السيئة بالتي هي

---

(١) تفسير البرهان ٣ : ١١٨ في معاني الاخبار ابن بابويه بسند عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : عالم الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان ، أقول : ما قد كان هو شهادة له ككل لمكان حضوره وما لم يكن هو غيب عن الحضور كونيا ولكنه شهادة لحضوره علميا.

احسن حتى ترى ما ترى ام يقع ما لا ترى :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ﴾ ٩٦.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٤١ : ٣٤).

فواجب الدفاع عن النفس او النفيس ام راجحه ، يفرض الطريقة التي هي احسن ، فقد تكون عفوا وسماحا فينقلب السيء حسنا ، ام تأجيلا وأنت ـ بينك وبين الأجل الصالح ـ تعامل بالتي هي احسن عله يرجع عن غيه وضلاله ، ام تستجيش كافة المحاولات الممكنة المعقولة لدفع السيئة عنك وعمن يسيء إليك ام من يسيء إلى سواك ام إلى نفسه او إلى شرعة الله ككل [١].

وفي آخر المطاف حيث لم تبق لك باقية من الطرق الحسنى فقضاء على عامل السوء اجتثاثا لمادة الفساد ان استطعت ، والا ف «التي هي احسن التقية» [٢].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ﴾ من أوصافه خارفة جارفة.

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٥١ في الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : بعث امير المؤمنين (عليه السلام) الى بشر بن عطارد التيمي في كلام بلغه فمر به رسول امير المؤمنين (عليه السلام) في بني اسد واخذه فقام اليه نعيم بن دجاجة الاسدي فأفلته فبعث اليه امير المؤمنين (عليه السلام) فأتوه به وامر به ان يضرب فقال نعيم اما والله ان المقام معك لذل وان فراقك لكفر ، قال : فلما سمع ذلك منه قال له : قد عفونا عنك ان الله عز وجل يقول ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ اما قولك : ان المقام معك لذل فسيئة اكتسبتها واما قولك : وان فراقك لكفر فحسنة اكتسبتها فهذه بهذه فأمران يخلى عنه.

(٢) المصدر في محاسن البرقي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : التي ...

«ادفع» كما تستطيع بمن معك من المؤمنين همزات الشياطين ، مستعيذا في ذلك برب العالمين :

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ٩٨.

صحيح ان «ادفع . وقل» خطابان للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنهما لا يخصانه إذ ليسا من اختصاصاته كحامل الرسالة.

فهما كسائر الخطابات القرآنية يعمان كافة المكلفين مهما توجه إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كبداية ، ولكنه منطلق الخطابات كرسول ، الا فيما قرنت بقرينة قاطعة تخصها به كفرض صلاة الليل وسماح الزواج اكثر من الأربع واضرابهما من اختصاصاته.

و «همزات» جمع همزة ، وهي شدة الدفع والهزّ والأزّ كما هي الاغتياب : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ وقد تعنيهما الهمزات هنا لمكان الإطلاق ، وقرنها ب «يحضرون» فالاستعاذة إذا تحلّق على الحالتين للشياطين «غيابا» [١] وحضورا ، وهم . ايضا . أعم من الشياطين الغيّب والحضور ، فان لهم دفعا إلى الشرور ومنعا عن الخيرات غيبّا وحضورا.

ولقد «كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلّمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع : «بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وان يحضرون» [٢] «فانه لا

---

(١) في تفسير القمي في الآية قال : ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين ، أقول : فحضورهم غير ذلك الهمز مهما اشتركا في الدفع.

(٢) الدر المنثور ٥ : ١٥ . اخرج جماعة عن عمر بن شعيب عن أبيه عن حده قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ...

يضرك وبالحري ان لا يضرك» [١].

و «كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول بعد استفتاح الصلاة : لا اله الا الله ثلاثا . الله اكبر ثلاثا . اللهم اني أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه ، فقيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما همزه؟ قال : الموتة التي تأخذ ابن آدم اي الجنون الذي يأخذ ابن آدم ، قيل فما نفثه؟ قال : الشعر ، قيل فما نفخه قال : الكبر[٢].

وهكذا تكون همزات الشياطين حيث تجنّن والجنون فنون تختصرها معصية الله حيث يهز الإنسان هزا ويأزه أزا ودفعا إليها.

﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٠٠.

ترى وبما ذا تتعلق «حتى» هذه الغائية؟ انها متعلقة ب «أعوذ . أعوذ» فالاستعاذة من الشيطان هي ما دام هو حي يشيطن ويهمز ، ومتعلقة بما قبلهما ما يصلح تعلقها به ، ويجمعه كفر الشياطين ونكرانهم وأقاويلهم ، وان تلك الحالة النكدة دائبة لهم ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ..﴾.

ثم ومجيء الموت هو واقعه ، فهو يقول بعد انقباض روحه وانتقاله عن الحياة الدنيا ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ حيث «إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له كل شيء يمنعه عن الحق فيحول بين عينيه فعند ذلك يقول : ﴿رَبِّ

---

(١) المصدر اخرج احمد عن خالد بن الوليد انه قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اني أجد وحشة قال : إذا أخذت مضجعك فقل أعوذ ... فانه لا يضرك ..

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٣ : ١١٩ قال الحسن كان عليه السلام يقول ...

﴿ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾[1].

و «ارجعون» هنا حيث تعني الرجوع إلى الحياة الدنيا ، دليل قاطع لا مرد له على الحياة بعد الموت ، وهي المسماة بالحياة البرزخية كما هي تصريحة الآية ﴿وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

ولماذا «ارجعون» جمعا والرب واحد كما هو معترف به «رب» مهما مات مشركا ، حيث الموت يكشف كافة الحجب مهما لم ينفع المحجوب يوم الدنيا؟

علّه خطاب لملائكة الموت بعد نداءه الرب : ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ (٨ : ٥٠).

﴿قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ..﴾ وقد يخاطب الربّ نفسه : ﴿فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً﴾ (٣٢ : ١٢) ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٥ : ٣٧).

«لعلي» ترجيا لإصلاح ما فات ﴿أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ من حياة التكليف ﴿صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فليس ﴿فِيما تَرَكْتُ﴾ فقط الصالحات المتروكة ، حيث الطالحات المفعولة لها دور اخطر ، وخطر اكثر ، ولا تشملها ﴿فِيما تَرَكْتُ﴾.

«صالحا» هو صالح الفعل وصالح الترك بديلا عن الطالح فيهما فيما تركت من حياة التكليف ، وكما تعنيه ـ ايضا ـ «نعمل صالحا غير الذي كنا

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٥ ـ اخرج الديلمي عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

نعمل» حيث تعم عمل الواجبات وترك المحرمات فكلّ عمل مهما اختلفا سلبا وإيجابا.

وقد يعني ﴿فِيما تَرَكْتُ﴾ الفرصة التي تركها ، والمال والبنين والمنال وكل حال من الأحوال ، ام ﴿فِيما تَرَكْتُ﴾ من التكاليف سلبية وايجابية اما هيه مما ترك.

والجواب كلمة واحدة «كلا» بكل تقريع ﴿إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ ليس وراءها واقع لا من قائلها لو أرجع ، ولا من الله حيث لن يرجعه ، وكل ما في الأمر ﴿وَمِنْ وَرائِهِمْ﴾ بعد الموت «برزخ» بين الحياة الاولى والاخرى فهو الحياة الوسطى ﴿إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بأرواحهم وأجسادهم عن أجداثهم.

وي كأن المشهد معروض بنفسه الآن كالعيان ، مشهد الاحتضار والانتصار للرجوع ، ثم الرد القارع كأنه يسمع الآن ﴿إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ لا مدلول وراءها ، كلمة تقال في لحظة الضيق ، ليس لها في القلب اي رصيد ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ (٦ : ٢٨) ولا من الله اية اجابة الا عذاب شديد!.

ولماذا «من وراءهم» والبرزخ أمامهم حيث يستقبل الموتى؟ علّ الوراء كناية عن الحيطة البرزخية بهم كما ﴿كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ (١٨ : ٧٩) اضافة إلى انهم لا يستقبلون ذلك البرزخ خيرة منهم ولذلك يقولون ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ إذا فالبرزخ هو الذي يلحقهم كمن يطلب الفارّ من وراءه ، وهو لاحقه وهم عنه مدبرون.

وقد يعني البرزخ . فيما عناه من حياة وسطى . الحاجز المانع ، فهو في هذا البين محجوز عن الرجوع إلى الحياة الدنيا ، كما هو محجوز عن البعث إلا في يومه.

وترى «كلّا» تعم كل الموتى؟ فأين الرجعة يومها؟ الراجعون المؤمنون يوم الرجعة لا تشملهم الآية حيث تخص الكافرين واضرابهم من المجرمين ، والراجعون الكافرون هم بعضهم ولا تنفعهم تلك الرجعة بل وتضرهم ، ولا تعني «كلّا» عدم الرجوع مطلقا ، وانما رجوعا فيه ﴿أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ ثم «كلا» وان كانت عامة أو مطلقة فهي مخصصة أو مقيدة بمن يرجعون حسب آيات وروايات.

فالبرزخ البرزخ وما ادراك ما البرزخ؟ «هو امر بين أمرين وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة ، وهو قول الصادق (عليه السلام): والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ ، واما إذا صار الأمر إلينا فنحن اولى بكم» [١] و «ان القبر إما روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار» [٢].

فيا لله انهم «سلكوا في بطون البرزخ سبيلا سلطت الأرض عليهم فيه ، فأكلت لحومهم وشربت من دمائهم فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادا لا ينمون ، وضمارا لا يوجدون ، لا يفزعهم ورود الأهوال ، ولا

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٥٣ في تفسير القمي قال قال : البرزخ ... وفيه عن الصادق (عليه السلام) البرزخ هو القبر وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة والدليل على ذلك قول العالم (عليه السلام) والله ما نخاف عليكم الا البرزخ وفيه عن الكافي عن عمر بن يزيد قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) اني سمعتك وأنت تقول : كل شيعتنا في الجنة على ما كان فيهم؟ قال : صدقتك كلهم والله في الجنة ، قال قلت جعلت فداك ان الذنوب كثيرة كبار فقال : اما في القيامة فكلكم في الجنة بشفاعة النبي المطاع او وصي النبي ولكني والله أتخوف عليكم في البرزخ قلت : وما البرزخ؟ فقال : القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة.

(٢) المصدر عنه وقال علي بن الحسين عليهما السلام ...

يحزنهم تنكر الأحوال ، ولا يحفلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصف ، غيبا لا ينتظرون وشهودا لا يحضرون ، وانما كانوا جميعا فتشتتوا وألافا فافترقوا ، وما عن طول عهدهم ولا بعد محلهم ، عميت اخبارهم وصمت ديارهم ، ولكنهم سقوا كأسا بدلتهم بالنطق خرسا ، وبالسمع صمما ، وبالحركات سكونا ، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات ، جيران لا يتأنسون وأحباء لا يتزاورون ، بليت بينهم عرى التعارف ، وانقطعت منهم اسباب الإخاء ، فكلهم وحيد وهم جميع ، وبجانب الهجر وهم أخلاء ، لا يتعارفون لليل صباحا ولا لنهار مساء ، اي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا ، شاهدوا من أخطار دارهم أفظع مما خافوا ورأوا من آياتها أعظم مما قدروا ، فكلا الغايتين؟؟؟ أدت لهم إلى مباءة ، فأتت مبالغ الخوف والرجاء ، فلو كانوا ينطقون بها لعيوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا» [١].

وهذه صفتهم في أجسادهم دون أرواحهم بأبدانهم المثالية فإنهم فيها احياء ، «ولو كشف لك لرأيتهم حلقا حلقا مجتمعين يتحادثون» [٢] ف «ان الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تتعارف وتتساءل» [٣].

---

(١) المصدر عن نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام) ....

(٢) نور الثقلين ٣ : ٥٥٧ عن الكافي بسند متصل عن حبة العربي قال : خرجت مع امير المؤمنين (عليه السلام) الى الظهر فوقف بواد السلام كأنه مخاطب لأقوام فقمت لقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولا ثم جلست حتى مللت ثم قمت وجمعت ردائي فقلت يا امير المؤمنين (عليه السلام) اني قد أشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة ، ثم طرحت الرداء ليجلس عليه فقال لي : يا حبة ان هو الا محادثة او مؤانسة قال قلت يا امير المؤمنين وانهم لكذلك؟ قال : نعم ولو كشف ... فقلت؟؟؟ سام ام أرواح فقال أرواح وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض الا قيل لروحه الحقي بوادي السلام وانها لبقعة من جنة عدن.

(٣) المصدر عن الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال ان .

انهم يعيشون في البرزخ «في أبدان كأبدانهم» [١] «في روضة كهيئة الأجساد في الجنة» [٢] «في قالب كقالبه في الدنيا [٣] والمؤمنون «في

. الأرواح ... فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فانها قد أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان فان قالت لهم : تركته حيا ارتجوه وان قالت لهم : قد هلك قالوا قد هوى هوى.

وفي البحار ٦ : ٢٣٤ عن المحاسن ابن محبوب عن ابراهيم بن إسحاق الجازي قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) اين أرواح المؤمنين؟ فقال : أرواح المؤمنين في حجرات في الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويتزاورون فيها ويقولون ربنا أقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا قال قلت فأين أرواح الكفار؟ فقال : في حجرات النار يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويتزاورون فيها ويقولون ربنا لا تقم لنا الساعة لتنجز لنا ما وعدتنا.

(١) في البحار ٦ : ٢٦٨ الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) جوابا عما يروون ان أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال : لا . المؤمن أكرم على الله من ان يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٥٥٩ ح ١٣٩ عن الصادق (عليه السلام) ردا على من قال أرواح المؤمنين في حواصل طيور وفي البحار ٦ : ٢٦٩ عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تعارف وتسأل ..

(٣) المصدر عن الكافي عن يونس بن ظبيان قال كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فقال :

ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ فقلت : يقولون تكون في حواصل طيور خضر في قناديل تحت العرش فقال ابو عبد الله (عليه السلام) سبحان الله المؤمن أكرم على الله من ان يجعل روحه في حوصلة طير يا يونس إذا كان ذلك أتاه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي وفاطمة والحسن والحسين والملائكة المقربون عليهم السلام فإذا قبضه الله عز وجل صير تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا ، فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا أقول والاخبار الدالة على الأجساد المثالية كثيرة ومن مظانها في بحار الأنوار في باب احتجاج امير المؤمنين على أبي بكر وفي باب غصب الخلافة وفي أبواب المعجزات من أراد تفصيلا اكثر فليراجعها

قوالب من نور» [١] فالكافرون في قوالب من ظلمة.

«والروح جسم رقيق قد البس قالبا كثيفا» [٢] ثم يلبس بعد الموت قالبا خفيفا يتسمى البدن البرزخي ، او الروح المجسم ام الجسم المروّح وهو الجسم الذي يطير به الروح ويسير في الرؤيا

﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ ١٠١.

---

(١) البحار ٦ : ٢٣٧ البرسي في مشارق الأنوار عن الفضل بن شاذان من كتاب صحائف الأبرار ان امير المؤمنين (عليه السلام) اضطجع في نجف الكوفة على الحصى فقال قنبر يا مولاي الا افرش لك ثوبي تحتك؟ فقال : لا إن هي الا تربة مؤمن او مزاحمته في مجلسه ، فقال الأصبغ بن نباتة اما تربة مؤمن فقد علمنا انها كانت او ستكون فما معنى مزاحمته في مجلسه؟ فقال : يا بن نباتة ان في هذا الظهر أرواح كل مؤمن ومؤمنة في قوالب من نور على منابر من نور.

(٢) المصدر عن الكافي في حديث الزنديق الذي سأل الصادق (عليه السلام) عن مسائل إلى ان قال اخبرني عن السراج إذا انطفأ اين يذهب نوره قال : يذهب فلا يعود ، قال : فما أنكرت ان يكون الإنسان مثل ذلك إذا مات وفارق الروح البدن لم يرجع اليه ابدا كما لا يرجع ضوء السراج اليه إذا انطفأ؟ قال : لم تصب القياس ان النار في الأجسام كامنة والأجسام قائمة بأعيانها كالحجر والحديد فإذا ضرب أحدهما بالآخر سطعت من بينهما نار تقتبس منها سراج له الضوء فالنار ثابتة في أجسامها والضوء ذاهب والروح جسم رقيق قد البس قالبا كثيفا ليس بمنزلة السراج الذي ذكرت ، ان الذي خلق في الرحم جنينا من ماء صاف وركب فيه ضروبا مختلفة من عروق وعصب وأسنان وشعر وعظام وغير ذلك هو يحييه بعد موته ويعيده بعد فناءه ، قال : فأين الروح قال. في بطن الأرض حيث مصرع البدن إلى وقت البعث ، قال : فمن صلب اين روحه؟ قال : في كف الملك الذي قبضها حتى يودعها الأرض ، قال : أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه ام هو باق؟ قال : بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حس ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها وذلك اربعمائة سنة تسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين.

وهذه هي نفخة الإحياء. وقبلها نفخة الاماتة. ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ إذ لا تنفع الأنساب ولا الأسباب ولا الأحباب الا نسب الايمان وسببه ﴿وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ هم عن أنسابهم إذ لا تنفع اللهم الا نسب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وصهره وكما يروى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): ان الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري» [١] وطبعا على شريطة الايمان فيصبح نورا على نور ، «وان كان النسب مقطوعا الا ما وصله الله بالإسلام» [٢].

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٥ . اخرج احمد والطبراني والحاكم والبيهقي في سننه عن المسور بن مخرمة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ... واخرج البزاز والطبراني والحاكم والبيهقي والضياء في المختارة عن عمر بن الخطاب سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي واخرج ابن عساكر عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري وفي نور الثقلين ٣ : ٥٦٢ عن تفسير القمي حدثني أبي عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر (عليه السلام) ان صفية بنت عبد المطلب ، مات ابن لها فأقبلت فقال لها عمر : غطى قرطك فان قرابتك من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تنفعك شيئا ، فقالت له : هل رأيت لي قرطا يا ابن اللخناء ، ثم دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبرته بذلك وبكت فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فنادى الصلاة فاجتمع الناس فقال : ما بال أقوام يزعمون ان قرابتي لا تنفع لو قد قمت المقام المحمود لشفعت في خارجكم.

أقول عجبا لابن الخطاب كيف ينكر ذلك وهو من رواة حديث النسب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)!

(٢) نور الثقلين ٣ : ٥٦٤ في اصول الكافي عن امير المؤمنين (عليه السلام) جواب لرسالة طلحة والزبير اليه وفيه : زعمتما أنكما أخواي في الدين وابنا عمي في النسب ، فاما السبب فلا أنكره ، وان كان النسب مقطوعا إلّا ما وصله الله بالإسلام.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾ ١٠٣.

والموازين هناك هي موازين الايمان والعمل الصالح ، موازين العلم والمعرفة والنية الصالحة وعلى حد ما يروى عن صادق آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الموازين هي موازين الانسانية.

واما العوان بين أولاء وهؤلاء الذين ثقلت بعض موازينهم وخفت الاخرى ، فلا هم مفلحون تماما ، ولا هم خالدون في النار تماما ، وانما لهم عوان الجزاء ثوابا وعقابا كعوان الموازين ولا يظلمون فتيلا.

وكضابطة شاملة ما يروى ان «الحسنات ثقل الميزان والسيآت خفة الميزان» فلا وزن إذا للسيئات ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً﴾ (١٨ : ١٠٥) وانما هو للحسنات.

فيا «ايها الناس ان العربية ليست بأب والد وانما هو لسان ناطق فمن تكلم به فهو عربي ، ألا إنكم ولد آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم والدليل على ذلك قول الله : ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ﴾ بالأعمال الحسنة ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ من تلك الأعمال الحسنة ﴿فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾[1].

---

(١) المصدر عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) لا يتقدم يوم القيامة احد الا بالأعمال والدليل على ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

ان نسب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مما يثقل الميزان شريطة الحسنات ، وإنها الأصل الأصيل «والله لا ينفعك غدا إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح [١] إلا ان الصالح من نسيب الرسول (صلى الله عليه

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٦٣ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين (عليه السلام) طاوس الفقيه : رأيته يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد فلما لم ير أحدا رمق إلى السماء بطرفه وقال : الهي غارت نجوم سماواتك ، وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحات للسائلين جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في عرصات القيامة ثم بكى وقال : وعزتك ، وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وانا بك شاك ، ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولكن سوّلت لي نفسي واعانني على ذلك سترك المرخى به علي فانا الآن من عذابك من يستنقذني ، وبحبل من اعتصم ان قطعت حبلك عني فوا سوأتاه غدا من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا ، وللمثقلين حطوا ، ام مع المخفين أجوز ، ام مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب ، اما آن لي ان استحي من ربي ثم بكى وإنشاء يقول :

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم اين محبتي

أتيت باعمال قباح رديئة ... وما في الورى خلق جنى كجنايتي

ثم بكي وقال : سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص ، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن لك الحاجة إليهم ، وأنت يا سيدي الغني عنهم ، ثم خر إلى الأرض ساجدا قال : فدنوت منه وشلت رأسه فوضعته على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده فاستوى جالسا وقال : من الذي اشغلني عن ذكر ربي؟ فقلت له : انا طاوس يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا ان نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون؟ أبوك الحسين بن علي (عليه السلام) وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : فالتفت الي وقال : هيهات هيهات يا طاوس دع عني حديث أبي وامي وجدي خلق الله الجنة لمن أطاع واحسن ولو كان عبدا حبشيا وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولدا قرشيا اما سمعت قول الله تعالى : ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ والله ...

واله وسلم) أصلح كما الطالح منه اطلح كما تدل على ذلك آيات من الأحزاب [١].

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ ١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ﴾ ١٠٥.

هؤلاء هم أئمة الكفر وقادة الضلالة [٢] كما ان من ثقلت موازينه هم أئمة الايمان وقادة الهداية.

واللفح هو شديد النفخ السامّ ، والكلوح هو تقلّص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو ، فقد يصيب وجوههم لهب النار بنفتحها لحد تتقلّص شفاههم وتبدو أسنانهم كالرؤوس المقشرة المشوية ، «مفتوحي الفم ، متربدي الوجوه [٣] تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على اعصابهم» [٤]

---

(١) وهي : يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن ...

(٢) نور الثقلين ٣ : ٥٦٥ في الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه احوال القيامة وفيه : ومنهم أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزنا ولا يعبأ بهم لأنهم لم يعبئوا بامره ونهيه فهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون.

(٣) نور الثقلين ، ٣ : ٥٦٦ في تفسير القمي في الآية قال : تلهب عليهم فتحرقهم «وهم فيها طالحون» اي ..

(٤) الدر المنثور ٥ : ١٦ . اخرج ابن مردويه والضياء في صفة النار عن أبي الدرداء قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله : تلفح وجوههم النار قال : .. وفيه عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان جهنم لما سيق إليها أهلهما تلفتهم بعنق فلفحتهم لفحة فلم تدع لحما على عظم الا ألقته على العرقوب ، وفيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته.

فيقال لهم قولة قارعة ضارعة ﴿أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ تلاوة البيان من كتاب الشرعة التدوين ، وتلاوة العيان من كتاب الافاق التكوين «فكنتم» على طول خطوطها وبكل خيوطها ﴿بِها تُكَذِّبُونَ﴾ في قال وحال وفعال على أية حال.

وهنا الاعتراف الصارخ القارح ، اعتذارا بغلب الشقوة علّه يخفف عن وطأة العذاب ، وكما كان الاعتراف بالذنب من شروطات استجابة الدعوة يوم الدنيا :

﴿قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ﴾ ١٠٦.

ما كنا غالبين إذ كذبنا بآياتك بل كنا مغلوبين تحت وطأة الشقوة والضلالة ، ولكن من اين جاءت الشقوة وحلت الضلالة الا من أنفسكم تخيرا لها وتسيّرا فهم «بأعمالهم شقوا» [1] فقد كان غلبا مختارا لا يعذركم فيما كذبتم ، ولكنهم على زعمهم القاحل يتطلبون الرجعة إلى حياة التكليف :

﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ﴾ ١٠٧

وعل ذلك آخر المطاف في سؤالهم المستجدي لعله يجدي وكما يروى

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٦٦ في كتاب التوحيد باسناده إلى علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : بأعمالهم شقوا وفيه عن كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه احوال المحشر يقول فيه وقد ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ويشهد على منافقي قومه وأمته وكفارهم بالحادهم وعنادهم ونقضهم عهوده وتغييرهم سنته واعتدائهم على أهل بيته وانقلابهم على اعقابهم وارتدادهم على ادبارهم واحتذائهم في ذلك سنة من تقدمهم من الأمم الظالمة الخائنة لانبيائها فيقولون بأجمعهم ﴿رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا﴾.

عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ... فيقولون ادعوا ربكم فلا احد خير من ربكم فيقولون : ﴿رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ﴾ فيجيبهم : ﴿قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ ..﴾[1] وقد تعني «عدنا» عودا إلى التكذيب وعودا إلى حياة الحساب بنفس الحالة ، وعودا إلى الجحيم بنفس التصميم.

وي كأنهم لم يكونوا من قبل ظالمين في غلب الشقوة والضلالة ، وان الله أدخلهم النار دون ظلم منهم! ولذلك الهراء القاحل ، والاعتذار الجاهل يستحقون خطاب الكلاب :

﴿قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ ١٠٨.

﴿اخْسَؤُا فِيها﴾ خسأ الكلاب . وهم أضل سبيلا من الكلاب . ﴿وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ فذلك إذا آخر المجال لكلامهم المستغيث فيظلون خرسا

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٦ . اخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثوا بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلابيب الحديد فإذا دنا من وجوههم شوت وجوههم وإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة جهنم ان ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون : او لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قال فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون مالكا فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك فيجيبهم انكم ماكثون فيقولون ادعوا ربكم ...

لا يكلّمون ، اللهم إلا مع بعضهم البعض متلاومين.

ولان الخسأ هو زجر الكلب مستهينا به ، ولا يخسأ الا الكلب الهراش الضاري ، كذلك هم يخسئون بكذبهم فيها وما كانوا يكذبون [١].

﴿إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ١٠٩ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ ١١١.

هم كانوا يستغفرونني بسناد الايمان يوما فيه مناص ، وأنتم تستغفرونني بسناد الشقوة والضلالة زعم العاذرة فيها ولات حين مناص إذ قد مضى يوم خلاص.

وأنتم اتخذتموهم سخريا ساخرين الله ورسوله واهل الايمان ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ وهنا ينسب الإنساء إلى المؤمنين إذ لولاهم لما كانت سخرية ولا نسيان ذكر ، فهم من اسباب نسيان الذكر دون تقصير ، وهم بشقوتهم وضلالهم سخروا منهم عامدين بكل تقصير ، فنسوا بذلك ذكر الله ، وأصبحت قلوبهم قاحلة عن ذكره إلى مليء من ذكر الشيطان ، وذلك كمثل قوله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ (٢ : ١٠).

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا﴾ على ما كنتم منهم تسخرون وعليهم تضحكون ، دون تزعزع من ايمانهم ولا تلكع فيما يعملون ، ﴿جَزَيْتُهُمُ أَنَّهُمْ

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧ ـ اخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن حذيفة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الله إذا قال لأهل النار : ﴿اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ عادت وجوههم قطعة لحم ليس فيها أفواه ولا مناخير تردد النفس في أجوافهم.

﴿هُمُ الْفائِزُونَ﴾ ففوزهم اليوم ككل هو جزاءهم بما صبروا.

﴿قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾(١١٢).

وترى كيف تتناسب «لا تكلمون» وذلك السؤال حيث يتطلب كلاما في الجواب؟ علّه يعني لا تكلمون دون اذن أو أمر : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١١ : ١٠٥).

هذا ، ولان الكلام الممنوع هو المرجو منه الفائدة ، واما الكلام العذاب فهو عذاب فوق العذاب.

وهذا السؤال تقريع لهم وتبكيت تثبيتا لإجرامهم القاصد على فسحة من زمن التكليف : ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ورغم ان السؤال يؤكد لبث سنين ، هم يحولونها إلى يوم او بعض يوم :

﴿قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ﴾ ١١٣.

وعلهم هكذا يجنّنون في الجواب لعظيم الهول المرهف الذي أنساهم عدد مكثهم ، فيحولون الجواب إلى العادين الذين هم في ذكر من عدد السنين إلى يوم الدين.

﴿قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١١٤.

وطبعا «قليلا» بجنب الآخرة لا لأداء التكليف ، وهم طول هذا القليل في غفلة الشهوة وشهوة الغفلة دون ان يقدموا لأنفسهم.

و «في الأرض» هنا كما في البعض مما سواها تقصد الحياة الأرضية دنيوية وبرزخية ، وكما أجابهم الله في اخرى ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ (٣٠ : ٥٦) وحقا إن زمن اللبثين قليل بجنب الآخرة لأمور عدة ذكرناها في طه وسواها.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ ١١٥.

فحيث لا بعث ولا رجوع إلى الله للحساب والجزاء فالخلق ـ إذا ـ عبث عبث الظلم ، فان خلق الخلق دون فصل القضاء ظلم ، وعبث اللاغاية الصالحة ـ حيث الحياة الدنيا بنفسها ـ بهذه الظلامات والحرمانات ـ ليست غاية صالحة ، والرجوع إلى الله يجعل الخلق صالحا ذا غاية صالحة ، فالخلق دون بعث عبث ، سبحانه وتعالى عما يصفون.

ويا لها من آية تقريع على الغافلين المتجاهلين وقد قال رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم): والذي نفسي بيده لو ان رجلا موقنا قرأها على جبل لزال» [١].

ويقول جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) في جواب من سأله : لم خلق الله الخلق؟ ان الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثا ولم يتركهم سدى ، بل خلقهم لإظهار قدرته ، وليكلفهم طاعته ، فيستوجبوا بذلك رضوانه ، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرة ، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم» [٢].

﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ١١٦.

---

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧ ـ اخرج جماعة عن ابن مسعود انه قرء في أذن مصاب ، أفحسبتم انما خلقناكم عبثا حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا قرأت في اذنه فأخبره فقال ... وفيه اخرج ابن السني وابن منده وابو نعيم في المعرفة بسند حسن من طريق محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي عن أبيه قال بعثنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في سرية وأمرنا ان نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم إلينا لا ترجعون فقرأناها فغنمنا وسلمنا.

(٢) نور الثقلين ٣ : ٥٦٦ في علل الشرايع باسناده إلى جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال : سألت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام فقلت له : ....

﴿فَتَعالَى اللهُ . الْمَلِكُ . الْحَقُّ﴾ عن العبث بالخلق ، وعن ان يكون له شريك في الملك او ولي من الذل ، او ان يترك خلقه سدى دون هدى بالوحي ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ عرش الربوبية والتدبير ، في التكوين والتشريع «الكريم» عرش لا تضيّق فيه ، بل هو كريم واسع الرحمة.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾ ١١٧.

﴿لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ﴾ قد تكون جزاء الشرط نكرانا لاي برهان على إله آخر ، ام وصفا ل ﴿إِلهاً آخَرَ﴾ مماشاة ، ان لو كان هنالك برهان له لكان مقبولا ، ام قيدا توضيحيا حيث الإله الآخر لا برهان له ، فهذه الدعوة والدعوى الباطلة دون اي برهان ولا إمكانه هو من أضل الضلال وأظلم الظلم ﴿فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يوم القيامة الكبرى ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾ لا برهانا ولا واقعا متخلفا عن برهان ، لا في الاولى ولا الاخرى ، مهما ارعدوا وابرقوا في هذه الأدنى ، إذا فكل دعوى دون اي برهان فيه حساب عند الله دون اي افلاح لصاحبها ، فذلك محرّم شرعيا كما هو محرم عقليا وفطريا ، حيث الإنسان العاقل والمتشرع هو ابن البرهان جملة وتفصيلا ، وفيما يجب عليه التقليد لعجز عن الاجتهاد ، فلا يجوز التقليد ـ كما الاجتهاد ـ دون اي برهان.

ويا لها من سورة بدايتها تبشير للمؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ومن نهايتها إنذار الكافرين ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾ ثم ختامها الاستغفار والاسترحام للمؤمنين :

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ١١٨.

﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ لي عما يهاجمني من دوائر السوء التي تعرقل دون رسالتي «وارحم» ني في هذه السبيل الشائكة المليئة بالأشلاء والدماء.

ثم «اغفر» للمؤمنين عما تعرضهم من خطايا او تعترضهم «وارحم» المؤمنين ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فالغفر من مصاديق الرحمة الرحيمية ، فخير الراحمين هو خير الغافرين.

الفهرس

«سورة الحج» أدب المجادلة في الله؟ ..... ١٣ ـ ١٦
مراحل خلق الإنسان برهان معاده ..... ١٦ ـ ٢٤
«من يعبد الله على حرف» : أعبدني يا رب حتى اعبدك! ..... ٢٦ ـ ٣٢
«.. فليده بسبب إلى السماء ثم ليقطع ..»؟ ..... ٣٢ ـ ٣٦
هل الصابئون والمجوس من المشركين؟ ..... ٣٧ ـ ٣٨
ما هي سجدة من في السموات ومن في الأرض؟ ..... ٣٨ ـ ٤١
«.. سواء العاكف فيه والبلاد ، من هما وما هو السواء؟ ..... ٤٨ ـ ٥٤
فرض الحج راجلاً على من يستطيعه وموقف المزاد والراحلة حكم في الحج ..... ٥٨ ـ ٧٣
الطواف الواجب وحدوده وشروطه ..... ٧٩ ـ ٨٩
شعائرالله ..... ٩٥ ـ ١٠٠
الأضحية الواجبة وحدودها ، وحرمة الذبح المبذر أو الُمسرف ..... ١٠٦ ـ ١٢١
بداية أمر القتال في العهد المدني ..... ١٢٦ ـ ١٣٣
ما هو تمنى الرسل الملقي فيه الشيطان؟ ..... ١٤٧ ـ ١٥٦
«هو اجتباكم» في بشارات ..... ١٨٥ ـ ١٩٤
«سورة المؤمنون» أوصاف المؤمنين السبعة ..... ٢٠٠ ـ ٢١٤
مراحل الجنين ـ «ثم أنشأناه خلقا آخر ، من ادلة عدم تجرد الروح ..... ٢١٩ ـ ٢٢٦
كل مياه الأرض من السماء ..... ٢٢٩ ـ ٢٣٠

وحدة الأمم والرسالات..... ٢٥١ ـ ٢٥٣
«إذاً لذهب كل إله بما خلق» من براهين التوحيد ..... ٢٧٥ ـ ٢٧٧
«ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون» ومن أدلة الحياة البرزخية ..... ٢٨٠ ـ ٢٨٦
«فلا أنساب بينهم ..» ثقل الموازين وخفتها؟..... ٢٨٦ ـ ٢٩٠